المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط بعنوان:

دور الدولة الفاطمية في التصدي للعدوان الصليبي على الشام ومصر (488-567هـ/1095-1171م)

إعداد الطالب: سحيري بغداد
إشراف الدكتور: عبد العزيز بوكنة

السنة الجامعية 2011/2010

الـمقدمة

المقدمة:

دور الدولة الفاطمية في التصدي للعدوان الصليبي على الشام ومصر (488-567هـ/ 1095-1171م)، هو موضوع بحثنا في هذه الرسالة المتواضعة، أردنا الخوض فيه لأنه موضوع شد انتباهنا، ولطالما كنا ننقب ونبحث عن تاريخ هذه الدولة، خصوصا وأنها تختلف عنا نحن السنة من حيث المذهب، وكانت في خط المواجهة دائما مع المسلمين السنة، وهو ما جعلنا نختار جزءا من تاريخها، لنقوم بدراسته، فكان موقفها من العدوان الصليبي على بلاد الشام ومصر، هو الأنسب، خصوصا وأنه مبهم نوعا ما، لدى الكثير من الباحثين والمهتمين بتاريخ الخلافة الفاطمية.

ومما شجعني على تتبع هذا الموضوع والتوغل في أعماقه، هو الرغبة الجامحة في دراسة تاريخ الفاطميين، خاصة في الشق المتعلق بموقفها من العدوان الصليبي، ثم إننا رأينا أن الدراسات المتعلقة بهذا الجانب بالضبط، غير موجودة، ولذلك قررنا تناوله.

ونحاول في هذه الدراسة أن نجيب عن إشكالية، وهي: ما هو الدور الذي قامت به الدولة الفاطمية في مواجهة العدوان الصليبي على بلاد الشام ومصر، أو بعبارة أخرى كيف تجسدت ردة فعل الفاطميين تجاه العدوان الصليبي على الشام ومصر.

وفيما يخص الدراسات السابقة المتعلقة بهذا الموضوع، فتكاد تكون غير موجودة، لأن هذا الموضوع بالذات لم نعثر له على وجود، ولكن في مقابل ذلك هناك دراسة هي عبارة عن كتاب بعنوان شخصية الدولة الفاطمية في الحركة الصليبية، لسعيد عبد الفتاح عاشور، لكننا لم نعثر لها على وجود، ثم إن هناك معلومات متوفرة في العديد من الكتب، عن تاريخ الدولة الفاطمية ولكنها لا تفرد موضوعا مستقلا بدور الدولة الفاطمية في التصدي للعدوان الصليبي كما أن المصادر الشيعية نفسها، لا تتكلم عن هذا الشق من تاريخ الدولة.

ولذلك حملنا على عاتقنا الخوض في هذا الموضوع، رغم إدراكنا بصعوبة الأمر، خصوصا وأننا لا نزال مبتدئين في ميدان البحث، وقد قررنا أن نبدأ في الموضوع من أول يوم بدأت فيه الحروب الصليبية، إلى آخر يوم سقطت فيه الدولة الفاطمية، حيث انتهى دورها تماما بنهايتها لكن قبل ذلك، وقد قسمنا بحثنا إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، حيث عنونا الفصل الأول بالأوضاع العامة للدولة الفاطمية قبيل بداية العدوان الصليبي، وقد أدرجنا أول عنصر داخله تحت عنوان، نبذة تاريخية عن الدولة الفاطمية منذ قيامها إلى غاية انتقالها إلى مصر، وتكلمنا فيه عن أصل الفاطميين، ثم قيام الدولة الفاطمية، وفي الأخير انتقالها إلى مصر.

أما العنصر الثاني فقد عنوناه بالأوضاع العامة في مصر قبيل بداية العدوان الصليبي، وتكلمنا فيه عن الأوضاع السياسية، والاقتصادية، وعنونا العنصر الثالث بالأوضاع العامة لبلاد الشام قبل بداية العدوان الصليبي، هذا وقد قررنا أن ندرس الأوضاع العامة في بلاد الشام بما فيها السلاجقة، وذلك للتداخل الكبير في العلاقات بين هذه الأطراف المتجاورة، وتكلمنا فيه عن انهيار النفوذ السلجوقي في بلاد الشام، ثم تكلمنا عن انحسار النفوذ السلجوقي في بلاد الشام وتكلمنا في الأخير عن نهاية الإمارات الشامية.

أما العنصر الثالث من هذا الفصل، فقد عنوناه، بالعلاقات الخارجية للدولة الفاطمية في المشرق قبيل بداية العدوان الصليبي، وقد ارتأينا أن نقتصر على منطقة المشرق فقط، لأن هذه المنطقة كانت هي المقصودة بالدراسة، خصوصا وأن آثار هذه العلاقات ظلت آثارها واضحة إلى غاية قيام الحروب الصليبية.

وعنونا أول عنصر في هذا المبحث، العلاقة مع الخلافة العباسية، والتي كانت في مجملها عدائية، ثم عنونا العنصر الثاني، بالعلاقة مع بيزنطة.

وعن الفصل الثاني الموسوم بعنوان، العدوان الصليبي على ساحل الشام وموقف الفاطميين منه، فهو الآخر يحوي ثلاث مباحث، إذ عنونا المبحث الأول منه، ببداية الحروب الصليبية وتطرقنا فيه إلى التعريف بالحركة الصليبية، ثم دوافعها، والمناطق الأولى التي تعرضت لها قبل بلاد الشام، أما المبحث الثاني فقد عنوناه، بسقوط المدن الساحلية الشامية، وقد اخترنا أن نبدأ بالمدن الشامية رغم أن بعضها سقط بعد بيت المقدس، وذلك لمراعاة الجانب الجغرافي الذي تفرضه طبيعة الموضوع، ولأن ردة فعل الفاطميين على هذا العدوان، كانت من سقوط أول مدينة في الشام وهي أنطاكية، ولذلك حفاظا على وحدة الموضوع أفردنا مدن ساحل الشام لوحدها وهي الممتدة من شمال فلسطين وإلى غاية الحدود الشمالية لبلاد الشام.

وقد تكلمنا في هذا المبحث عن سقوط طرابلس، ثم سقوط كل من بيروت وصيدا، وفي الأخير سقوط صور والذي مر بمرحلتين، كما سيأتي ذكره.

أما عن المبحث الأخير، فقد عنوناه بموقف الفاطميين من هذا العدوان، وإذا كانت كلمة موقف لا تعبر عن ردة الفعل بطريقة مباشرة، إلا أننا لم نستطع توظيف كلمة أخرى أدق للتعبير، وقد كان موقف الفاطميين من العدوان الصليبي متباينا، أو بالأحرى تجسد على ثلاث جوانب، أما الجانب الأول، فقد كان سياسيا، والذي كان مساندا للصليبيين حيث عقدوا تحالفا معهم، ثم إنهم أقدموا على معاداة السلاجقة بأن انتقموا منهم بنزع بعض المدن منهم.

أما الجانب الثاني فقد كان عسكريا بحتا، وتجسد في مواجهات عسكرية مع الصليبيين وكان ذلك في عهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، ثم انخفضت ردة

فعلهم العسكرية بعد موت الأفضل، وفيما يخص الجانب الأخير فقد كان اقتصاديا، وهي طريقة ابتكرها الأفضل حيث عمد إليها لما رأى عقم الحلين السابقين.

أما الفصل الثالث فقد عنوناه بالعدوان الصليبي على فلسطين وموقف الفاطميين منه وجعلنا أول مبحث منه، سقوط بيت المقدس، والذي جاء في أعقاب سقوط مدن أخرى من قبله، وتكلمنا فيه عن أهم التنظيمات التي اتخذها الصليبيون فيه بعد أن أعلنوا عن تأسيس مملكتهم به.

أما العنصر الثاني فقد عنوناه بالتوسع الصليبي في إقليم الجليل ومدن الساحل، إذ تكلمنا عن احتلال إقليم الجليل أولا ثم مدن الساحل الفلسطيني، والتي شملت عدة مدن كحيفا وأرسوف وقيسارية، وعكا.

أما المبحث الثالث، فقد عنوناه بموقف الفاطميين من هذا العدوان، والذي كان عسكريا بحتا، حيث تجسد في أربعة معارك شهيرة، وهي معركة عسقلان الأولى، وهي التي حدثت في أعقاب سقوط بيت المقدس مباشرة، (هذا وهناك معارك أخرى حدثت في عسقلان لكننا سنذكرها في سياق حديثنا عن سقوط عسقلان)، ومعارك الرملة الأولى والثانية والثالثة، ثم سمينا العنصر الثاني من هذا المبحث، بمقاومة الحاميات الفاطمية، والذي تمثل في مقاومة كل من حامية بيت المقدس، وحامية عسقلان التي لعبت دورا كبيرا في عملية الجهاد ضد الصليبيين.

وعن الفصل الأخير والموسوم بعنوان، العدوان الصليبي على مصر وموقف الفاطميين منه فقد قسمناه إلى مبحثين فقط حسب ما تقتضيه خطة البحث، حيث عنونا المبحث الأول منه بالعدوان الصليبي على مصر وموقف الفاطميين منه، وتكلمنا في العنصر الأول عن العدوان الصليبي على مصر في عهد بلدوين الأول، أما العنصر الثاني فقد تطرقنا فيه إلى العدوان الصليبي على مصر في عهد عموري الأول، وتطرقنا في العنصر الثالث إلى العدوان الصليبي على مصر بالتعاون بين عموري الأول والبيزنطيين.

أما المبحث الثاني فقد أفردناه لموقف الفاطميين من هذا العدوان، وكان أول عنصر في هذا المبحث، هو في عهد الوزير ضرغام، أما الثاني فكان في عهد الوزير شاور، وقد كان موقفهما متشابها إلى حد بعيد، خصوصا وأنهما استنجدا بالصليبيين ضد نور الدين محمود كما سنرى لاحقا، في حين عنونا آخر عنصر من هذا المبحث، والرسالة عامة باستنجاد العاضد بنور الدين محمود، والذي انتهى بطرد الصليبيين من مصر، ومن ثم القضاء على الدولة الفاطمية كاملة.

ولإثراء الموضوع، اعتمدنا على مجموعة من المصادر والمراجع، وقد تميزت بالاختلاف والتنوع، وذلك حسب ما تقتضيه خطة البحث، حيث سايرنا

البحث حسب الخطة الموضوعة له، ولذلك فقد اعتمدنا على المصادر المختصة بمنطقة المغرب، وأضفنا لها المصادر الشيعية التي تحدثت عن قيام الدولة الفاطمية، ثم المصادر المتعلقة بمنطقتي مصر والشام، إضافة إلى المصادر المتعلقة بفترة الحروب الصليبية.

أما عن المصادر المتعلقة بمنطقة المغرب فقد اقتصرنا على البعض منها، خصوصا وأن هذه المنطقة غير معنية بالتحديد بهذه الدراسة، وقد كان في طليعة هذه المصادر، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، لعبد الرحمن بن خلدون، حيث استندنا فيه إلى معرفة نسب الفاطميين، وإلى تاريخهم هناك منذ بداية الدعوة، وإلى غاية قيام الدولة، كما اعتمدنا أيضا على كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذاري المراكشي، وهو الآخر اعتمدنا عليه لتتبع الأخبار المتعلقة بتاريخ الفاطميين بمنطقة المغرب، واعتمدنا أيضا على كتاب، الحلة السيراء لابن الأبار لنفس الغرض.

وعن المصادر الشيعية المتعلقة بمنطقة المغرب، هناك كتاب عيون الأخبار وفنون الآثار في فضائل الأئمة الأطهار السبع السادس، للداعي المطلق إدريس عماد الدين القرشي، إضافة إلى كتاب كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء السادس المتعلق بالدولة الفاطمية، والمعنون بالدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، كما اعتمدنا أيضا على كتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، في جزئه الأول، الذي يتحدث عن الأيام الأولى لهذه الدولة.

أما عن منطقة مصر وبلاد الشام، فقد اعتمدنا على مجموعة من المصادر أيضا، ومنها مجموعة كتب المقريزي، وهي اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، في جزئه الثاني وكتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة، إضافة إلى كتابي المقفى الكبير، وكتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، وهي كتب متخصصة في تاريخ الفاطميين، حيث تطرقوا إلى تاريخ الفاطميين بتفصيل كثير سواء فترة الحروب الصليبية أو قبلها، كما اعتمدنا على تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، لابن الوكيل يوسف الملواني.

وعن منطقة الشام اعتمدنا على مجموعة من المصادر، منها كتاب المختصر في أخبار البشر، لأبي الفدا، وكتاب أخبار الدولة السلجوقية للبنداري، إضافة إلى كتابي زبدة الحلب في تاريخ حلب وبغية الطلب في تاريخ حلب، وهما كتابان لكمال الدين ابن العديم، يضاف إلى هذه المجموعة أيضا كتاب الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، لابن شداد، وكل هذه كتب متخصصة في الشق الخاص بمنطقة الشام، سواء في فترة الحروب الصليبية أو قبلها.

وتضاف إلى هذه القائمة، مجموعة أخرى متخصصة في فترة الحروب الصليبية، وهي عبارة عن مصادر أجنبية مترجمة إلى العربية، ومنها كتاب أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس لمؤرخ مجهول، وكتاب تاريخ الحروب الصليبية لويليام الصوري، إضافة إلى كتاب تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس لبطرس توديبو، وكتاب تاريخ الحملة إلى القدس، لفوشيه الشارتري، وهي مصادر تتحدث عن الحروب الصليبية، منذ بدايتها وإلى غاية وصولها إلى البلاد الشامية وحتى مصر

وهناك أيضا بعض المصادر العربية المتعلقة بتاريخ الحروب الصليبية، ومن بينها كتاب الكامل في التاريخ، لابن الأثير، وكتاب ذيل تاريخ دمشق، لابن القلانسي، وهما كتابا يتعرضان بشيء من التفصيل عن الحروب الصليبية.

كما أضفنا مجموعة أخرى من المصادر، وهي المتخصصة التاريخ الأيوبي، حيث اعتمدنا عليها لكشف بعض الخبايا المتعلقة بتاريخهم، منذ بدايته وإلى غاية نهاية الدولة الفاطمية على أيديهم، ومنها كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ، وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة، إضافة إلى كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، لابن شداد.

وهناك مصادر أخرى أعرضنا عن ذكرها الآن، خشية الإطالة وأرجأنا ذكرها إلى قائمة المصادر والمراجع.

وفي الأخير نتقدم بالشكر لكل من ساعدنا في إنجاز هذا البحث المتواضع، من عمال مكتبيين، في كل من مكتبة المدرسة العليا للأساتذة، وعمال المكتبة الوطنية، إضافة إلى عمال مكتبة بوزريعة، إضافة إلى الأساتذة، خاصة الأستاذ المشرف على الرسالة (**الأستاذ الدكتور عبد العزيز بوكنة**)، كما نتقدم بالشكر لكل الزملاء الذين قدموا لنا المساعدة.

وبهذه الدراسة العلمية أرجو أن أكون قد أضفت لبنة جديدة في صرح البحث التاريخي العلمي بالجزائر، وأتمنى أن يحتل هذا البحث أيضا ما يستحقه من مكانة في المكتبة العربية والوطنية.

وختاما لهذا البحث يمكننا ترصد مجموعة من النقاط الهامة، سواء المتعلقة بعملية التأريخ للدولة الفاطمية، أو لمجريات الحوادث عامة، ذلك أن التاريخ الفاطمي عامة ظهر إلى وقت قريب بملامح باهتة، إذ أن المصادر المتخصصة في تاريخهم ضئيلة بالمقارنة مع ما حظيت به الدول الأخرى على غرار الدولة العباسية مثلا، وإن كان الإحجام عن دراسة التاريخ الفاطمي هو من جانب السنيين، أكثر منه من جانب الفاطميين، ولذلك جاء تاريخها مشكوكا فيه إلى حد بعيد، ومن ذلك مثلا ما حدث من الاختلاف في نسب الفاطميين، فإلى غاية الساعة لا يزال البت في صحته من انعدامها منعدما.

يضاف إلى ذلك أن التاريخ العام لهذه الدولة، ظل مشكوكا فيه هو الآخر، في ظل احتكار عملية تأريخه من طرف الشيعة، فقد كنا نرى مثلا أن الأوضاع في مصر، لم يتم التأريخ لها إلا من طرف الشيعة، وقد تكون مسيرة حسب أهوائهم.

وعلى العكس من ذلك فقد حظيت منطقة بلاد الشام، بالدراسة من طرف السنة، وذلك لاستحواذها على أغلب المؤرخين السنة، ولذلك جاءت حوادث هذه المنطقة، واضحة وصادقة إلى حد بعيد، وذلك لتطابقها مع بعضها البعض.

كان هذا عن عملية التأريخ للدولة الفاطمية، أما عن الحوادث التي جرت عبر تاريخها وخاصة عن دورها في التصدي للعدوان الصليبي على الشام ومصر، فإنه يمكننا أن نقول أن الدولة الفاطمية، كما ابتدأت تاريخها كما أنهته، وبمعنى آخر أنها عاشت طوال حياتها تبحث عن مصالحها الشخصية لا غير، فقد كان قيامها على أنقاض دول أخرى، بل إنها عملت كل ما بوسعها للقضاء على هذه الدول، وليتها قضت عليهم وحسب، بل ارتكبت لأجل ذلك جرائم كثيرة، راح ضحيتها العديد من المسلمين السنة.

ثم إنه اتضح لنا أن الفاطميين يتصفون بصفة، لا نجدها عند المسلمين الآخرين، وهي الغدر فقد تميزت بهذه السمة، بل وكانت وسيلة من وسائلها، وكانت بدايتها عندما أعلن المهدي قيام الدولة الفاطمية، حيث قام بعمليات تصفية واسعة، في حق من كانوا المهندسين الحقيقيين لدولته المتربع على عرشها، حيث قضى على مجموعة كبيرة من كبراء كتامة، كما قضى على مؤسس الدولة شخصيا، وهو الداعي أبو عبد الله الشيعي، فبدل أن يكرمه، ويضعه إلى جانبه لاستشارته في أمور الدولة، قام بالتخلص منه، وهنا نتأكد أن هذه الدولة قامت على مصالح شخصية وحسب، ولو كانت غير ذلك لما تصرفت بهذه الطريقة.

واتضح لنا أيضا أن الفاطميين كان هدفهم الوحيد، هو القضاء على السنة، بمعنى القضاء على العباسيين أعداؤهم الحقيقيون، ولذلك كانوا يبثون دعاتهم في

داخل الدولة العباسية، حتى أنهم تمكنوا من احتلال مقر الخلافة (بغداد) لما يربو عن سنة، وفي ذلك يمكننا الإشارة إلى الكفاءة التي يتمتع بها دعاتها، وقدرتهم على كسب موالين لها في أي بلد يحطوا فيه رحالهم ويمكننا أيضا الإشارة إلى الوضع المتردي للدولة العباسية في ذلك الوقت، بعد أن دخلت في دوامة الصراعات الداخلية، وهو ما سهل من مهمة سقوط العاصمة بغداد بأيدي الفاطميين.

هذا وقد واصل الفاطميون سياستهم العدائية تجاه المسلمين السنة، فقد رأيناهم يتعادون مع البيزنطيين، ثم يتحالفوا معهم إذا دخلوا في نزاع مع المسلمين السنة، ولو لم يكونوا عدائيين لهم لما فعلوا ذلك، وكان حريا بهم أن يتحالفوا مع السنة ضد البيزنطيين، ومن جهة أخرى لم يكن السنة عدائيون مثلهم، ورأينا كيف أن الإمبراطورة البيزنطية ثيودورة اقترحت عليهم مرة أن يتحالفوا معها، فأبوا، ثم عرضت الفكرة على الفاطميين فوافقوا مباشرة.

ولولا خياناتهم المتكررة، لما تيسر فيما بعد للصليبيين الدخول في البلاد الإسلامية، فقد أدت نزاعاتهم مع السلاجقة تارة، ومع الإمارات العربية في بلاد الشامية تارة أخرى، إلى إضعاف الجبهة الإسلامية، وهو ما جعل الصليبيين يفكرون في غزو البلاد الإسلامية، وأكثر من ذلك فقد اتهمها مجموعة من المؤرخين وعلى رأسهم ابن الأثير، والسيوطي، بأنها هي المتسبب الأول في الحروب الصليبية، حيث أرسلوا إليهم لما رأوا تزايد قوة السلاجقة.

ولما قامت الحروب الصليبية في بلاد الشام، كانت الدولة الفاطمية هي السباقة، إلى التحالف معها، ضد السلاجقة، وكان في نظر الفاطميين أن الصليبيين يقصدون فقط المناطق الخاضعة للسلاجقة، ولذلك عمدوا إلى هذه الطريقة، نكاية في السلاجقة أعداؤهم حسب اعتقادهم وليتهم توقفوا عند ذلك الحد، ولكنهم تعدوا ذلك حين بادروا إلى الانتقام من السلاجقة بأن استولوا على بعض المناطق الواقعة تحت تصرفهم، على غرار بيت المقدس ومدينة صور.

وقد كانت معاملاتهم هذه خير دليل على كرههم وحقدهم على المسلمين السنة، وإلا كيف يتصرفون بهذه التصرفات ضد إخوانهم ؟، ولعل ما يدعم قولنا هذا أيضا، هو أن الفاطميين وقفوا موقف المتفرج، على مسلمي كل من أنطاكية، وحمص، ومعرة النعمان، وهم تحت رحمة الصليبيين، في حين كانوا هم (الفاطميون) يرزحون في بحبوحة من الأمن والقوة وأكثر من ذلك لما علم الفاطميون بأن مقصد الصليبيين بيت المقدس، بادروا مرة أخرى إلى الذل والمهانة، حيث أرسلوا إليهم يتوددون لهم، ويعرضون عليهم امتيازات أخرى، لكن مسعاهم هذا باء بالفشل مرة أخرى.

غير أن موقفهم العام تبدل عندما قصد الصليبيون بلادهم، حيث أدركوا أن ركونهم إلى السلم، لن يحقق لهم مطالبهم، وقد يفقدهم حتى أملاكهم، ولذلك بادروا إلى تجهيز أنفسهم للوقوف للند ضد الصليبيين، وكانت البداية من حامية بيت المقدس التي عملت كل ما بوسعها لتأمين الجبهة الداخلية للمدينة، كما قام القيمون على الدولة الفاطمية في مصر، بتجهيز حملة عسكرية كبيرة لطرد الصليبيين نهائيا، غير أن كل محاولاتهم باءت بالفشل، وسقطت بيت المقدس بأيدي الصليبيين، الذين تفننوا في القتل والتنكيل بالمسلمين هناك.

وكان بإمكان الفاطميين تفادي مثل هذه المجازر لو أنهم جهزوا أنفسهم منذ بداية الحملات الصليبية، أو أنهم توحدوا مع السلاجقة، لكنهم جنوا ثمرة خياناتهم الأولى وهي سقوط بيت المقدس، ثم تلتها سقوط جل مدن فلسطين الأخرى بعد فترة قصيرة، وبعدها مدن ساحل الشام، وإن كانت الدولة الفاطمية قد حاولت جاهدة للحد من هجومات الصليبيين، إلا أنها عجزت في أغلب محاولاتها، ثم خارت قواها مع مرور الوقت، وعمد الوزير الأفضل وهو القيم عليها يومئذ نيابة عن الخليفة، إلى ابتكار أسلوب جديد في الدفاع عن بقية مدن الشام، وهو تقديم مساعدات اقتصادية لسكان هذه المدن، حتى يتقووا بها على مجابهة الصليبيين، لكنه هو الآخر باء بالفشل الذريع، وأضحت كامل بلاد الشام بما فيها أغلب فلسطين تحت رحمة وتسلط الصليبيين.

وإذا كان الفاطميون قد تحلوا بنوع من الذكاء في دفاعهم على فلسطين، وبعض مدن ساحل الشام، إلا أنهم عادوا إلى خياناتهم بل وذلهم، في دفاعهم عن مصر، فبدلا من أن يتوحدوا مرة أخرى مع قوات نور الدين محمود، لطرد الصليبيين الذين يقصدون بلادهم وخيراتهم، إلا أنهم تحالفوا مع الصليبيين ضد نور الدين، وهو مظهر آخر من مظاهر العدوانية الصريحة للمسلمين السنة، وقد رأينا كيف أن نور الدين محمود عانى من الكثير من غدر شاور فمرة يطلب مساعدته، ثم يغدر به، ومرة يستنجد شاور بالصليبيين، ضد قوات نور الدين محمود، لكن خيانات شاور ومحامله وإن كثرت، إلا أنها انتهت ضده، فقد عملت قوات نور الدين محمود، تحت قيادة أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين بن نجم الدين أيوب جاهدة إلى طرد الصليبيين المتحالفين مع شاور، وتوحيد مصر ببلاد الشام، أو إعادتها إلى حاضرة السنة، وهو الخيار الأمثل، إن تيسر لها ذلك، و بعد جهد جهيد تمكنت من ذلك وانتهت محاولات الجيش النوري، بالقضاء على شاور، ومن بعده بسنوات قليلة القضاء الدولة الفاطمية، منهيا بذلك تاريخها المليء بالمؤامرات والدسائس، التي ما فتئت تنخر جسم الأمة الإسلامية جمعاء.

وإجمالا يمكننا القول أن الدولة الفاطمية كانت السبب في استيلاء الصليبيين على كامل بلاد الشام، وبالتالي فهي المتسببة في كل المجازر التي حدثت في حق المسلمين، ولو أنها تصرفت منذ البداية بحكمة، وتوحدت مع السلاجقة لتغير تاريخ بلاد الشام كاملا، وإضافة إلى ذلك أظهرت عجزا واضحا في تصديها لهذا العدوان لما استفحل وجوده في البلاد الإسلامية.

هذا ويمكننا القول أن الدولة الفاطمية كانت قد أمضت عن وثيقة نهاية حياتها، حين أعلنت عن تحالفها مع الصليبيين ضد السلاجقة، حيث كلفها ذلك سقوط بلاد الشام كاملة بما فيها المدن الخاضعة لها، ولما استفحل أمر الصليبيين، كان الفاطميون قد ضعفوا ووهنوا، وطبيعيا أن يفكر الصليبيون في مصر نفسها، فعملوا على ذلك، لكنهم لم يحظوا بشرف السيطرة عليها وإنما نال شرف ذلك، نور الدين محمود، الذي أنهى وجودها.

الفصل الأول:

الأوضاع العامة للدولة الفاطمية قبيل بداية العدوان الصليبي

أولا- نبذة تاريخية عن الدولة الفاطمية منذ قيامها إلى غاية استقرارها في مصر
ثانيا: الأوضاع العامة في مصر قبل بداية العدوان الصليبي
ثالثا: الأوضاع العامة في بلاد الشام قبل بداية العدوان الصليبي
رابعا: العلاقات الخارجية للدولة الفاطمية في المشرق قبل بداية العدوان الصليبي

أولا- لمحة تاريخية عن الدولة الفاطمية منذ قيامها إلى غاية استقرارها في مصر

نحاول في هذه اللمحة أن نقدم عرضا موجزا عن تاريخ الدولة الفاطمية، بداية من أصل ونسب مؤسسيها، ثم قيامها ببلاد المغرب، وانتقالها إلى مصر فيما بعد، إلى غاية وصولها إلى بلاد الشام وقد اخترنا تقديم هذه النبذة بالنظر إلى أهميتها في هذا البحث، خصوصا وأن هذه الدولة تختلف عن بقية دول العالم الإسلامي آنذاك من حيث المذهب والعقيدة الذي سيكون لهما دور كبير في سياساتها تجاه العالمين الإسلامي السني، والذي تمثله الخلافة العباسية والسلاجقة، والمسيحي الذي تمثله كل من الإمبراطوريتين البيزنطية و الرومانية.

أ- أصل الفاطميين:

ينسب الفاطميون أنفسهم إلى أبي محمد عبيد الله بن الحسن بن محمد بن علي الرضا بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين علي بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه[1].

غير أن هذا النسب يقع فيه لبس كبير فأغلب المؤرخين ينفونه عنهم[2]، حيث يقع الشك في أصل ونسب عبيد الله المهدي، فهناك مصادر تعزوه إلى أصل فارسي أو مجوسي، وتصفه أحيانا بأنه ابن يهودي، وترجع نسبه إلى ميمون القداح الفارسي الأصل، وفي ذلك يقول ابن ظافر الأزدي: **"...إن المنعوت بالمهدي منهم الذي هو أولهم كان اسمه بسلمية، سعيدا وأنه سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح الأهوازي، وأنه من ولد ديصان الثنوي"**[3].

ولا يسعنا نحن هنا أن نعلق عن الرأيين، فكل منهما له أدلته، وإن كانت أدلة الذين ينفون النسب أقوى، إلا أنه ولحد الساعة لم يتم البت في نسب الفاطميين.

---

[1] المقريزي تقي الدين أحمد بن علي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق محمد عبد القادر عطا دار الكتب العلمية، بيروت(لبنان)، ج1، ص53،52. ابن خلدون عبد الرحمن: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، منشورات محمد علي بيضون، دار الفكر، 1421هـ/2000م، ج4، ص40. de lacy o'leary.d.d: A short history of the Fatimid khalifate, London, kegan paul, trench, trubener. Co. ltd, new York: e.p. Dutton.co. 1923, p 12-13. النوبختي الحسن بن موسى و القمي سعد بن عبد الله: فرق الشيعة، حققه: عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، (1412هـ/1992م)، ص 77-78.

[2] القرماني أحمد بن يوسف: أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، دراسة وتحقيق: أحمد حطيط و فهمي سعد، عالم الكتب، الدولة غير موجودة، (1412هـ/1992م)، ج2، ص 229-230. ابن الأبار عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي: الحلة السيراء، حققه وعلق عليه: حسين مؤنس، دار المعارف (القاهرة)، ط2 (1985)، ج1، ص 190. فرحات الدشراوي: الخلافة الفاطمية بالمغرب (296-365هـ/909-975م)، التاريخ السياسي، والمؤسسات، نقله إلى العربية، حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي (بيروت)، (1994)، ص 66.

[3] الأزدي علي بن ظافر بن الحسين : أخبار الدول المنقطعة، تحقيق(د- عصام هزايمة وآخرون)، دار الكندي (أربد-الأردن)، (1999)، ج1، ص 158.

ب- قيام الدولة الفاطمية

تجدر الإشارة إلى أن الدولة الفاطمية لم تظهر إلى الوجود، إلا بعد أن نشرت دعوتها ببلاد المغرب، حتى يتيسر لها بسط نفوذها بسرعة، وقد مرت الدعوة الإسماعيلية، بمرحلتين كانت أولاها مرحلة الإعداد النظري العقائدي حيث تولاها رجلان هما أبو سفيان الحسن بن القاسم وعبد الله بن علي بن أحمد، المشهور بالحلواني، وقد استقرا في مكانين مخلفين من بلاد المغرب حيث زاولا نشاطهما هناك، إلى أن جاء بعدهما أبو عبد الله الحسين المعروف بالشيعي وهو صاحب المرحلة الثانية في الدعوة، حيث انتقلت على يديه من الدور النظري إلى الدور العملي لبناء دولة آل البيت[1].

وبفضل حنكته ودهائه تمكن من جذب عدد كبير من سكان المغرب الأوسط وجمعهم حوله، ثم خرج بهم ناحية الشرق، وبعد حروب كثيرة تمكن من القضاء على الدولة الأغلبية عام(295هـ/907م)[2]، وفي غضون هذه الأحداث كان مهدي الإسماعيلية قد وقع أسيرا رفقة ابنه القائم في يد اليسع بن مدرار في سجلماسة[3]، بعد أن خرج من مركز الدعوة بسلمية (شهر رجب 289هـ/جوان902م)، فارا من بني العباس الذين اكتشفوا أمره، حيث كانت وجهته إفريقية لكن أمره اكتشف أيضا، فعدل عنها واتجه إلى سجلماسة، ولما دخلها استقبله أميرها اليسع بن مدرار، وأكرم وفادته، و لم يكن يعرفه، وبمجرد أن عرف نواياه[4] قبض عليه وأسره.

خرج الداعي من رقادة يوم الخميس(15رمضان296هـ/07جوان909م)، على رأس جيش كبير مر بتاهرت وقضى على إمارة بني رستم، ثم تابع زحفه باتجاه الغرب حتى وصل إلى سجلماسة يوم السبت(6ذي الحجة) ، ففر منه صاحبها، ودخل المدينة بالأمان، ثم أطلق سراح المهدي وابنه القائم[5].

ومكث بها مدة أربعين يوما[6]، ثم ارتحل عنها عائدا إلى رقادة، حيث بايع المهدي بالإمامة

---

[1] علي حسني الخربوطلي: أبو عبد الله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية، المطبعة الفنية الحديثة، الدولة غير موجودة، (1992)،ص 24.

[2] موسى لقبال: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، دار الأمل (السحاولة- الجزائر)، (2007م)، ج1، ص 682 .

[3] علي حسني الخربوطلي: نفس المرجع السابق، ص55-56.

[4] ابن الأثير أبو الحسن علي: الكامل في التاريخ، تحقيق الدكتور: محمد بن يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية (بيروت) (1407هـ/1987م)، ج6، ص 460-461.

[5] عبد الرحمن بن خلدون: نفس المصدر السابق، ص46.

[6] الأنطاكي يحي بن سعيد يحي: تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، تحقيق الدكتور: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس (لبنان)، 1990، ص 65.

ولقبه بأمير المؤمنين، وتمكن بذلك من القضاء، على كل من دولة الأغالبة والرستميين وبني مدرار، و استطاع أن يؤسس أول دولة شيعية، في شهر (ربيع الآخر297هـ/06جانفي910م) بالمغرب سميت بالدولة الفاطمية.

بعد أن صار عبيد الله على رأس الدولة عمد إلى وضع تنظيمات سياسية وإدارية و دينية وفق ما تتطلبه عقيدته، **"وأظهر التشيع الغالي حين سب الصحابة وأزواج النبي، وزعم أن أصحاب النبي ارتدوا من بعده، كما قطع صلاة التراويح في رمضان، وزاد في الأذان حي على خير العمل"**[1].

وقد لقيت تصرفاته هذه ردود فعل عنيفة من جانب الأهالي، خاصة السنيين الذين رفضوا مذهب الإسماعيلية فخرجوا في ثورات مختلفة، أهمها: ثورة القصر القديم، وثورة سكان القيروان التي تزعمتها بقايا فلول الأغالبة، ثم ثورة سكان طرابلس أوائل عام (300هـ/912م)، لكنهم جوبهوا كلهم بردة فعل قوية من المهدي انتهت باستئصالهم[2].

وثار عليه أيضا الداعي أبو عبد الله لما رأى استبداده بالسلطة، وشك في نسبه، وانتهت ثورته بمقتله هو الآخر[3]، ثم تعرض لثورة هي أعنف من سابقاتها وهي ثورة أبي يزيد الخارجي المعروف بصاحب الحمار، والتي كادت أن تقضي على ملكه، ولم تنته إلا أثناء خلافة المنصور.

ج- الانتقال إلى مصر

منذ أن استقر عبيد الله بإفريقية حتى راح يوجه نظره إلى مصر، فقد كان يريد إقامة خلافة علوية تضم جميع بلدان العالم الإسلامي، ويبدو ذلك جليا في رسالة أرسلها هذا الأخير إلى القرامطة في الشرق جاء فيها: **"...أنا أحلف أيها المؤمنون بأجل ما يحلف به، أن فيما تلقيته مما أطلعنا الله عليه من غيبه الذي استأثر به، وآثر بعلمه أولياءه -الذين لا خوف عليهم ولا يحزنون[4]- أنه لا بد وان تحل ولايتنا خضراء بني أمية بالشام، وزوراء بني العباس بالعراق ويكون لنا من الخلفاء مثل ما كان لبني أمية في العدد..."**[5].

---

[1] ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة (بيروت)، سنة الطبع غير موجودة ج1، ص159.

[2] عماد الدين إدريس القرشي: عيون الأخبار وفنون الآثار في فضل الأئمة الأطهار، تحقيق: الدكتور مصطفى غالب الأندلس، الدولة غير موجودة، ط2 (1404هـ/1984م)، السبع الخامس، ص122. دار. de lacy o'leary.d.d: op. cit, p , 75-76.

[3] موسى لقبال: نفس المرجع السابق، ج1 ص683 . عبد الرحمن بن خلدون: نفس المصدر السابق، ج04، ص47.

[4] سورة البقرة، الآية 38.

[5] المقريزي تقي الدين: المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي (بيروت)، (1411هـ/ 1991م) ج4، ص 570.

كانت رغبة عبيد الله السيطرة على مصر، ومن بعدها بلاد الشام، ثم الخلافة العباسية[1] كبيرة، ولذلك قام بتوجيه أول حملة عسكرية إلى مصر في(301-302هـ/914-915م)، غير أنها فشلت، ثم أتبعها بحملة أخرى عام(306-309هـ/919-921م)، وفشلت هي الأخرى[2].

توقفت بعدها الحملات فترة بسبب كثرة الثورات والفتن الداخلية، ثم عادت من جديد أثناء خلافة القائم، لكنها لم تحقق مبتغاها[3]، غير أنها أفلحت أخيرا في عهد المعز لدين الله، الذي أرسل حملة جديدة إلى مصر بقيادة جوهر الصقلي[4] في(14ربيع الآخر358هـ/07مارس 969م) وتمكنت من السيطرة على الإسكندرية[5].

ولما رأى سكان مصر ضعفهم وقوة خصمهم، قرروا الدخول في المفاوضات، تجنبا لحرب غير متكافئة، وبعد مباحثات بين الطرفين تقرر إعطاء الأمان للمصريين، مقابل السماح للجيش الفاطمي بالعبور إلى الفسطاط، وهو ما حدث[6]، وهناك وضع أساس مدينة القاهرة[7] وفي يوم الجمعة(20شعبان/10جويلية) صلى جوهر الصقلي في الجامع العتيق، صلاة الجمعة، وقطعت الخطبة للعباسيين، وأقيمت للفاطميين[8].

ظل جوهر في مصر يحكم بالنيابة عن المعز، إلى أن تمكن هذا الأخير من ترتيب أموره ببلاد المغرب، ثم انتقل إلى مصر، في (07 رمضان 362هـ/12جوان973م)، ومنذ ذلك الحين
أضحت مصر دار الحكم الفاطمي، وغدت القاهرة عاصمة لها بدلا من المنصورية في إفريقية[9].

د- التمدد باتجاه بلاد الشام

بعد أن تمكن الفاطميون من السيطرة على مصر، قرروا التوجه إلى الشرق للسيطرة على بلاد الشام، وذلك لتأمين مصر من غزوات القرامطة، ولتوسيع

---

1 عبد الله محمد جمال الدين: الدولة الفاطمية، قيامها ببلاد المغرب، وانتقالها إلى مصر، إلى نهاية القرن الرابع الهجري، مع عناية خاصة بالجيش، دار الثقافة (القاهرة)، (1411هـ/1991م)، ص93.

2 ابن عذارى المراكشي: نفس المصدر السابق، ج01، ص 171.

3 الكندي محمد بن يوسف: تاريخ ولاة مصر، مؤسسة الكتب الثقافية (بيروت) ، (1407هـ/1987م)، ص305-307.

4 جوهر الصقلي: هو جوهر بن عبد الله القائد أبو الحسين الصقلبي، الرومي، الكاتب مولى المعز لدين الله أبي تميم معد وفاتح مصر...، أنظر المقفى الكبير: لتقي الدين المقريزي، ج3، ص84.

5 ابن الوكيل يوسف الملواني: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية (القاهرة)، (1419هـ/1999م)، ص 55-56. ابن عبد الظاهر محي الدين أبو الفضل عبد الله: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، حققه وعلق عليه أيمن فؤاد السيد، مكتبة الدار العربية (القاهرة) (1417هـ/1996م)، ص 13.

6 جلال عبد الرحمن السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج2، ص 11.

7 ابن عبد الظاهر: نفس المصدر السابق، ص 14.

8 المقريزي: اتعظ الحنفا، ج1، ص 114-116.

9 سيمينوفا.ل.أ : تاريخ مصر الفاطمية، ترجمة وتحقيق حسين بيومي، المجلس الأعلى للثقافة، الدولة غير موجودة (2001)، ص 39.

رقعة دولتهم خاصة على حساب الخلافة العباسية، في خطوة أخرى للقضاء عليها نهائيا إن تيسر لهم الأمر.

ولذلك جهز جوهر الصقلي، منذ مطلع عام (358هـ/969م)، جيشا كثيفا وأرسله إلى بلاد الشام تحت قيادة مساعده الكتامي جعفر بن فلاح[1]، حيث تمكن من الاستيلاء على الرملة[2]، ثم طبرية[3] في شهر (رجب359هـ/أفريل970م)[4]، ثم واصل زحفه باتجاه دمشق[5]، التي وصلها مستهل (ذي الحجة359هـ/نوفمبر970م)، ودخلها بعد معركة دامية مع سكانها الذين حاولوا منعه من دخولها، وصلى بجامعها في (محرم360هـ/ديسمبر970م)[6]، ثم حذف اسم الخليفة العباسي المطيع[7] وأقامها للمعز[8]، وبذلك تم الاستيلاء على جنوب بلاد الشام.

ثم إن أتباعه عاملوا السكان معاملة قاسية، فثاروا عليه بعد أن تحالفوا مع القرامطة و بني بويه والحمدانيين[9]، وبعد معركة دامية تمكنوا من هزيمته وقتله في شهر(ذي القعدة 360هـ/ أكتوبر 971م).

ثانيا: الأوضاع العامة في مصر قبل بداية العدوان الصليبي

أ- الأوضاع السياسية:

عاشت مصر منذ انتقال الخلافة الفاطمية إليها، استقرارا سياسيا كبيرا، خاصة في عهد الخلفاء الأوائل الذين عرفوا بالدهاء والحكمة وقوة الشخصية، فقد كانت السلطة كلها في يد الخليفة، فهو يسير أمور الدولة بنفسه، دون أن يكون للحاشية أو الوزراء نفوذ عليه، غير أن هذا الاستقرار تلاشى منذ تولي

---

[1] جعفر بن فلاح الكتامي: هو أبو الفضل جعفر بن فلاح الكتامي، من قبيلة كتامة المغربية، كان له دور مشهود في مصر، والشام، في عهد الحكم بأمر الله...، ملحمة أبي الفضل جعفر بن فلاح بن أبي مرزوق، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، (1990)، ص 14.

[2] الرملة: هي إلى ثمانية فراسخ من قيسارية، وهي مدينة كبيرة بها سور حصين من الحجر والجص، مرتفع ومتين وعليه أبواب من حديد، ومنها إلى شاطئ البحر ثلاثة فراسخ، (حوالي 20كلم)...، ناصر خسرو علوي: سفرنامة، ترجمة: يحي الخشاب تصدير: عبد الوهاب عزام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (1993)، ص 65.

[3] طبرية: على بحيرة عذبة الماء طولها اثنا عشر فرسخا (حوالي 58 كلم)، في عرض فرسخين، أو ثلاثة، بها عيون جارية حارة...، ابن حوقل: نفس المصدر السابق، ج1، ص 173.

[4] المقريزي: نفس المصدر السابق، ص123.

[5] دمشق: هي أجل مدينة بالشام في أرض مستوية، قد دحيت بين جبال تحتف بها إلى مياه كثيرة، وأشجار وزروع قد أحاطت بها...، أنظر صورة الأرض: لابن حوقل النصيبي، دار صادر (بيروت)، ط2، طبع بمدينة ليدن بمطبعة بريل (1938م)، ج1، ص174.

[6] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج7، ص 362.

[7] الخليفة العباسي المطيع: هو أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن المعتضد، أمه أم ولد، ولد سنة إحدى وثلاثمائة، وبويع له بالخلافة بعد خلع المستكفي، في جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة... أنظر تاريخ الخلفاء لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار بن حزم، (1424هـ/2003م)، ص 315.

[8] محمد جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس هجريين، دار الفكر العربي (القاهرة)، بدون طبعة، ص 19.

[9] أيمن سيد فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر، تفسير جديد، الدار المصرية اللبنانية (1413هـ/1992م)، ص 85-86.

المستنصر الخلافة، ففي فترته ذهبت سلطة الخلفاء، وبدأ ما يعرف بنفوذ الوزراء، حيث صارت صلاحيات الوزير أكبر من صلاحيات الخليفة.

1- انهيار سلطة الخلفاء وبداية عهد نفوذ الوزراء:

بدأ هذا العهد منذ اعتلاء عرش الخلافة الفاطمية، المستنصر بالله في عام (427هـ/1053م) وكان عمره إذاك سبع سنوات[1]، وكان الذي بايعه بالخلافة هو الوزير الجرجرائي الذي صار له الأمر والنهي في الدولة[2].

أقر المستنصر، الوزير الجرجرائي في منصبه، وظل فيه مدة طويلة إلى أن توفي عام (436هـ/ 1044م)[3]، وكان له الأمر والنهي دون الخليفة، ثم تعاقب على هذا المنصب أناس كثر، حتى أن بعضهم لم يدم في الوزارة سوى يوما واحدا، وعن ذلك يقول أحمد السيد الصاوي **"...وحال ضعف الخليفة دون سيطرته على طموح القواد ورجال البلاط والخصيان الذين أخذوا يحيكون الدسائس، وساعد على ذلك انسياق المستنصر لما يسمعه من شكايات فأكثر من تغيير الوزراء حتى إن الوزارة وليها خلال تسع سنوات أربعون وزيرا بعضهم قضى في منصبه يوما واحدا"**[4]، ولم يقتصر هذا الوضع المتردي المنجر عن كثرة التغييرات في صفوف الوزراء، إلى ضعف السلطة السياسية وحسب، وإنما سمح لظهور سلطة جديدة، هي سلطة الجيش التي ما لبثت هي الأخرى أن دخلت في صراعات داخلية من أجل اقتسام النفوذ، وهو ما اصطلح عليه عند المؤرخين بصراع طوائف الجند.

1.أ - صراع طوائف الجند

اعتمد الفاطميون، عبر تاريخهم، على عدد من العناصر المختلفة في الجيش للحفظ على التوازن، والحيلولة دون طغيان عنصر معين، ولإفساح المجال أمام هذه العناصر للتفاني في خدمتهم، والحقيقة أن الدولة الفاطمية استمدت قوتها، في بداية حياتها السياسية من ولاء البربر وكانوا قبائل متعددة، وعرفوا بالمغاربة، أشهرهم كتامة وزويلة، ثم اعتمدت على طوائف أخرى فرضتها عليها رغبات وأطماع زعمائها.

قرب المعز قبيلة كتامة على حساب القبائل الأخرى، لأن الدولة في إفريقية قامت على أكتافهم، وقد نزح أفرادها معه إلى مصر وتبوأ شيوخها مناصب الدولة الكبرى ولما استقر ملك الفاطميين في مصر، شرع المعز في تكوين

---

[1] أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر(بيروت) بدون طبعة، ج 5، ص229.

[2] عماد الدين إدريس: نفس المصدر السابق، ص323.

[3] ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج5، ص 229.

[4] أحمد السيد الصاوي: مجاعات مصر الفاطمية، أسباب ونتائج، دار التضامن (بيروت)، ط1(1988)، ص 50.

جيش خاص، من أهل البلاد، أو من العنصر المملوكي، الذين يجلبون صغارا، بعد أن أدرك أن المغرب قد ينفصل، مما يجعل طاعة المغاربة وإخلاصهم غير موثوق فيه[1]، فأقام لهم ثكنات خاصة في قصره عرفت "بالحجر"، يتدربون على مختلف أنواع القتال وسماهم صبيان الحجر.

واستخدم العزيز(365-386هـ/975-996م) بعد ذلك عناصر مشرقية، من الديلم والأتراك، لتحقيق التوازن العسكري، وكان هؤلاء يعملون كجند مرتزقة في الجيش الفاطمي وقرب أفراده على حساب المغاربة، فكثر عددهم في عهده، وسكنوا في حارات نسبت إليهم[2] مما أوجد تحاسدا بين العنصرين المشرقي والمغربي.

كما استخدم الفاطميون أيضا العبيد السود في جيوشهم، ومصدرهم بلاد النوبة، وازداد عددهم في عهد الحاكم (386-411هـ/996-1021م)، الذي استعان بهم مع المشارقة لمواجهة المغاربة ثم ارتفع عددهم بشكل هائل في عهد المستنصر، بفعل أن أمه كانت من الزنوج فاستكثرت منهم لتجعلهم بطانتها وخاصتها، فبلغوا حوالي خمسين ألفا.

إضافة إلى ذلك فقد استخدموا البدو، من عديد القبائل العربية مثل قبيلة قرة، حتى بلغ عددهم في عهد المستنصر خمسين ألفا[3].

استفحل النزاع بين طوائف الجند في عهد المستنصر، بشكل جلي، وكانت بدايته من الصراع الذي دار بين الوزير أبي منصور صدقة بن يوسف الفلاحي، واليهودي أبو سعد إبراهيم التستري، الذي قربته السيدة أم المستنصر، وعينته متولي ديوانها الخاص، فازداد نفوذه على حساب الوزير أبي منصور صدقة بن يوسف الفلاحي، الذي لم يعد له معه سوى الاسم وبعض التنفيذ فحنق عليه، وكان هذا اليهودي قد أحاط نفسه بطائفة من الموظفين اليهود وعينهم في الكثير من المناصب الهامة، واستمال الجند المغاربة ليتقوى بهم فزاد من أعطياتهم وأنقص من أرزاق الأتراك، مما أدى إلى نشوب القتال بين الفريقين أكثر من مرة[4].

استغل الوزير صدقة الفلاحي هذه الأوضاع ليوقع بخصمه، فتقرب من الأتراك ، وزاد في أرزاقهم، وحرضهم على قتل أبي سعيد إبراهيم التستري، فكمن له بعض الجنود الأتراك وقتلوه في(3جمادى

---

[1] ناصر خسرو العلوي: نفس المصدر السابق، ص52.
[2] المقريزي : الخطط، ج2، ص284.
[3] ناصر خسرو: نفس المصدر السابق ، ص 53.
[4] محمد سهيل طقوش: تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام (297-567هـ/910-1171م)، دار النفائس(بيروت)، ط2(1423هـ/2007م)، ص 335.

الأولى439هـ/26سبتمبر1047م)[1]، وهو ما أثار غضب أم المستنصر، فدبرت له (الوزير) مؤامرة انتهت بعزله، ثم قتله في(5محرم440هـ/20جوان1048م)[2].

تحكمت بعدها والدة المستنصر بالشؤون العامة، وازددت كراهيتها للأتراك، فعملت على ضربهم هذه المرة بالعبيد السود، مما أدى إلى نشوب حرب بين الطرفين في عام (454هـ/ 1062م)، انتهت بانتصار الأتراك بمساعدة المغاربة[3].

أتاح هذا الانتصار، للأتراك، السيطرة على أجهزة الحكم، وبرز قائدهم ناصر الدولة الحسن بن حمدان التغلبي[4]، الذي اتصف بالطموح السياسي والنزعات السلطوية، والراجح أنه كان يسعى للقضاء على الدولة الفاطمية التي قضت على ملك بني حمدان، في شمال بلاد الشام فأساء معاملة المستنصر، وطالبه بزيادة مرتبات جنوده، وضغط عليه حتى استجاب له، وذلك في عام (460هـ/1068م)، فارتفعت من ثماني وعشرين ألفا دينار شهريا إلى أربعمائة ألفا[5]، غير أن الأتراك لم يقنعوا بها، وألحوا في زيادتها، ولما كانت الخزينة عاجزة عن تلبية طلباتهم، قاموا بنهب مدينة القاهرة، واستولوا على ذخائر المستنصر[6].

بعد أن تمكن ناصر الدولة من القضاء على المتمردين الزنوج في الصعيد، قرر خلع المستنصر، وإعلان الخطبة لأحد الأشراف، فقام بقتل الوزير خطير الملك محمد بن الحسن اليازوري[7]، ثم دخل في حرب مع جيش المستنصر، انتهت بانهزامه، وتراجعه إلى الدلتا، حيث استقر هناك، وانضمت إليه بعض جنود الأعراب، وقبيلة لواتة، فخرج بهم للإغارة على مناطق النيل وما جاورها، ينهب القرى، ويحطم الجسور والقنوات، وفي نيته قطع المدد عن

---

1 ناصر خسرو: نفس المصدر السابق، ص108-109.

2 ابن الصيرفي المصري أمين الدولة تاج الرياسة أبي القاسم علي بن منجب بن سليمان: الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق وتعليق: عبد الله مخلص، المعهد العلمي الفرنسي الخاص بالعادات الشرقية(القاهرة)، (1922م) ص71-72.

3 أيمن سيد فؤاد: نفس المرجع السابق، ص137-138.

4 ناصر الدولة الحسن بن حمدان التغلبي: هو الحسن بن الحسين بن الحسن بن عبد الله بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان الأمير ناصر الدولة، أبو محمد بن الأمير ناصر الدولة أبي عبد الله، بن ناصر الدولة أمير الأمراء أبي محمد بن الأمير أبي الهيجاء التغلبي الحمداني، من بيت جليل القدر، نافذ الأمر، أنظر المقريزي: المقفى الكبير، ج3 ص354 وما بعدها.

5 المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، 275.

6 عبد الرحمن بن خلدون: نفس المصدر السابق، ج4، ص ص 182-183-184.

7 خطير الملك محمد بن الحسن اليازوري: هو محمد بن الحسن بن عبد الرحمن اليازوري، إسماعيلي، لقب بخطير الملك وأمين الملك، وذو الرياستين. أنظر ابن حجر العسقلاني: رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق: د- علي محمد عمر، مكتبة الخانجي (القاهرة)، (1418هـ/1998م)، ص 355.

القاهرة والفسطاط، وساعده في ذلك استيلاؤه على كل من الريف ودمياط[1] الإسكندرية[2].

ولما وقعت الضائقة بالمستنصر وأتباعه، قرروا التفاهم معه على منحه مبلغا من المال مقابل إرساله الغلال إلى القاهرة، فقبل ذلك[3]، ثم ما لبث أن زحف بجموعه إلى الجيزة فاستولى عليها وأطلق العنان لجنده فنهبوا الفسطاط وأحرقوها، ولما عجز المستنصر عن صده، راسله بشأن الصلح، فقبل ناصر الدولة لكن شريطة أن ينفرد هو بحكم البلاد[4].

عمل ناصر الدولة بعد توليه مقاليد الحكم على إقصاء والدة المستنصر، فصادر كل ممتلكاتها كما ضايق المستنصر بعد أن خصص له راتبا شهريا قدره مائة دينار[5]، وحذف اسمه من الخطبة في الوجه البحري في عام (464هـ/1072م)، وأرسل إلى الخليفة العباسي القائم في بغداد يلتمس الخلع، واظهر ميلا إلى أهل السنة.

أدرك الأتراك بعدها أن بقاء ناصر الدولة على رأس السلطة يمثل خطرا عليهم وعلى الدولة الفاطمية، خصوصا وأنه قد أبدى ميولا إلى أهل السنة، لذلك قرروا التخلص منه فأرسلوا إليه

جماعة منهم، وهو في داره الواقعة على النيل، وانقضوا عليه بسيوفهم فقتلوه في شهر رجب عام (465هـ/1074م) وتتبعوا كل أفراد أسرته بمصر وتخلصوا منهم[6].

ويبدو أن الفوضى والاضطرابات التي اجتاحت مصر، لم تنته بمقتل ناصر الدولة، وإنما استمرت في ظل بقاء الأتراك على رأس السلطة، حيث عملوا على مضايقة الخليفة وإثارة الفتن والاضطرابات كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا، فضاق المستنصر ذرعا بهم، واضطر إلى استدعاء بدر بن عبد الله " الجمالي"، والى عكا الأرميني الأصل، ليتولى تدبير الشؤون العامة وإصلاح ما فسد في مصر، وذلك عام(466هـ/1074م).

باشر بدر الجمالي منذ استقراره في مصر، عمليات إصلاح كبيرة، ابتدأها بالقضاء على القادة الأتراك، وقدم جنده من الأرمن حتى أضحوا يشكلون

---

[1] دمياط: مدينة على ضفة البحر وبينهما مسافة (لم يحدد هذه المسافة)، وبها يعمل من غريب الصنع في الثياب الدبيقية وغيرها، وما يقارب الثياب التنيسية سواء...، الإدريسي: نفس المصدر السابق، ص237-238.

[2] عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، (1982م)، ص 188-189.

[3] ابن ميسر محمد بن علي بن يوسف بن جلب: أخبار مصر، تحقيق هنري ماسييه، المعهد الفرنسي الخاص بالعادات الشرقية(القاهرة)، (1919م)، ج2، ص21.

[4] ابن تغري بردي الأتابكي جمال الدين أبي المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية (بيروت)، (1413هـ/1992م)، ج5، ص15.

[5] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص21.

[6] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج8، ص ص 397-398-399.

عصب الجيش الفاطمي، وهو ما رحب به المستنصر، فقلده وزارة السيف والقلم و لقبه "السيد الأجل أمير الجيوش".

وبعد أن ثبت أقدامه في الحكم، استغل هو الآخر منصبه وصلاحياته، فحجر على المستنصر حتى لم يبق له معه أمر، إلا القيام برسوم الدولة والركوب في العيدين[1]، وصارت كل السلطة بيده، فعهد لابنه الأفضل بالوزارة من بعده في شهر (جمادى الأولى477هـ/أوت1084م)، وما لبث الأفضل أن تولى الوزارة بعد موت بدر الجمالي.

ظل المستنصر في عهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، كالمحجور عليه إلى أن توفي ليلة الخميس(18ذي الحجة هـ/29نوفمبر1094م)[2]، وبموته بدأت عوامل الانحلال تظهر شيئا فشيئا فكثرت الثورات الداخلية، أبرزها ثورة نزار على الأفضل بن بدر الجمالي الذي غصبه حقه في الخلافة ومنحها لأخيه الأصغر، والجدير بالذكر أن قرار الوزير الأفضل بن بدر الجمالي قد أحدث شرخا في الدعوة الإسماعيلية، فانقسمت قسمين: قسم يؤيد المستعلي وآخر يؤيد نزار.

2- انقسام الدعوة الإسماعيلية:

خلف المستنصر بعد موته عدة أولاد منهم نزار و هو أكبرهم، وعبد الله، و إسماعيل و أحمد

وهو أصغرهم[3]، وكان من المفروض أن يخلفه ابنه الأكبر نزار، لكن تدخل الوزير الأفضل بن بدر الجمالي حال دون ذلك، حيث أبعده منها، و بايع أخاه الأصغر أحمد بالخلافة و لقبه

بالمستعلي، مما أدى إلى انقسام الدعوة الإسماعيلية إلى قسمين.

2.أ- أسباب انقسام الدعوة:

تبعا للنظرية الإسماعيلية بانتقال الإمامة من الأب إلى الابن الأكبر، كان نزار هو صاحب الحق الشرعي في خلافة أبيه في منصب الإمامة، و كان المستنصر قد أبدى رأيه في النص على خلفه، ورشح نزارا ليخلفه، لكن لم تجر أي احتفالات لتنصيبه وليا للعهد، بل سك اسمه على العملة، وربما أشار إلى خاصته بولايته[4]، والواقع أن المستنصر أراد قبيل وفاته، أخذ البيعة لابنه نزار على رجال الدولة، فتقاعس الوزير الأفضل عن ذلك، وماطله حتى مات، لكراهته لنزار[5].

---

[1] ابن الصيرفي: نفس المصدر السابق: ص 96.
[2] ابن ظافر الأزدي: نفس المصدر السابق، ص 226.
[3] المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 148.
[4] جلال الدين السيوطي: نفس المصدر السابق، ج2، ص25.
[5] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص140-141.

تجاهل الوزير الأفضل هذا التقليد وذاك الترشيح، فأبعد نزارا عن الحكم، وأجلس أخاه الأصغر أبا القاسم أحمد، ولقبه بالمستعلي بالله، وذلك يوم(18ذي الحجة487هـ/29 نوفمبر 1094م)[1]، ويبدو أن إقدام الوزير الأفضل على هذا التصرف، كان له دوافعه، ولعل منها:

- صغر سن المستعلي بالمقارنة مع سن نزار، فقد كان عمر الأول عشرين عاما وعمر الثاني خمسين عاما، مما يتيح له التحكم به إذا ما ولاه الإمامة، ويصبح التصرف في شؤون الدولة أمرا سهلا.
- الترابط العائلي، فقد كان المستعلي زوج أخته، ست الملك، ابنة بدر الجمالي.
- الغيرة، فقد كان الوزير الأفضل يغار من نزار، لذلك وقف موقف العداء منه وكان يقلل من قيمته، ولا يقرب أحدا من غلمانه وحاشيته، بل عرضهم للأذى وحذر رجال الدولة من قبول مبايعته، وخوفهم منه[2].

انتهز الوزير الأفضل، فرصة وفاة المستنصر، وأشار على الأمراء بتولية ابنه الأصغر أبي القاسم أحمد، ثم استدعى أولاد المستنصر، وأخبرهم بوفاة أبيهم وضرورة حضورهم فلما حضروا، وأبصروا أخاهم الأصغر جالسا بزي الخلافة، امتعضوا، وأنكروا ذلك، فقال لهم الوزير الأفضل: **" تقدموا قبلوا الأرض لله تعالى ولمولانا المستعلي وبايعوه، فهو الذي نص عليه الإمام المستنصر قبل وفاته بالخلافة من بعده"،** فامتنعوا من ذلك، وقال كل منهم إن والده

واعده بالخلافة، وخرج نزار غاضبا واتجه مباشرة إلى الإسكندرية[3].

ولما علم الوزير الأفضل بفرار نزار قبض فورا على عبد الله وإسماعيل، وسجنهما في المسجد بالقصر، وجعل مع كل واحد منهما عشرة رجال للحفاظ عليه، وأقيمت مراسيم الرسمية للمستعلي، فجلس على سرير الملك في الإيوان الكبير، ومعه الوزير الأفضل وحضر قاضي القضاة علي بن رافع الكحال[4]، وأخذوا البيعة على مقدمي الدولة ورجالها ثم أخطر الوزير الأفضل كلا من عبد الله وإسماعيل، فدخلا على المستعلي وقبلا الأرض بين يديه وسلما عليه بالإمامة، واستوفى القاضي عليهما أيمان البيعة، وأنفذ الوزير الأفضل قوة

---

[1] المقريزي: نفس المصدر السابق، ج2، ص ص 151-152-153-154.
[2] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص389.
[3] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ج2، ص 35.
[4] علي بن يوسف بن رافع الكحال النابلسي: ولي القضاء أثناء خلافة المستنصر، بعد أبي الفضل عتيق، ولقب المؤيد بنصر الإمام. أنظر ابن حجر العسقلاني: نفس المصدر السابق، ص 283.

عسكرية للقبض على نزار، غير أن الجنود فشلوا في اللحاق به وتتبع أثره والعثور عليه[1].

2.ب- نتائج انقسام الدعوة الإسماعيلية:

تركت عملية إقصاء نزار من إمامة الفاطميين، إلى نتائج بعيدة الأثر في تاريخ الدعوة الإسماعيلية والدولة الفاطمية، ويعد إبعاده وتولية المستعلي انقلابا مذهبيا وسياسيا واضحا، قام به الوزير الأفضل ليحافظ على مكتسباته، وسلطاته التي كان يتمتع بها منفردا منذ أواخر عهد المستنصر، وهكذا تمكن الوزراء الفاطميين، بفضل نفوذهم من التلاعب بالعقيدة الإسماعيلية ولم يبالوا بها، فكانوا يعينون الإمام الذي يريدونه، حسب ما تمليه عليهم أهواؤهم، حتى ولو كان ذلك على حساب العقيدة الإسماعيلية في الزعامة.

والواضح أن نزارا لم يرقه أن يرى أخاه الأصغر في مكانه، ففر إلى الإسكندرية طمعا في استعادة سلطانه الذي سلب منه، بمعاونة والي المدينة ناصر الدولة أفتكين التركي، وهو أحد غلمان بدر الجمالي، فأعلن نفسه إماما وتلقب بلقب" المصطفى لدين الله"[2]، وانضمت إليهم كل الأجناد التي حاربها بدر الجمالي، من عربان وسودان ومغاربة بحيث زاد عددهم على ثلاثين ألف فارس وراجل، واستولى أنصاره على معظم الدلتا[3].

لكن ثورة نزار لم تنجح بسبب تأييد الجيش للوزير الأفضل الذي تمكن، بعد محاولتين من هزيمته، وجرى قتال ضار في موضع كوم الريش بجوار القاهرة، تقهقر على إثره نزار ومعه ناصر الدولة أفتكين، وعاد إلى الإسكندرية، فحاصر الوزير الأفضل المدينة برا وبحرا، وضربها بالأحجار واللهب، واستمر القتال من(شهر صفر إلى شهر ذي القعدة 488هـ/فيفري إلى أكتوبر1095م)، وتضايق السكان خلالها، وأيقنوا أنه لا طاقة لهم على الصمود أكثر من ذلك خاصة وأن المؤن قد نفذت، فطلب ناصر الدولة أفتكين الأمان له ولنزار ولأهل البلد، فأمنهم الوزير الأفضل، إلا أنه قبض عليهما بعد ذلك، وأرسلهما إلى القاهرة[4].

واعترافا من المستعلي بحق وزيره الذي حفظ له العرش، وهو قابع في القاهرة، أرسل إليه هدايا وخلع كثيرة، وسيق نزار وناصر الدولة أفتكين في اليوم التالي إلى مجلس المستعلي، فلما رأى نزارا، صاح في وجهه وانتهره، وأمر بإخراجه، واعتقل نزار بالقصر وضيق عليه حتى مات،كما قتل الوزير الأفضل أعوانهما[5].

---

1 ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 142.
2 ابن ظافر: نفس المصدر السابق: ص 231.
3 عبد العزيز سالم: نفس المرجع السابق، ص 185.
4 ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق: ج5، ص 142-143.
5 ابن أيبك: نفس المصدر السابق: ج6، ص 446-447.

واعترف بإمامة المستعلي القسم الأكبر من الإسماعيلية، في مصر وبلاد الشام، وكل الطائفة الإسماعيلية في اليمن والهند، وعرفوا بالمستعلية، نسبة للمستعلي، أو بالإسماعيلية الغربية، وفي المقابل عرف أتباع نزار بالإسماعيلية النزارية، أو الإسماعيلية الشرقية، وقد كان الذي تولى قيادتهم هو الحسن بن الصباح الحميري[1].

ب- الأوضاع الاقتصادية:

أشرنا آنفا إلى أن مصر عاشت في العهد الفاطمي، نمطين من الحياة، كان الأول فيها زاهرا بفضل القوة الأمنية والاقتصادية، التي وفرها الخلفاء الأوائل، فعرفت الدولة بذلك استقرارا كبيرا، غير أنها لم تتمكن من المحافظة على هذا الاستقرار طويلا، ففي فترة المستنصر، عرف الاقتصاد أشد أزمة عرفتها مصر منذ زمن بعيد، نسبت إلى الخليفة المستنصر، وقد أثرت بدورها على الوضع السياسي بل والأمني، على اعتبار أن تأمين الغذاء للشعب، هو الهدف الأسمى، لأنه بدوره هو أيضا سيحقق الأمن الداخلي والخارجي فيما بعد.

ونحاول بدورنا نحن الآن، أن نقدم عرضا بسيطا للأوضاع الاقتصادية في مصر الفاطمية بداية من عهد الخلفاء الأقوياء، مرورا إلى فترة الخلفاء الضعاف.

1- في عهد الخلفاء الأقوياء

عرفت مصر منذ انتقال الخلافة الفاطمية إليها، استقرارا اقتصاديا كبيرا، يرجع فضله إلى قوة الشخصية التي كان الخلفاء يتمتعون بها، فقد كانوا يسطرون الخطط الاقتصادية حسب ما يعود بالفائدة على الدولة، كما أن المنطقة لم تتعرض لمجاعات كبيرة، ويضاف إلى ذلك أن الخلفاء اعتنوا بالزراعة منذ استقرارهم بمصر، وكانوا يعاقبون على الاحتكار[2].

ورغم ذلك، فقد عرفت مصر أزمات اقتصادية، سببها نقص منسوب مياه النيل حيث أدت هذه الأزمات إلى نقص الأقوات وارتفاع الأسعار، وعلى الرغم من التدابير الاقتصادية الناجعة التي اتخذتها الحكومات الفاطمية المتعاقبة لتفادي الأزمات الاقتصادية إلا أن المجاعات عادت إلى الظهور في عهد الحاكم بين أعوام (395-399هـ/1003-1009م)[3]، وازدادت في عهد الظاهر بسبب كثرة القوارض التي أتت على كل شيء، وبلغت الذروة في عهد المستنصر[4].

---

[1] فرهاد دفتري: الإسماعيليون في العصر الوسيط، تاريخهم وفكرهم، ترجمة سيف الدين القصير، دار المدى (القاهرة) (1999م)، ص 15.
[2] أيمن فؤاد سيد: نفس المرجع السابق، ص 71-72.
[3] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 331.
[4] أحمد السيد الصاوي: نفس المرجع السابق، ص31-32.

2- في عهد نفوذ الوزراء

عرفت مصر في هذا العهد أكبر الأزمات الاقتصادية، خاصة في عهد المستنصر الذي نسبت إليه إحداها والمصطلح عليها عند المؤرخين بالشدة المستنصرية.

2.أ - الشدة المستنتصرية:

فبعد أزمة الحنطة التي حدثت في عام(415هـ/1023م)، عاد منسوب النيل إلى التناقص في الأعوام(442هـ/1050م)، (447هـ/1055م)، (457-464هـ/1065-1072م) وأصيبت مصر بأسوأ أزمة اقتصادية مرت بها في العصور الوسطي فارتفعت الأسعار، وتزايد الغلاء وأعقبه
الوباء حتى خلت الأراضي من الزرع والضرع وتفشى الجوع لعدم توفر الأقوات[1].

وقد عالج الوزير أبو محمد الحسن اليازوري هذا الوضع الاقتصادي المتدهور بشكل ارتجالي[2]، وذلك للتقرب من المستنصر، فقد كان هذا الأخير يشتري في كل عام غلالا بمائة ألف دينار، ويخزنها لوقت الحاجة، فكان الاحتفاظ بهذه الغلال يشكل احتياطا للبلاد، لكن اليازوري، أقنعه بتخزين مواد ذات مدخول أفضل، وذلك بهدف الحصول على نسبة أعلى من الربح[3]، وترتب على ذلك أنه عندما حدثت المجاعات لم يكن هناك احتياطي من الغلال كما تلاعب التجار بأسعار الغلال التي في حوزتهم، فكانوا يخفونها لبيعها بالسعر الذي يريدونه وتصدى الوزير اليازوري لهذه الظاهرة فصادر ما في نخزن التجار، وختم عليها، وأجرى مفاوضات مع الحكومة البيزنطية لاستيراد الحبوب من بيزنطة.

واستمرت الأزمة بعد موت اليازوري في عام(450هـ/1058م)، وكان سببها الرئيسي تلك الصراعات التي بدأت في العقد الخامس، وعندما قتل الوزير اليازوري، دخلت البلاد في دوامة الفساد، ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة، وضعفت قوى الوزراء عن تدبيرهم لقصر مدتهم، **" فخربت أعمال الدولة، وقل ارتفاعها وتقلب الرجال على معظمها، واستضعفوا ارتفاعها حتى انتهى ارتفاع الأرض السفلى إلى ما لا نسبة له من ارتفاعها الأول ...، وطغى الرجال وتجرأوا حتى خرجوا عن طلب الواجبات إلى المصادرة، فاستنفذوا أموال الخليفة وأخلوا منها خزائنه، وأحوجوه إلى بيع أغراضه..."**[4].

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج8، ص 381.
[2] ابن أيبك الدوداري: نفس المصدر السابق، ص 238.
[3] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص331.
[4] المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، قدم له وعلق عليه: ياسر سعيد صالحين، دار ابن الوليد(سوريا)، بدون طبعة، ص22-23.

واستمرت الأوضاع على هذه الحال المتردية سنوات عديدة، ثم زادت حدتها عندما قصر ماء النيل، لعدم وجود من يزرع ما شمله الري، وذلك بسبب الحروب والفتن بين العربان واختلال أحوال المملكة واستيلاء الأمراء على الدولة"[1].

وقد بلغت الأزمة أوجها في عام(457هـ/1065م)، وامتدت سبعة أعوام، وعرفت بالشدة المستنصرية نسبة إلى المستنصر، ويلخص السيد أحمد الصاوي أسباب هذه الأزمة في ثلاثة أسباب و هي ضعف السلطة المركزية، التي كان يمثلها الخليفة نفسه فقد تولى الخلافة وعمره سبع سنوات، مما صعب عليه استخلاص سلطته من أيدي الوزراء، و تزايد نفوذ العسكريين الذين استغلوا ضعف السلطة السياسية ليزيدوا من إقطاعاتهم على حساب العامة، إضافة إلى ذلك فإن الفتن والمنازعات، التي كانت تحدث بين الطوائف قد كان لها نصيب في هذه الأزمة فقد استنزفت أموالا طائلة من خزينة الدولة[2].

وقد هلك نتيجة لهذه المجاعة خلق كثير من أهالي مصر، وفي رواية يذكرها ابن تغري بردي، أن الناس في مصر **" أكل بعضهم بعضا، وظهروا على بعض الطباخين أنه ذبح عدة من الصبيان والنساء، وأكل لحومهم وباعها بعد أن طبخها، وأكلت الدواب بأسرها، فلم يبق لصاحب مصر سوى ثلاثة أفراس بعد أن كانت عشرة آلاف مابين فرس وجمل ودابة وبيع الكلب بخمسة دنانير، والسنور بثلاثة دنانير..."**[3]

وبلغ من شدتها أن المستنصر اضطر أن يبيع كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وصار يجلس في قصره على حصير، ويركب وحدها وكل من معه من الخواص مترجلين ليس لهم دواب يركبونها، وأرسل والدته وبناته إلى بغداد، وقيل إلى بلاد الشام كما هاجر بعض سكان مصر وتشتتوا في البلاد، ويقول في هذا الشأن ابن ظافر **"...وكان المستنصر يركب وكل من معه من الأستاذين مترجلون ليس لهم دواب وهم يتساقطون في الطرق من الجوع، وكان يستعير من ابن هبة صاحب ديوان الإنشاء بغلته ليركبها حامل مظلته، وأقامت هذه الشدة سبع سنين"**[4].

وكان سعر رغيف الخبز قد بلغ 15 دينارا، وبيع الإردب من القمح بثمانين دينار، ولم تعد للأموال أهمية في سبيل الحصول على الطعام، حتى قيل أن مصر قد فقدت في هذه الأزمة أكثر من ثلث سكانها[5]. والواقع أن هذه الأزمة قد

[1] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 21.
[2] أحمد السيد الصاوي: نفس المرجع السابق، ص 32.
[3] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 18.
[4] ابن ظافر الازدي: نفس المصدر السابق، ص 223.
[5] أحمد السيد الصاوي: نفس المرجع السابق، ص 49.

أثرت على كل الأوضاع، ودليل ذلك أنه عندما دخل أمير الجيوش بدر الجمالي إلى مصر في عام (466هـ/1074م)، كانت الأماكن المتأثرة بالأزمة مثل الفسطاط، خالية من سكانها، فأباح للناس والعسكرية، وكل من وصلت قدرته إلى العمارة، أن يعمر ما يشاء في القاهرة مما خلا من دور الفسطاط بموت أهلها فأخذ الناس في هدم المساكن ونحوها بمصر وعمروا بها القاهرة[1].

ثالثا: الأوضاع العامة في بلاد الشام قبل بداية العدوان الصليبي.

تمهيد

لم تكن الأوضاع التي تعيشها بلاد الشام قبيل بداية العدوان الصليبي، مشابهة للأوضاع في مصر، فقد غلب عليها الطابع السياسي، وذلك لكثرة الانقسامات التي كانت تعاني منها، نتيجة اختلاف القوى الحاكمة لها، وكانت كل قوة تسعى لبسط نفوذها، هذه القوى هي: الفاطميون في جنوب بلاد الشام، والسلاجقة[2] في شمالها، إضافة إلى بعض الإمارات التي كانت تملك بعض الأجزاء من هذه البلاد مثل إمارة بني مرداس في حلب، وإمارة بني عمار في طرابلس، وإمارة بني منقذ في شيزر.

أ- انهيار النفوذ السلجوقي في بلاد الشام

خلف السلطان ألب أرسلان[3] السلجوقي عند وفاته سنة(465هـ/1072م)، دولة متحدة الأركان، يحكمها ولداه السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان الأكبر في المشرق والعراق، وتاج الدولة تتش بن ألب أرسلان الأصغر في بلاد الشام كتابع لأخيه، واستمر هذا الاستقرار زمن السلطان ملكشاه(465-485هـ/1072-1092م)، لإتباعه سياسة والده ووزيره نظام الملك الذي توفي سنة(485هـ/1092م)، ثم تبعه ملكشاه في نفس السنة[4].

---

[1] المقريزي: إغاثة الأمة، ص 23.

[2] السلاجقة: السلجوقية ذوي عدد وعدد، وأيد ويد، لا يدينون لأحد، ولا يدنون من بلد، وميكائيل بن سلجوق زعيمهم المبجل، وعظيمهم المفضل، وقد سكنوا من أعمال بخارى موضعا يقال له نور بخارى...، أنظر تاريخ دولة آل سلجوق لعماد الدين محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني، اختصار الشيخ الإمام العالم الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، دار الموسوعات (القاهرة) ، (1318هـ/1900م)، ص 05.

[3] ألب أرسلان: هو ألب أرسلان محمد بن داود بن جغري بك بن ميكائيل بن سلجوق، وكان كريما عادلا عاقلا لا يسمع السعايات، واتسع ملكه كثيرا، ودان له العلم، وبحق قيل له سلطان العالم، عبد الرحمن بن خلدون، نفس المصدر السابق ج4، ص394.

[4] ابن القلانسي أبو يعلى حمزة: ذيل تاريخ دمشق، دار الآباء اليسوعيين(بيروت)، (1908م)، ص106.

أدت وفاة السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك، إلى خلق فراغ سياسي في صفوف العالم الإسلامي عامة، والسلاجقة خاصة، حيث تفكك السلاجقة إلى ثلاث قوى تتصارع فيما بينها قوة السلاجقة بزعامة قلج أرسلان الأول، في آسيا الصغرى، وقوة سلاجقة الشام بزعامة تاج الدولة تتش، وقوة سلاجقة فارس والعراق بزعامة السلطان بركياروق بن ملكشاه ومن ينازعه من إخوته[1].

ولا يتسع المجال لتتبع ما جرى من الحوادث بين السلاجقة عامة، بعد وفاة السلطان ملكشاه لذلك فإن الحديث سوف يقتصر على النزاع الذي جرى بين السلطان بركياروق وبين ملكشاه وعمه تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان في بلاد الشام، وما أعقبه من نزاع حاد بين أبناء تاج الدولة تتش في بلاد الشام، لما لذلك من أثر كبير على إضعاف الجبهة الإسلامية قبيل الغزو الصليبي لبلاد الشام.

1- النزاع بين بركياروق وعمه تاج الدولة تتش

خلف السلطان ملكشاه بعد وفاته سنة(485هـ/1092م) أربعة من الأولاد هم: بركياروق الأكبر، محمود سنجر، ومحمد، وكان محمود أصغرهم سنا، وقد سعت والدة هذا الأخير، وهي تركان خاتون الجلالية[2]، إلى أخذ السلطنة لابنها بموافقة الخليفة العباسي، فكان لها ذلك، ولقب ابنها " ناصر الدين والدنيا"[3].

ولذلك طالب كل من بركياروق وتاج الدولة تتش عمه بالسلطنة كل لصالحه، وقد نجح تاج الدولة في ضم كبار القادة الأتراك في بلاد الشام إلى جانبه[4]، واستولى بذلك على مناطق عديدة منها الرحبة ونصيبين[5].

ولما أدرك كل من القائدين آقسنقر[6] وبوزان، أنهما لن يحصلا على شيء من تاج الدولة انفصلا عنه، وانضما إلى بركياروق، فاستقامت له الأمور، وأقيمت له الدعوة، غير أن تاج الدولة لم ينس موقف كل من بوزان، وآقسنقر، فجمع

---

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج8، ص482..

[2] تركان خاتون: يتصل نسبها بأفداسياب رأس الملوك الهونيين، وأبوها طفراج ملك الخزر، وقد كانت شجاعة حكيمة...، أنظر ابن العبري جمال الدين: تاريخ الزمان، نقله إلى العربية، الأب إسحاق أرملة، قدم له الأب الدكتور حان موريس فييه، دار المشرق (بيروت)، ط2 (1991م)، ص 119.
عماد الدين الأصفهاني: نفس المصدر السابق، ص 235-236.

[3] ابن العبري: نفس المصدر السابق، ص 120.

[4] ابن الوردي زين الدين عمر بن مظفر: تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية (بيروت)، (1417هـ/1996م)، ج2 ص 06.

[5] نصيبين: هي مدينة بالجزيرة، بالقرب من جبل ماردين، وهي على بعد خمس أيام من سنجار، بها غلات وخيرات كثيرة...، ابن حوقل: نفس المصدر السابق، ج1، ص 210-211.

[6] آقسنقر: هو أبو سعيد آقسنقر بن عبد الله الملقب قسيم الدولة المعروف بالحاجب، جد البيت الأتابكي، أصحاب الموصل، وهو والد عماد الدين زنكي، كان مملوك السلطان ملكشاه، بن آلب أرسلان السلجوقي، هو وبوزان صاحب الرها...، أنظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ج1، ص242-243.

جيشا، وخرج به لملاقاة آقسنقر، ومن بعده بركياروق، والتقى الجيشان عند معرة النعمان[1]، في (شهرجمادى الأولى487هـ/1094م)
وانتهى اللقاء بانهزام آقسنقر ووقوعه في أسر تتش وبهذا استولى تاج الدولة على حلب، وحران والرها، وبذلك تم له إحكام السيطرة على شمال الشام، وبعض أجزاء من منطقة الجزيرة وطلب السلطنة من الخليفة العباسي، فتم له ذلك[2].

سار بعدها تاج الدولة بجيوشه لمواجهة بركياروق، غير أنه انهزم، وقتل وتفرق جيشه في (يوم 17صفر 488هـ/فيفري1095م)، وفي ذلك يقول مسفر بن عريج الغامدي: **"... ولذلك يمكن القول بأنه لو قدر للصليبيين أن يواجهوا كل ما عبأته المملكة التي حاول تاج الدولة تتش إقامتها من موارد بشرية، ومادية لتغير وجه تاريخ الشام، وأمكن القضاء على الحملة الصليبية في سنواتها الأولى"**[3]، وحدث بعد مقتل تتش أن تفككت مملكته بسبب ما وقع من النزاع بين ولديه رضوان ودقاق[4].

2- النزاع بين رضوان ودقاق

استطاع تاج الدولة تتش توحيد معظم بلاد الشام والجزيرة تحت لوائه، بعد موت أخيه ملكشاه سنة(485هـ/1092م)، غير أن أطماعه في السلطنة السلجوقية أودت بحياته الأمر الذي انعكست نتائجه على بلاد الشام والجزيرة فانقسمت بلاد الشام بين ولديه، رضوان في حلب ودقاق **في** دمشق[5].

وعن الصراع الذي قام بين أبناء تتش في بلاد الشام فيمكن أن نقسمه إلى مرحلتين: المرحلة الأولى من هذا الصراع هي مرحلة ما قبل الغزو الصليبي لبلاد الشام، وتمتد من(488-491هـ /1095-1098م)، وهي المرحلة التي تهمنا في بحثنا هذا، أما المرحلة الثانية فهي مرحلة ما بعد الغزو الصليبي، لبلاد الشام والجزيرة.

بدأ النزاع بين الأخوين بعد مقتل والدهما سنة (488هـ/1095م)، حيث استولى رضوان على حلب التي كان عليها وزير أبيه أبو القاسم الحسن علي

[1] معرة النعمان: وتعرف بذات قصرين، ولها عمل من أحسن الأعمال وهو شعراء ممدودة، كثيرة الشجر والفواكه وسائرها يشرب من ماء السماء...، أنظر شيخ الربوة شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي (بيروت) (1408هـ/1988م)، ص 272.
[2] عماد الدين الأصفهاني: نفس المصدر السابق، ص 35-36.
[3] مسفر بن سالم بن عريج الغامدي: الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر، ديوان المطبوعات الحديثة، الدولة غير موجودة، سنة الطبع غير موجودة، ص 42.
[4] عماد الدين الأصفهاني: نفس المصدر السابق، ص 38-39.
[5] أبو الفدا الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب: المختصر في أخبار البشر، علق عليه ووضع حواشيه، محمود ديوب، دار الكتب العلمية (بيروت)، (1417هـ/1997م)، ج02، ص17-18.

الخوارزمي، وكان شمس الملوك ودقاق في هذه الأثناء في كنف أخيه، غير أن رضوان أظهر سياسة عدائية تجاه إخوته فقتل كلا
من، أبي طالب، وبهرام أخويه ليخلو له الجو من المنافسة في حكم بلاد الشام [1].

خاف شمس الملوك أن يحل به ما حل بأخويه السابقين، لذلك استغل مراسلة نائب والده في دمشق، ويدعى ساوتكين الخادم، وما عرضه على دقاق بالقدوم إلى دمشق لتسليمها إليه، فقد كان هو الآخر يخشى غدر رضوان فهرب دقاق من حلب إلى دمشق سنة (488هـ/1095م) ولما علم به رضوان أرسل خلفه فرقة من الخيالة لمطاردته، فلم تدركه، ووصل إلى دمشق وأوصله ساوتكين في منصب والده، وأخذ له العهد على الأجناد والعسكرية[2].

وباستقراره هناك عاد التمزق مرة ثانية إلى بلاد الشام نتيجة لسوء سياسة رضوان، ولشدة أطماع القادة الأتراك في التفرد بالسيطرة على أبناء تتش، مما أدى إلى انقسام مملكة تاج الدولة تتش بين ولديه رضوان في حلب، ودقاق في دمشق، ونشغل رضوان بإعادة دمشق إلى فلكه ما أدى إلى إهدار الكثير من الوقت، والجهد، ولم تحل سنة (486هـ/1095م) إلا وكانت دولة السلاجقة قد انقسمت إلى خمس ممالك متنافسة فيما بينها، وهي سلطنة أصبهان، وعلى رأسها السلطان بركياروق الذي كانت له السيطرة على بغداد، ومملكة خراسان وما وراء النهر وعلى رأسها سنجر بن ملكشاه، ومملكة حلب وعلى رأسها دقاق بن تتش، وأخيرا سلطنة سلاجقة الروم، وعلى رأسها قلج أرسلان بن قطلمش[3].

ولم يقتصر النزاع في بلاد الشام بين الأخوين رضوان ودقاق فقط، فقد حاول القادة الأتراك استغلال الأوضاع بين الأخوين لنيل مبتغاهم، وكانت أكثر النزاعات حول دمشق، فقد حاول رضوان سنة (489هـ/1097م) الاستيلاء على الرحبة، وبعض المدن الأخرى، ثم حاول مرة أخرى السيطرة على دمشق غير أنه فشل وتفرق أكثر جيشه[4]، وضاعت منه بعض ما استولى عليه من أملاك أنطاكية، وصار في وضعية المدافع بعد أن كان مهاجما.

وفي سنة (490هـ/1097م)، دارت رحى المعركة مرة أخرى بين الأخوين بحاضر قنسرين[5]

---

[1] ابن العديم الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد ابن أبي جرادة: زبدة الحلب من تاريخ حلب، حققه وقدم له، سهيل زكار، دار الكتاب العربي (دمشق)، (1418هـ/1997م)، ج1، ص 336-337.
[2] ابن الوردي: نفس المصدر السابق، ج2، ص08.
[3] مسفر بن سالم بن عريج الغامدي: نفس المرجع السابق، ص 43-44.
[4] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص132.
[5] قنسرين: كانت هي القصبة قبل حلب، وهي مدينة رومية كان اسمها صوما. أنظر شيخ الربوة: نفس المصدر السابق، ص 270.

أجبرت دقاق على التراجع بعد صمود رضوان وجنوده، وفي شهر (شعبان سنة 490هـ/أوت
1097م)، انضم رضوان إلى ياغي سيان صاحب أنطاكية[1]، وقرر تجهيز حملة عسكرية للاستيلاء على دمشق، فخرجا في السنة نفسها (490هـ/1097م)، وقصد حمص التي بها جناح الدولة حسين بهدف القضاء عليه، ولكنهما فشلا فتوجها إلى شيراز للاستيلاء عليها لكنهما فشلا مرة أخرى، فعاد رضوان إلى حلب، بينما توجه ياغي سيان إلى أنطاكية بسبب الاضطراب الذي وقع في صفوفهم نتيجة وصول طلائع الصليبيين إلى شمال الشام[2].

كانت هذه هي الأوضاع التي عاشتها أراضي الشام التابعة للسلاجقة، أما عن بقية المناطق فسنذكرها بدءا من:

ب- انحسار النفوذ الفاطمي في بلاد الشام.

كان نفوذ الفاطميين في بلاد الشام متوقف على قوتهم العسكرية، فإذا ما ضعفت قواتهم هناك، قام الأمراء المحليون بالعمل على توطيد استقلالهم الذاتي، كما فعل بنو الجراح بفلسطين وبنو مرداس في حلب، وقد وجهت الخلافة الفاطمية عنايتها إلى القضاء على مناوأة هؤلاء الأمراء والعمل على توطيد سلطانها ببلاد الشام، وقد أدت الاضطرابات التي أحدثها بنو الجراح في فلسطين، وعدم الاستقرار في عهد بني مرداس، إلى بروز قوة السلاجقة على مسرح السياسة في بلاد الشام، التي قضت على النفوذ الفاطمي فيها.

أخذ نفوذ السلاجقة في الازدياد منذ عهد طغرلبك الذي تمكن من جمع صفوفهم وسط نفوذهم على جهات واسعة في الدولة الإسلامية، وعمل أيضا على توثيق الروابط مع الخلافة العباسية بعد أن لبى دعوتهم في القضاء على فتنة أبي الحارث أرسلان البساسيري[3]، وأعاد الخطبة للخليفة العباسي سنة (487هـ/1094م)[4].

1- سيطرة السلاجقة على الأراضي الفاطمية:

بعد أن سيطر السلاجقة على العراق، وجهوا نظرهم ناحية الأراضي الفاطمية التي كانت تابعة للدولة العباسية، فأرسل ألب أرسلان سنة (462هـ/1069)، إلى محمود بن صالح بن مرداس أمير حلب، يطلب منه إقامة الدعوة للخليفة العباسي بدلا من الخليفة الفاطمي فأجابه إلى طلبه، ثم سار بنفسه

---

[1] أنطاكية: هي قصبة السواحل كانت قبلها ثغورها وكانت إحدى كراسي الروم، وتسميها الروم تعظيما لها مدينة الله، كما تسمى الأرض المقدسة، وهي من المدن القديمة...، شيخ الربوة: نفس المصدر السابق، ص273.

[2] كمال الدين بن العديم: زبدة الحلب: ج2، ص 125.

[3] أرسلان البساسيري: هو أبو الحارث أرسلان البساسيري، عبد الله التركي، مقدم الأتراك ببغداد، يقال بأنه كان مملوك بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه...، أنظر ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج1، ص 192.

[4] عماد الدين الأصفهاني: نفس المصدر السابق، ص 77-78.

إلى حلب في العام التالي، وحاصرها شهرا، فخرج إليه أميرها فأكرمه وأعاده إلى ولايته[1]، واضطر ألب أرسلان إلى العودة إلى بلاده، حين علم أن الروم قد اخترقوا بلاد أرمينية يريدون خراسان.

وفي سنة (465هـ/1072م)، عهد السلطان ملكشاه إلى أتسز التركماني، بالاستيلاء على بلاد الشام ففتح الرملة، وبيت المقدس، ثم سار إلى دمشق، غير أن جيوش الفاطميين سرعان ما ردته على أعقابه[2].

وقرر بعدها محاصرتها سنة(467هـ/1074م)، وشدد عليها حتى تمكن منها، وحذف منها اسم المستنصر بالله الفاطمي من الخطبة، وأحل محله الخليفة العباسي المقتدر بأمر الله، كما منع الأذان بحي على خير العمل، وكان لعمله هذا أحسن الأثر في نفوس أهالي دمشق[3].

ولما استقر الأمر للقائد التركماني أتسز في بلاد الشام، خشي أن يعاود الفاطميون مهاجمته فجهز جيشا من التركمان والعرب والترك، وسار قاصدا مصر سنة (469هـ/1076م) وتوغل داخلها دون مقاومة تذكر، وعسكر خمسين يوما في الدلتا بدلا من أن يسير إلى القاهرة.

وأساء أصحابه معاملة الأهالي، فشكى رؤساء القرى إلى الخليفة المستنصر ما حل بهم من جنود أتسز[4]، وتزامن ذلك مع خروج بدر الجمالي إلى الصعيد لإخماد بعض الثورات هناك فجند جميع الرجال القادرين على حمل السلاح، ودعا ثلاثة آلاف حاج كانوا متأهبين للسفر لمعاونته في قتال السلاجقة، فأجابوا دعوته، وتخلفوا عن السفر، ولما دارت رحى المعركة استطاع بدر الجمالي بمهارته أن يستميل إلى جانبه فريقا من السلاجقة كما فعل المعز مع القرامطة، وكان ذلك ما عجل في هزيمتهم، وفر أتسز إلى غزة[5]، وأقام بالرملة حتى لحق به من بقي من عسكره ثم رحل بهم إلى دمشق[6].

على إثر هذه الهزيمة التي مني بها أتسز ارتدت العديد من القرى إلى المذهب الإسماعيلي وأعلنت ولاءها للخليفة الفاطمي بدلا من الخليفة العباسي، واستغل بدر الجمالي هذه الردة ليجهز جيشا إلى دمشق للسيطرة عليها، فضيق عليها الحصار حتى طلب صاحبها (أتسز) النجدة من تاج الدولة تتش، فسار إليه، وقبل وصوله كان جيش بدر الجمالي قد ولى أدراجه إلى مصر[7].

---

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج08، ص385.
[2] المصدر نفسه، ج08، ص 386.
[3] ابن خلدون: نفس المصدر السابق، ج4، ص 35.
[4] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ج2، ص 61.
[5] غزة: كانت قديما تسمى بغزة هاشم، وهي مدينة كثيرة الشجر كسماط ممدود لجيش الإسلام في أبواب الرمل، ولكل صادر ووارد إلى الديار المصرية...، أنظر شيخ الربوة، نفس المصدر السابق، ص281.
[6] تقي الدين المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج2، ص 149.
[7] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ج2، ص35.

ولما تقابل تتش مع أتسز أنكر عليه عدم خروجه لملاقاة جيش الفاطميين، ثم قبض عليه وقتله سنة (471هـ/1078م)، واستولى على دمشق وأحسن إلى أهلها[1]، وصارت إليه الأمور كلها في بلاد الشام، ما جعل بدر الجمالي يفكر في استعادة دمشق، فسير إليها حملة سنة (487هـ/1094م) وحاصرها حصارا شديدا، ولم يتمكن منها فرحل عنها[2].

وواصل الفاطميون اهتمامهم لاستعادة النفوذ في بلاد الشام حتى تمكنوا إلى غاية سنة (482هـ/1089م)، من استعادة أغلب مدن الشام الساحلية، غير أنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بسيطرتهم على هذه المدن، لتطلع لسلاجقة إليها، ففي سنة (485هـ/1092م)، أمر السلطان ملكشاه نوابه بحلب والرها، بالسير مع قواتهم لمعاونة أخيه تاج الدولة في الاستيلاء على ما للخليفة المستنصر بالله الفاطمي من بلاد ساحل الشام، فساروا لنجدته، وبمساعدتهم استطاع السيطرة على حمص[3]، وقلعتي عرقة وأفامية.

ولما دب الخلاف داخل البيت السلجوقي، أدرك الوزير الأفضل بن بدر الجمالي أنه بإمكانه استعادة بعض ممتلكاتهم في بلاد الشام، حيث سير سنة (489هـ/1096م) حملة إلى بيت المقدس، ودخلها بعد أن طلب أهلها الأمان، وقد كانت بأيدي سقمان وإيلغازي ابني أرتق[4].

ج- نهاية الإمارات العربية في بلاد الشام.

واكب انهيار النفوذ السلجوقي، وتفكك وحدتهم نهاية للإمارات العربية، التي كانت قد اتخذت من حلب وبادية الشام مسرحا لها، وتمتعت هذه الإمارات في هذه المناطق بنفوذ واسع النطاق قبل الحكم السلجوقي، حين كان الفاطميون يسيطرون على معظم مدن بلاد الشام، ويتفقون مع كثير من القبائل العربية في المذهب الشيعي خاصة قبائل كلاب وعقيل وبني مزيد في الحلة، ولكن السلاجقة الأتراك حين وصلوا إلى بغداد سنة (447هـ/1055م)، أخذوا على عاتقهم حماية الخلافة العباسية ، والعمل على توسيع نفوذها في بلاد الشام، وذلك بهدف القضاء على النفوذ الشيعي الفاطمي، فاصطدموا بالإمارات العربية في الموصل وحلب، وأخضعوها لنفوذهم، وقضوا على معظمها.

1- إمارة بني مرداس في حلب

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج08، ص 387.
[2] مسفر بن سالم بن عريج الغامدي: نفس المرجع السابق، ص 44.
[3] حمص: هي من جنود الشام، وهي مملكة حسنة وبها كرسي الملك، ودار الإمارة ونيابة السلطنة. شيخ الربوة، نفس المصدر السابق، ص 269.
[4] أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج2، 25.

يعود نسبهم إلى قبيلة كلاب العربية العدنانية[1]، وقفوا في وجه السلاجقة، وحاولوا منعهم من السيطرة على حلب، والبلاد التابعة لها في شمال بلاد الشام، وظهر ذلك جليا عندما أغار عليهم السلطان ألب أرسلان سنة (463هـ/1070م)، حيث رفض صاحبها محمود بن نصر تسليمها لنائب السلطان، غير أنه قابل السلطان ألب أرسلان وشرح له أعماله بهذه الإمارة فعفا عنه وأقره عليها[2]، وكان محمود قد لعب دورا كبيرا في جهاد الروم والبيزنطيين على الثغور الإسلامية.

ظل محمود بن نصر في حكم حلب حتى سنة (467هـ/1057م)، إذ وافته منيته على إثر مرض حل به، وخلفه ابنه الأمير نصر بن محمود، وقد تعرض نصر هذا لضغوط من الأتراك السلاجقة سنة (468هـ/1076م)، لكنهم فشلوا في الاستيلاء على حلب، غير أن نصرا هو الآخر مات مقتولا شهر شوال من نفس السنة، فتولى أمر حلب بعده أخوه سابق بن محمود[3].

دخل سابق هذا في نزاع مع أخيه وثاب بن محمود، الذي اجتمع إليه خلق كثير من بني
كلاب، فاستعان بهم لقضاء على خصومه سنة (468هـ/1087م) ، كان ذلك إيذانا ببداية انحلال البيت المرداسي وتدهوره، فقد لجأ وثاب رفقة مجموعة من العرب إلى السلطان ملكشاه لمساعدتهم، فأمرهم بالمسير إلى أخيه تاج الدولة، للانضمام إليه، فساروا إليه سنة (470هـ/1077م)، وانضموا إليه ليستولي على بلاد الشام، غير أنه فشل في ذلك[4].

وهنا شعر سابق بن محمود بخطر تاج الدولة تتش، والسلاجقة، فطلب المساعدة من مسلم بن قريش العقيلي صاحب الموصل، وكان أهل حلب قد سبقوه بطلب النجدة لسوء الأوضاع بها وقرر مسلم المسير إلى حلب لا لنجدة سابق بن محمود، ولكن للاستيلاء عليها، فوصلها شهر (ذي الحجة 472هـ/1079م)، ومعه جمع من العرب، وتحصن بها سابق ورفض تسليمها ودخل بعدها أمراء بني مرداس في خلاف فتوسط لهم رجل يدعى علي بن المقلد بن منقذ[5] عند مسلم لتسليم المدينة مقابل مبلغ من المال ففعلوا، وتسلمها مسلم بن قريش شهر ربيع الآخر سنة (473هـ/1080م).

---

[1] ابن حوقل النصيبي: صورة الأرض، ص205.
[2] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 99.
[3] ابن العديم كمال الدين: نفس المصدر السابق، ج1، ص 261.
[4] المصدر نفسه، ص 303 .
[5] علي بن المقلد بن منقذ: هو أبو الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني، الملقب سديد الملك، صاحب قلعة شيزر، كان شجاعا كريما ، وهو أول من ملك قلعة سيزر من بني منقذ لأنه كان نازلا مجاور القلعة، بقرب الجسر المعروف بجسر بني منقذ، وكانت القلعة بيد الروم فحدثته نفسه بأخذها فنازلها، وتسلمها بالأمان من رجب سنة أربع وسبعين وأربعمائة...، أنظر ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج3، ص409.

وبتسليمها لمسلم بن قريش زالت دولة بني مرداس، وأصبحت حلب تحت حكم مسلم إلى غاية وفاته سنة (478هـ/1084م)، فسيطر عليها تاج الدولة فيما بعد.

2- إمارة بني عقيل في الموصل وشمال بلاد الشام

كانت هذه الإمارة تابعة مذهبيا للخلافة الفاطمية، لذلك سعت للإطاحة بالسلاجقة لما كان على رأسها قريش بن بدران، ولكن بموته سنة (453هـ/1061م)[1]، وتولي ابنه شرف الدولة مسلم بن قريش، حتى أخذ في توطيد علاقاته بالسلاجقة، وتمكن بذلك من الاستيلاء على حلب سنة (473هـ/1080م)، والقضاء على إمارة بني مرداس فبسط نفوذه على الموصل وشمال بلاد الشام، وتطلع إلى الاستيلاء على دمشق، لكنه فشل، واستمر في معاداته للسلاجقة غير أنه انهزم أمامهم، وطلب العفو فعفوا عنه، وأقروه على بلاده[2].

ثم عاد إلى مواجهة السلاجقة مرة أخرى قرب أنطاكية، ولكنه هذه المرة لقي حتفه واستمر

مكانه أخوه إبراهيم بن قريش، غير أنه هو الآخرلم يدم طويلا، وقضى عليه تاج الدولة تتش سنة (486هـ/1093م)، وبمقتله اضمحل أمر بني عقيل في الموصل، وشمال بلاد الشام[3].

3- إمارة بني عمار في طرابلس:

ظهرت هذه الإمارة إلى الوجود، نتيجة لاستيلاء السلاجقة على معظم بلاد الشام من الفاطميين، في عهد الخليفة المستنصر بالله، وهي من الإمارات العربية التي استطاعت الصمود في وجه السلاجقة، ودسائس الفاطميين، ولعبت دورا بارزا في مجريات الحوادث السياسية في بلاد الشام، وفي مواجهة الصليبيين بعد تفكك السلاجقة.

وقد أسس هذه الإمارة القاضي أمين الدولة أبو طالب عبد الله بن محمد بن عمار الطائي سنة (462هـ/1070م)، على إثر الضعف الذي انتاب الفاطميين في عهد المستنصر بالله واستيلاء السلاجقة الأتراك على معظم بلاد الشام، وبقي في حكمها حتى وفاته بها سنة (464هـ/1072م)، وتولى أمرها بعده ابن عمه جلال الملك أبو الحسن ين عمار في نفس السنة فضبط البلد أحسن ضبط[4].

وعلى الرغم من استقلال بني عمار عن الخلافة الفاطمية، إلا أن زعماءها قد لزموا جانب الاعتدال مع حكومة القاهرة ولم يجاهروا بعدائها، مراعاة

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج08، ص 355.
[2] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 112-113.
[3] أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج2، ص07.
[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص71.

للغالبية العظمى من سكان طرابلس الذين يتبعون المذهب الشيعي[1]، وكان الفاطميون يبتكرون الدسائس للقضاء عليها، مما اضطر جلال الملك بن عمار سنة (476هـ/1083م)، أن يبذل جهدا لمقاطعة المصاهرة بين تاج الدولة تتش والوزير الفاطمي بدر الجمالي، خوفا من أن يقع بين شقي الرحى أي بين الفاطميين والسلاجقة[2]، فقد كان كل من الفاطميين والسلاجقة يرغبون في الاستيلاء على طرابلس، ففي سنة (484هـ/1091م) أرسل تاج الدولة جيشا تحت قيادة آقسنقر البرسقي[3]، للسيطرة على حلب إلا أنه فشل، وتلت هذه العملية عمليات أخرى من جانبه، ومن الجانب الفاطمي، لكنها باءت بالفشل، وظلت في أيدي بني عمار إلى أن سقطت في أيدي الصليبيين فيما بعد.

رابعا: العلاقات الخارجية للدولة الفاطمية في المشرق قبل بداية العدوان الصليبي

تمهيد

نحاول في هذه الأسطر أن نكشف عن العلاقات الخارجية التي كانت سائدة بين الدولة الفاطمية، من جهة وبين بقية الدول المجاورة لها من جهة أخرى، وقد قررنا إثارة هذه النقطة، لأن تأثيراتها ظهرت واضحة فيما بعد عند بداية العدوان الصليبي على بلاد الشام خاصة ولذلك نحاول التعرف عن علاقات الدولة الفاطمية، بكل من الخلافة العباسية والسلاجقة معا ثم علاقاتها مع الإمارات الشامية.

أ- العلاقة مع الخلافة العباسية.

حاول الفاطميون منذ استقرارهم في مصر، توجيه نظرهم ناحية الشرق للقضاء على الخلافة العباسية، لأنه هدفها الأول لذلك ومنذ أن استقرت أوضاعها في مصر، حتى بدأت بتوجيه دعاتها إلى العراق، الذي كان خاضعا لسيطرة البويهيين[4] أتباعهم في المذهب، واستمر هذا التقليد ساريا إلى أن توجت في الأخير بأكبر ثورة شيعية داخل عاصمة العباسيين، كادت تقضي على ملكهم نهائيا، وهذه الثورة هي ثورة البساسيري، أو ما يصطلح عليها عند المؤرخين بحركة البساسيري[5].

2- المواجهة المسلحة بين الفاطميين والخلافة العباسية "حركة البساسيري".

---

[1] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 111.
[2] عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية)، بدون طبعة، ص 58.
[3] آقسنقر البرسقي: هو أبو سعيد آقسنقر البرسقي الغازي، الملقب قسيم الدين، صاحب الموصل، والرحبة وتلك النواحي...،أنظر: ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج1، ص 242.
[4] بنو بويه: يعود نسبهم إلى بهرام جور بن يزدجر الملك الساساني، حكم آل بويه رقعة من العالم الإسلامي، وأقاموا دولة كبيرة عرفت بالدولة البويهية، وضمت بلاد فارس والعراق، وانتهى حكمهم بسيطرة السلاجقة على ممتلكاتهم ودخولهم بغداد سنة 447هـ...، ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج01، ص 405.
[5] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج7، ص 571-572. عماد الدين الأصفهاني: نفس المصدر السابق، ص 27.

كثرت النزاعات داخل البيت البويهي الذي كان يسيطر على الحكم العباسي، قبيل وصول السلاجقة إليهم، وذلك أن الأخوين جلال الدولة، وأبو كاليجار، دخلا في تنافس كبير في عام (424هـ/1033م)، وتطورت هذه المنافسة إلى مواجهات عسكرية ما أدخل البلاد في دوامة النزاعات، والشغب، ولم تتمكن الخلافة من تهدئة الوضع نظرا لضعفها الظاهر[1].

ورغم موت جلال الدولة، وتولي ابنه المنصور مكانه إلا أن الخلافات لم تنته، بل زادت حدتها بعد أن تمكن أبو كاليجار من دخول بغداد، وأقيمت له الدعوة في عام (436هـ/ 1045م) وقد عمد هذا الأخير إلى توطيد نفوذه هناك ليوجه ضرباته خارج بغداد لكنه جوبه
بقوة السلاجقة التي اضطرته إلى أن يعقد معها صلحا في عام (439هـ/1047م)[2].

لكن أبو كاليجار كان يخشى قوة السلاجقة دائما، فعمد مرة أخرى إلى أن يتقرب من الفاطميين، أعداء العباسيين، ووافق ذلك أن كانت دعوة الفاطميين قد عرفت تأييدا كبيرا في بلاد فارس على يد الداعي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي[3]، الذي أرسله المستنصر للدعوة هناك، وتمكن هذا الأخير من استمالة أبي كاليجار إليه، ولما علم الخليفة العباسي بمجيء هذا
الداعي طلب من أبي كاليجار أن يقبض عليه، وإلا استعان بالسلاجقة ضده[4].

وفي هذه الأثناء برز على الساحة السياسية في بغداد رجل يدعى أبو الحارث أرسلان البساسيري، وهو أحد القادة الأتراك الذين ساعدوا الملك البويهي في انتزاع البصرة من يد أخيه أبو علي بن أبي كاليجار، وتصدى للأكراد والأعراب الذين عاثوا فسادا في بعض مدن العراق وقطعوا الطرق، بدأ هذا الأخير نفوذه يتسع حتى عينه الخليفة العباسي القائم رئيسا للأتراك وقلده الأمور بأسرها، ثم استبد بالسلطة في بغداد وسيطر عليها، وما جاورها، وتمتع بنفوذ كبير لدرجة أنه أضحى يخطب له على المنابر في العراق، والأهواز ونواحيها، وأشرف على بيت المال[5]، وقد تأثر هو الآخر بالدعوة الفاطمية، وانحاز إلى جانب الفاطميين[6].

---

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج7، ص 758-759.
[2] محمد الخضري بك: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، راجعه واعتنى به الأستاذة نجوى عباس، مؤسسة المختار(مصر)، (2003م)، ص
[3] المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي: هو هبة بن أبي عمران موسى بن داوْد، ولد في شيراز، والده كان حجة بعهد الخليفتين الفاطميين الحاكم بأمر الله، والظاهر لإعزاز دين الله...، أنظر مذكرات داعي دعاة الدولة الفاطمية: لـ المؤيد في الدين هبة الله بن أبي عمران موسى الشيرازي(من القرن الرابع الهجري)، حققه وقدم له، وعلق عليه، وشرح غوامضه، د- عارف تامر، مؤسسة عز الدين(بيروت)، (1403هـ/1983م)، ص 10.
[4] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 346.
[5] ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج1، ص 192.
[6] محمد الخضري بك: نفس المرجع السابق، ص

في هذه الأثناء رأى الخليفة العباسي أنه ليس بمقدوره سوى الاستعانة بقوة السلاجقة لإعادة الأمور إلى مجاريها، و عن اختياره للسلاجقة دون غيرهم، فلأنهم يوافقونه في المذهب ويحترمون الخلافة، ولذلك أرسل إلى السلطان طغرلبك يطلب مساعدته ضد البساسيري[1].

ولم يجد السلطان بدا من أن يلبي دعوة الخليفة، فخرج إلى بغداد، ولما وصلها أمر الخليفة الخطباء أن يخطبوا له على المنابر، غير أن العامة تذمروا منه، ومن جنده فقتلوا منهم خلقا كثيرا واتهم هو الملك البويهي (الرحيم) بالضلوع وراء هذه الفتنة، وطرده خارج بغداد[2].

في هذه الأثناء أعلن البساسيري خروجه عن الخليفة العباسي، وأرسل إلى الخليفة الفاطمي يعلن له الولاء، فأرسل إليه الخليفة الفاطمي الداعي هبة الله الشيرازي ليساعده ولما وصل إليه عمل على استقطاب بعض الأطراف الأخرى، وخرج البساسيري على رأس جيش كبير باتجاه الموصل وهناك اعترضته قوة يقودها قريش بن بدران صاحب الموصل، لكنها انهزمت أمامه وأعلنت الخطبة للفاطميين بالموصل[3].

راسل بعدها الداعي هبة الله الشيرازي، وزير طغرلبك عميد الدولة الكندري، في محاولة منه لإبعاد السلاجقة عن الخلافة العباسية، لكن هذا الأخير كان يعمل على نفس المنهاج فقد كان يراسل أمراء الشام يطلب منهم التخلي عن البساسيري، وبالفعل نجح في مخططه حيث عدل أغلبهم عن مساندة البساسيري، ما اضطره إلى التراجع إلى الرحبة، ثم إلى حلب[4].

وفي هذه الأثناء تمرد ينال على أخيه طغرلبك، واستولى على بلاد الجبل، وهمذان وما والاها فخرج إليه طغرلبك لتأديبه، فاستغل الداعي هذه الخلافات، ليطلب من إبراهيم ينال فتح علاقات ودية، وتم له ذلك سنة(450هـ/1058م)، وفي المقابل استغل البساسيري خروج طغرلبك ليتوجه هو إلى بغداد، حيث تمكن من دخولها في(08ذي الحجة 450هـ/ ديسمبر 1058م) دون مقاومة تذكر، واضطر الخليفة القائم إلى طلب الأمان فأجيب إلى ذلك، وأخرج من بغداد مرغما[5]، وفي يوم الجمعة (13ذي القعدة451هـ/01جانفي1059م)، دعا البساسيري للمستنصر الفاطمي في جامع المنصور ببغداد، وقطع خطبة

1 عماد الدين الأصفهاني: نفس المصدر السابق، ص 268.
2 ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج8، ص 139-140.
3 جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص330.
4 محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 351.
5 ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12 ،ص 97.

العباسيين، وزاد في الأذان حي على خير العمل ثم أقيمت الخطبة للفاطميين في جل مساجد بغداد[1].

ثم حدث أن اصطدم السلطان طغرلبك بأخيه إبراهيم ينال، وتمكن منه، فسار إلى بغداد وطلب من البساسيري أن يعيد الخطبة للعباسيين، ويبدو أن البساسيري لم يكن قد حظي باهتمام الخليفة الفاطمي، خصوصا بعد أن اتهمه بمحاولة الاستقلال عن الخلافة الفاطمية فعجل بالخروج إلى الكوفة في (06ذي القعدة 451هـ/14ديسمبر1059م)[2]، وأعاد الأمير محي الدين مهارش العقيلي الخليفة العباسي القائم إلى بغداد فاستقبله طغرلبك وبالغ في الاحتفاء به، وأبدى اغتباطه بعودته، واعتذر له عن تأخره لاشتغاله بإخماد ثورة أخيه وأعيدت بعدها الخطبة للعباسيين بعد انقطاع دام سنة، **"وجهز طغرلبك جيشا فحاربوا البساسيري فظفروا به، فقتل وحمل رأسه إلى بغداد "**[3]، ثم تتبع السلاجقة جذور الدعوة الفاطمية حتى قضوا على أغلبها[4].

يتبين لنا من خلال ما سبق، أن الفاطميين عملوا بجد من أجل تحقيق غايتهم التي انتقلوا من أجلها من المغرب إلى مصر، وهي إسقاط الخلافة العباسية، وقد تمكنوا من ذلك ولو كان لفترة قصيرة، وكان سيطول الأمر، أو حتى يدوم، لو أن الخليفة (الفاطمي) كان هو المتحكم بزمام سلطته، ولكن خضوعه لضغوط الوزراء حال دون ذلك.

---

1 ابن العبري: نفس المصدر السابق، ص 104.
2 المصدر نفسه، ص 104.
3 جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: نفس المصدر السابق، ص 330.
4 ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج08، ص 159.

الفصل الثاني

العدوان الصليبي على ساحل الشام وموقف الفاطميين منه

أولا- بداية الحروب الصليبية
ثانيا- سقوط المدن الساحلية الشامية
ثالثا- موقف الفاطميين من العدوان الصليبي

أولا- بداية الحروب الصليبية.

تمهيد

نحاول في هذا الفصل أن نتحدث عن بداية العدوان الصليبي على الأراضي الإسلامية حيث، ابتدأنا بتعريف عام للحروب الصليبية، ثم الأسباب التي عجلت ببدايتها، لنتطرق بعدها إلى النتائج الأولية التي خلفتها هذه الحملات، ثم ننتقل بعدها إلى العدوان الصليبي على السواحل الشامية مركزين على الأراضي التابعة للدولة الفاطمية، تجنبا للإطالة لنختتم في الأخير بردة فعل الدولة الفاطمية تجاه هذا العدوان، والتي شملت المناحي الثلاث السياسية والاقتصادية والعسكرية.

أ- تعريف الحركة الصليبية

يرى مجموعة من المؤرخين أن الحروب الصليبية تمثل حلقة من حلقات الصراع الطويل بين الشرق والغرب، وهو الصراع التقليدي الذي ظهر بين الفرس واليونانيين ثم بين الفرس والإمبراطورية الرومانية البيزنطية، ويمكن تفسير أسباب هذا الصراع، وربطه بالعامل الحضاري باعتباره صراعا بين حضارتين مختلفتين، وليس إلى عوامل دينية، حيث أن الصراع دار في وقت كان الشرق والغرب يعتنقا الديانة الوثنية، وبلغ أشده مع نهاية القرن الحادي عشر ميلادي، حيث وجد متنفسا له في الحروب الصليبية[1].

ويرى فريق ثاني أن الحركة الصليبية هي انتفاضة كبرى نتجت عن عملية الإحياء الديني التي قامت في أوربا في القرن(10م)، وبلغت ذروتها في القرن (11م)، ويقولون بأنها مواصلة لأسلوب الحج إلى بيت المقدس، لكن بطريقة حربية[2].

والحركة الصليبية عند فريق ثالث من المؤرخين هي وسيلة تحايل بها الغرب الأوربي للخروج من أنماط العصور الوسطى، والانطلاق إلى حياة أوسع وأرحب من الحياة التي يحيونها في الإمبراطورية الغربية التي تتسلط عليها الكنيسة[3].

---

1 محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي(بيروت)، ط2 (1982) ص 27. جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، دار النهضة العربية(بيروت) ط3(1981)، ص 38-39.

2 قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة، والفنون والآداب (الكويت)، 1978، ص 30-31. محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية(1095-1291م)، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية)، (1995) ص 14.

3 محمود سعيد عمران: نفس المرجع السابق، ص 13-14 .

والحركة الصليبية بتعريف أدق هي حركة صليبية استعمارية[1] استيطانية، آمن بها قوم حضروا مسلحين من بلاد الغرب، وانتزعوا قطعة من بلاد الشرق، أقاموا عليها دولة تنعموا بخيراتها، واستغلوا من استبقوا من أهلها، ودأبت دولتهم هذه على القتال والانتصار والتوسع إلى أن قابلتها قوة شرقية معاكسة، نمت وتعاظمت إلى أن كسرت شوكتها بعد ثلاثة أجيال، ثم أجهزت عليها واستأصلتها بعد فترة لم تتجاوز القرنين من الزمن[2].

ب- أسباب الحروب الصليبية

تعددت أسباب الحروب الصليبية واختلفت باختلاف آراء ووجهات نظر الشعوب التي اشتركت فيها، ولهذا اختلف المؤرخون في تعدادها، غير أن أغلبهم أجمع على أن كلا من الأوضاع الاجتماعية، والاقتصادية، والدينية، كانت سبب هذه الحروب، لكنها أسباب غير مباشرة بالنظر إلى الأسباب الأخرى التي عجلت بقيامها.

1- الأسباب الغير مباشرة

1 .أ- الأسباب الاجتماعية

كانت الطبقة الشعبية في أوربا فترة الحروب الصليبية، تعاني من الفقر والاحتياج والظلم زيادة على المجاعة التي عمت أنحاء أوربا في هذه الأثناء، والتي انتابت هذه الطبقة الضعيفة أكثر من أي طبقة أخرى[3]، وكان من الطبيعي أن تلبي هذه الفئة أي نداء ترى فيه متنفسا لها من حالتها، ولذلك فما إن أعلن البابا أوربان الثاني عن ميلاد الحركة الصليبية، حتى انضمت إليه جموع كثيرة من هذه الطبقة، وانضاف إليهم بعض الأشراف والإقطاعيين الطامعين في تكوين الممالك والإمارات[4].

1.ب- الأسباب الاقتصادية:

حتى العامل الاقتصادي كان له دور بارز في الحركة الصليبية، ففرنسا مثلا كانت تعاني مجاعة عامة، ولذلك كان عدد الفرنسيين في الحملة الصليبية على الشرق، أكبر من غيرهم[5] ويضاف إلى ذلك أن سوء الأحوال الأمنية في غرب أوربا أضر بالتجارة والزراعة، مما اضطر الأهالي إلى اللجوء إلى الهجرة، هربا من صعوبة الحياة[6].

---

[1] المرجع نفسه، ص14 .
[2] فوشيه الشارتري: تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة من اللاتينية إلى الإنجليزية الأخت ريتا ريتان، حرره وقدم له هارولد.س.فنك، نقله إلى العربية، زياد جميل العسلي، دار الشروق (بيروت)، (1990)، ص13.
[3] محمود السيد: تاريخ الحروب الصليبية في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة (الإسكندرية) (2002م)، ص 14.
[4] محمود سعيد عمران: نفس المرجع السابق، ص 19-20.
[5] محمود السيد: نفس المرجع السابق، ص 14-15.
[6] تيسير بن موسى: نفس المرجع السابق، ص 56.

كما كان للمدن الإيطالية التجارية (بيزة، وجنوة، وأمالفي، والبندقية)، هي الأخرى الدور الفاعل في تشجيع الحركة الصليبية، فقد كانت راغبة في توسيع رقعة تجارتها[1]، ووجدت في الحروب الصليبية فرصتها، لأن السيطرة على مناطق في الشرق الإسلامي سيفتح لها الباب واسعا للمعاملات التجارية مع المسلمين[2].

1.جـ- الأسباب الدينية.

وقد كان للشعور الديني، دور كبير في تغذية الروح الصليبية، فقد كان كثير ممن شاركوا في الحروب الصليبية تدفعهم عاطفة دينية جياشة، كما استعمل البابا أوربان الثاني في خطبه جميع وسائل الإغراء لإثارة الحمية، فزيادة على إعلانه غفران الذنوب والتكفير عن المعاصي لكل
مشارك في الحملة الصليبية، أعلن أنه أعفى حماة الصليبية من جميع التكاليف المدنية[3].

ويمكننا أن نعتبر، خطبته التي ألقاها بمجمع كلير مونت في 27نوفمبر (488هـ/1095م)[4] تلخيصا موجزا لجميع ما ذكرناه، حيث يقول: **" إنه لا يجوز لأي ساع في خلاص روحه أن يتوانى عن أن يسلك خاشعا طريق السيد، وإذا أعوزه المال فالرحمة الإلهية تعينه... أيها الإخوان يجب عليكم أن تتعذبوا كثيرا من أجل المسيح فتتحملوا المشقة، والفقر، وتكابدوا الحفاء والاضطهاد والذلة والمرض والجوع والظمأ وما شاكلها... "**[5]، وقوله أيضا: **" وليست هذه الحرب لاكتساب مدينة واحدة فقط بل هي أقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى، فاتخذوا محجة القبر المقدس وخلصوا الأراضي المقدسة من أيدي المختلسين وأنتم أملكوها لذواتكم فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبنا وعسلا "**[6].

---

1 المرجع نفسه، ص 58.

2 محمود سعيد عمران: نفس المرجع السابق، ص 20-21.

3 فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 35-36. Walter porges: the clergy and other noncombatants on the first crusade: A study based chiefly on the contemporary narrative and epistolary sources, Chicago, Illinois, (1942), p 04-05.

4 أرنست باركر: الحروب الصليبية، نقله إلى العربية، د- السيد الباز العريني، دار النهضة(بيروت)، ط2، سنة الطبع غير موجودة، ص 23. tood Patrick Upton: sacred topography western sermon perceptions of Jerusalem the holy sites and Jews during the crusade(1095-1193), proquest information andlerning company(usa), (2007), p 36. جوزيف نسيم يوسف: نفس المرجع السابق، ص 154.

5 مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمه وقدم له وعلق عليه، د-حسن حبشي، ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي، 1958، ص 17-18.

6 محمد العروسي المطوي: نفس المرجع السابق، ص 34.

واستخلاص بيت المقدس، وإنقاذ قبر المسيح عليه السلام وحماية الصليب، من المسلمين هي الحجة التي اتخذها المنظرون لهذه الحرب، وقد جمعت بداخلها كافة الأهداف الأخرى المختلفة والتي غلبت عنها ظاهرة الانتفاع الشخصي.

وتضاف إلى هذه الأسباب أسباب أخرى جانبية، يمكننا أن نعتبرها أسبابا مباشرة للحروب الصليبية وهي:

2 ـ الأسباب المباشرة:

2.أ- تهديد القسطنطينية بالاحتلال من طرف السلاجقة، واستنجاد إمبراطور بيزنطة (أليكسس كومينين) بالبابا والأمم النصرانية، لإنجاده[1].

2.ب- زوار بيت المقدس النصارى وادعاؤهم مضايقة المسلمين لهم، وانتهاكهم لحرمات الأماكن النصرانية المقدسة[2]، وهو في حقيقة الأمر افتراء منهم على المسلمين، لأن المسلمين لم يضايقوهم حقيقة، سوى ما قام به الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، عندما ضايق أهل الذمة وأصدر في حقهم المراسيم، وهدم كنيسة القيامة[3]، لكن ذلك كان قبل مدة طويلة من بداية الحروب الصليبية، وبالتالي فلا يمكننا أن نقبله عذر لإعلان الحروب الصليبية.

أما عن إشاعتهم بأنهم تعرضوا لمضايقات من طرف المسلمين السلاجقة، الذين كانوا يحكمون بيت المقدس، فهو الآخر كذب وافتراء فقط، فقد دخل بطرس الناسك وهو أشهر شخصية من زوار بيت المقدس، وأكبر داع للحروب الصليبية، بيت المقدس وكنيسة القيامة ثم عاد سالما إلى بلاده، دون أن يتعرض لأية مضايقات من طرف المسلمين، وبالتالي فإن اتهامه للمسلمين بمضايقة النصارى مبالغ فيها.

3- موقف الفاطميين

يذكر بعض المؤرخين المسلمين، أن من أسباب هجوم الصليبيين على الشرق الإسلامي هو
مراسلة الفاطميين لأمم الإفرنج وتشجيعهم على مهاجمة السلاجقة[4] لأنهم تغلبوا عليهم وافتكوا منهم بعض مدنهم في بلاد الشام، زيادة على الخلافات المذهبية

---

[1] المرجع نفسه، ص 31. محمود السيد: نفس المرجع السابق، ص 12.
[2] قاسم عبده: نفس المرجع السابق، ص 22.
[3] محمد العروسي المطوي: نفس المرجع السابق، ص 31.
[4] ذكر ذلك المؤرخين ابن الأثير في الكامل، ج9، ص 13، والسيوطي في تاريخ الخلفاء، ص336.

ما بين أهل السنة والشيعة وكانت على أشدها في تلك الأزمنة، لذلك كانوا يتحينون فرصة مجيء الصليبيين إلى بلاد الشام، لاستعادة ممتلكاتهم[1].
وفي ذلك يقول السيوطي **" وفي سنة تسعين... جاء الفرنج فأخذوا نيقية، وهو أول بلد أخذوه، ووصلوا إلى كفرطاب واستباحوا تلك النواحي، فكان هذا أول مظهر الفرنج بالشام، قدموا في بحر القسطنطينية في جمع عظيم وانزعجت الملوك والرعية، وعظم الخطب، فقيل: إن صاحب مصر لما رأى قوة السلجوقية واستيلائهم على الشام كاتب الفرنج يدعوهم إلى المجيء إلى الشام ليملكوها..."**[2]

<u>ثانيا</u>- بداية الحملات الصليبية.

بعد إعلان مولد الحركة الصليبية على يد البابا أوربان الثاني في كليرمونت، في أواخر عام (488هـ/1095م)، حتى بدأت استعدادات التنفيذ والتي تولاها دعاته، الذين بثهم في أرجاء بلدان أوربا، غير أنهم سمحوا لكل من حمل الصليب بالتوجه إلى الأراضي المقدسة، فانتابت المجتمعات الأوربية، نتيجة ذلك، موجات عارمة من الحماس الديني أسفرت عن قيام حملة الشعوب أو العامة، وضمت أجناسا مختلفة، من فرنسا وإيطاليا وألمانيا[3].

أ- الحملة الشعبية

[1] مسفر بن عريج الغامدي: نفس المرجع السابق، ص 118-119.
[2] جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم (بيروت)، ط1(1424هـ/2003م) ، ص 335-336.
[3] مجهول: نفس المصدر السابق، ص ص 18-19-20. ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج1، ص 108. جوزيف نسيم: نفس المرجع السابق، ص 156-157.

احتشد الآلاف من فقراء الرجال والنساء وقطاع الطرق واللصوص والغوغاء، الذين لم يكن لهم أي وازع ديني أو أي علم بفنون القتال، وقد انضم إليهم بعض صغار النبلاء ممن كانت تدفعهم المطامع الشخصية الدنيوية[1].

خرجت الحملة الشعبية (الجياع)[2]، هذه على شكل مجموعات مختلفة تحت زعامة أشخاص عديدين مثل جوتييه، وبطرس الناسك، والتر المفلس وغيرهم[3]، وقد اصطدموا أثناء تقدمهم بشعوب البلدان التي مروا بها مثل بافاريا والمجر وبلغاريا، وقاموا بأعمال السرقة والسلب والقتل وحرق المدن، ولم تنج ضواحي القسطنطينية من تعدياتهم، مما حمل الإمبراطور البيزنطي أليكسوس كومينين على اتخاذ مبادرة نقلهم إلى آسيا الصغرى، مدركا في الوقت نفسه، بما له من خبرة وتجربة، أن هذا الجمع الصليبي غير المنظم لا يثير الخوف في النفوس، وأنه إن عبر المضيق إلى آسيا الصغرى فسوف يدمره سلاجقة الروم بسرعة، **" وقام بضعة آلاف من متشردي بطرس الناسك من الفرنسيين، مشارف مدينة نيقية عاصمة السلطان السلجوقي قلج أرسلان فنهبوا القرى، والمزارع، وقتلوا كل من صادفوه في طريقهم حتى السكان المسيحيون، بوحشية مروعة، وقيل إنهم عمدوا إلى شي الأطفال على السفافيد..."**[4]، وحين عادوا، ومعهم غنائمهم، أخذوا يقصون بطولاتهم على زملائهم، فتحمس الجنود الألمان وخرج ستة آلاف منهم بقيادة رينالد إلى قلعة أكسير يجوردون، وهناك تعرضوا لكارثة حقيقية، إذ لم ينج منهم سوى ثلاثة آلاف من أصل عشرين ألفا[5].

ب- الحملة النظامية

بعد قيام الحملات الشعبية، كانت الاستعدادات تجري في الغرب الأوربي لتحرك الجيوش النظامية باتجاه الشرق، وقوامها الأمراء الإقطاعيون من فرنسا وإيطاليا ونورمنديا، وكان أفرادها أكثر تنظيما، بعد الاستعدادات بالعدة والعتاد، والاتصال مسبقا بأمراء وحكام النواحي الذين سيمرون في أراضيهم، حتى يمدوا لهم المساعدة[6].

ولم تكن الحملة النظامية هذه تحت قيادة أمير واحد إنما كان لكل أمير رجاله وجنده واختلفت أهواؤهم، لتباين نظرة كل شخص إلى مفهوم الحركة الصليبية.

---

1 محمود سعيد عمران: نفس المرجع السابق، ص26.
2 تيسير بن موسى: نفس المرجع السابق، ص 62.
3 Walter porges: op.cit, 15-16. Stanley lane- Poole. M.a : Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem, copyright, G. P. putnam's sons, enterd at stationers, hall(London), 1898.
4 المرجع نفسه، ص64.
5 جوزيف نسيم: نفس المرجع السابق، ص 164-165. محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 424.
6 ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج1، ص 145-146.

تكونت الحملة من أربعة جيوش نظامية، تولى بوهيمند وابن أخته تانكرد قيادة القوات النورماندية، أما القوات البروفنسالية فكانت تحت قيادة ريموند الرابع كونت تولوز، والقوات الفرنسية تحت قيادة إتيين كونت بلوا، وهيو كونت فرماندوا الابن الأصغر لهنري الأول ملك فرنسا، وروبرت الثاني كونت فلاندر، أما جودفري دي بوايون دوق اللورين، وأخوه بلدوين فقد قادا قوات اللورين السفلى[1].

اتخذت هذه الجيوش أربع طرق مختلفة، لكنها اتفقت على الالتقاء عند أسوار القسطنطينية وبلغ عدد أفرادها ثلاثين ألف مقاتل، ويذكر أن عدد أفراد الجيوش التي وفدت من الغرب ونزلت في الأراضي الإمبراطورية البيزنطية، في المدة الواقعة بين صيف عام (1096م)، وربيع عام(1097م)، تراوح بين ستين ألفا ومائة ألف[2].

وبعد محادثات شاقة مع الإمبراطور البيزنطي أليكسوس كومينين، تم نقلهم إلى آسيا الصغرى

وكان قد أن اشترط عليهم، في مقابل مساعدته لهم، بأن تعطى له كل الأراضي التي سيتم

الاستيلاء عليها من السلاجقة، إذا كانت هذه الأراضي تابعة للإمبراطورية من قبل[3].

جـ - النتائج الأولية للحملة الصليبية الأولى

جاءت الحملة الصليبية في وقت كان فيه العالم الإسلامي يعاني الانقسامات السياسية والمذهبية، وكانت بلاد الشام، التي استهدفتها تلك الحملة بشكل خاص، تعيش وضعا مفككا حيث توزعت مدنها بين حكام وأمراء مختلفة أهواؤهم، وبلغ الخلاف المذهبي والعسكري بين الفاطميين والسلاجقة أشده، عندما بدأت جيوش الصليبيين تجوس خلال الديار الإسلامية، ما مهد لهؤلاء دخول بلاد الشام واحتلال بيت المقدس والقسم الساحلي بكامله.

1- سقوط نيقية[4]

---

[1] بطرس توديبو: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، نقله إلى الإنجليزية مع مقدمة وهوامش، جون هيوج هيل، ولوريتال هيل، نقله إلى العربية، حسين محمد عطية، تقديم الأستاذ، جوزيف نسيم، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية) (1999)، ص75. Alan.v. Murray: from Clermont to Jerusalem, the crusades and crusader societies(1095-1500), turnhut; brepols, (1998), p 29-30. جوزيف نسيم: نفس المرجع السابق، ص 178.

[2] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 425.

[3] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج1، ص 147. جوزيف نسيم: نفس المرجع السابق، ص 160-161.

[4] نيقية: تقع هذه المدينة على مسافة يسيرة من خليج نيقوميديا، وقد اشتهرت بمناعتها وحصانتها، نظرا لمتانة أسوارها والبحيرة الكائنة في جنوبها. أنظر جوزيف نسيم: نفس المرجع السابق، ص 228.

وسرعان ما توجهت هذه الجموع الصليبية الهائلة، الممتلئة حماسا واندفاعا صوب حدود سلطنة سلاجقة الروم، وهدف قادتها الاستيلاء على نيقية عاصمة السلطنة المذكورة نظرا لموقعها الجغرافي المتميز، إذ لو بقيت بأيدي السلاجقة لشكلت خطرا عليهم، أثناء تقدمهم إلى بلاد الشام، وقد توحدت أهدافهم وأهداف بيزنطة في هذه القضية[1].

وصلت القوات الصليبية إلى نيقية في شهر (جمادى الأولى490هـ/ماي1097م)، وضربت الحصار عليها ولم يكن حاكمها السلطان قلج أرسلان الأول (485-500هـ/1092-1107م)، فيها آنذاك، وهو ما سهل للصليبيين السيطرة عليها، بعد حصارها مدة خمسة أسابيع، سلمت بعدها إلى الإمبراطور البيزنطي، لأنها كانت من أملاكه[2].

2- تأسيس إمارة الرها

نجح الصليبيون في اختراق آسيا الصغرى بعد سقوط نيقية، ثم واصلوا تقدمهم باتجاه بلاد الشام، فبلغوا مدينة أنطاكية، وضربوا الحصار عليها، في حين انفصل عنهم بلدوين عند عين تاب[3]، واتجه نحو الشرق، لمساعدة الأمير ثوروس حاكم الرها، في مواجهة الزحف الإسلامي

الذي جاء به كربوغا، حاكم الموصل، القادم لنجدة أنطاكية.

وقد استغل بلدوين فرصة مقتل ثوروس على يد مجموعة من الأرمن[4]، فتزوج بلدوين امرأته وتسلم حكم المدينة، وذلك في شهر (ربيع الآخر 491هـ/أكتوبر1098م)، وهكذا قامت أول إمارة صليبية في الشرق الأدنى الإسلامي[5].

3- تأسيس إمارة أنطاكية

وصل الصليبيون إلى أنطاكية في شهر (ذي القعدة 490هـ/سبتمبر1097م) وضربوا الحصار عليها ويصف لنا أحمد بن علي الحريري حالهم بقوله: **"ثم إن الفرنج شددوا الحصار على أنطاكية وصاحبها يومئذ ياغي سنان، ثم إن ياغي سنان أخرج النصارى المقيمين بأنطاكية وطردهم ونهب دورهم، ودام الحصار على أنطاكية تسعة أشهر، وهلك أكثر الفرنج عليها من القتل والموت،**

[1] مؤرخ مجهول: نفس المصدر السابق، ص 28-29.
[2] بطرس توديبو: نفس المصدر السابق: ص 110-111. جوزيف نسيم: نفس المرجع السابق، ص 229.
[3] عين تاب: قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية، وكانت تعرف بدلوك، ودلوك رستاقها، وهي الآن من أعمال حلب، ياقوت الحموي، نفس المصدر السابق، ج4، ص 176.
[4] محمود السيد: نفس المرجع السابق، ص 89.
[5] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 51-53.

والجوع، وظهر من شجاعة صاحبها ما لم ير مثله "[1]، ولم تجد فرق السلب والنهب التي شكلوها للإغارة على المناطق الريفية المجاورة ما تنهبه، حتى باتوا في مأزق حقيقي، وفي المقابل، كان المسلمون في داخل المدينة، في نزاع كبير، على الرغم من أن جيشا إسلاميا، بقيادة كربوغا أمير الموصل، كان يشق طريقه لإنقاذ المدينة، لكنه وصل بعد فوات الأوان[2].

في هذه الأثناء حاك بوهيموند مؤامرة، رأى فيها وسيلة لتحقيق أطماعه ودفعته للانضمام إلى الحملة الصليبية، وهي الاستقلال بحكم أنطاكية ليؤسس بها إمارة نورماندية، لذلك قرر الرحيل إذا لم يوافق القادة الصليبيون على منحه حكم أنطاكية بعد الاستيلاء عليها[3]، ونتيجة للخوف الذي انتاب الصليبيين، وافق الزعماء على طلبه، وكان بوهيمند قد دبر مؤامرة مع أحد الأرمن على فتح باب البرج الذي يتولى حراسته، ودخل الصليبيون إلى المدينة واستولى بوهيمند على القلعة ليعلن تأسيس إمارة أنطاكية الصليبية في شهر (جمادى الآخرة 491هـ/جوان1098م)، وهي الإمارة الثانية التي يؤسسها الصليبيون بعد الرها[4].

ثانيا- سقوط المدن الساحلية الشامية

تمهيد

تجدر الإشارة إلى أن أغلب المدن الساحلية الشامية الكبرى، كانت بيد الفاطميين زمن الحروب الصليبية، وإن كانت بعضها بأيدي السلاجقة، لكن اندحار القوة السلجوقية بمجيء الصليبيين جعلها تضيع من أيديهم لتدخل في فلك الفاطميين مرة أخرى، وكما أشرنا سابقا فإن الفاطميين استغلوا فرصة مجيء الصليبيين ليسترجعوا ما افتكه السلاجقة منهم، وكانوا يعتقدون أن الصليبيين سيتوقفون عند حدود ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية سابقا، ولم يكونوا على دراية بمخططاتهم، ولذلك فإن الصليبيين بمجرد أن سيطروا على ما كان بأيدي السلاجقة شرعوا في السير إلى بيت المقدس، الذي كان يخضع لسلطة الفاطميين، وخاب بذلك ظن الفاطميين الذين بادروا بالخيانة، ليلاقوا نفس مصير السلاجقة.

وقد كان هدف الصليبيين الرئيسي هو الاستيلاء على بيت المقدس، وما إن حققوا ذلك حتى وجهوا نظرهم إلى بقية المدن الكبرى، بداية من مدينة عكا.

---

[1] أحمد بن علي الحريري: الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، حقق نصه وعلق عليه وقدم له الدكتور، سهيل زكار، مكتبة دار الملاح، الدولة غير موجودة، (1401هـ/1981م)، ص 62-63.

[2] بطرس توديبو: نفس المصدر السابق، ص 185.

[3] ويليام الصوري: الحروب الصليبية (1094-1184م)، ترجمة وتعليق، حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1992، ج1، ص 344.

[4] علي بن أحمد الحريري: نفس المصدر السابق، ص 63.

أ- استيلاء الصليبيين على طرابلس

1- سقوط طرابلس

يعد ريموند الصنجيلي، كونت تولوز، من أبرز القادة الصليبيين الذين اشتركوا في الحملة الصليبية الأولى، وأكثرهم شهرة، كما أنه من أسوئهم حظا، فقد شارك في الاستيلاء على أنطاكية، ولم ينل منها منالا، وإنما استأثر بها بوهيموند، الذي نافسه مرة أخرى على معرة النعمان، بعد أن استولى عليها بنفسه، وأجبره على التخلي عنها، وعندما استولى على أنطرطوس وحاصر عرقة، اضطره زعماء الحملة إلى تركهما، ليزحف معهم إلى بيت المقدس وحدث له مثل ذلك عند عسقلان وأرسوف بفلسطين[1].

وقد كان هذا الرجل يطمح إلى تأسيس إمارة لنفسه، تتحكم في الطريق الساحلي، والطريق

الداخلي الذي يصل بيت المقدس عبر واد العاصي، على أن تكون حاضرتها حمص، وتحقيق ذلك لا يحدث إلا بالسيطرة على المدن الساحلية، وبمساعدة أسطول بحري من جنوة[2].

وعندما غادرت بقايا الجموع الصليبية التي وفدت على الشرق في عام (495هـ/1101م) أنطاكية متوجهة إلى بيت المقدس، بذل جهدا لقيادتها والاستفادة منها، وكان يهدف لتأسيس إمارة بجوار إمارة أنطاكية على حساب المسلمين، ووقع اختياره على مدينة طرابلس الثرية والتابعة لبني عمار، ويبدو أن السيطرة عليها تقضي احتواء مدن أخرى تجاورها، حتى يؤمن جانبها فيما بعد.

كانت البداية من أنطرطوس التابعة لهؤلاء، عندما خرج إليها بمساعدة أسطول جنوي كان قد وصل حديثا إلى سواحل بلاد الشام، فسقطت المدينة في(جمادى الأولى495هـ/ فيفري 1102م)[3]، واتخذها قاعدة ومنطلقا لأعماله ومشاريعه المقبلة على ساحل بلاد الشام، وأول هذه المشاريع الاستيلاء على طرابلس نفسها، ولما كان رفاقه يتطلعون إلى الرحيل إلى بيت المقدس مباشرة فقد انفضوا من حوله، ولم يبق معه سوى عدد قليل من الجنود، فوصل إلى نواحي طرابلس في جمع لا يزيد على ثلاثمائة رجل[4].

كان القاضي فخر الملك أبو علي بن عمار، صاحب طرابلس، ذا نزعات سلمية، وسيطر في وقت من الأوقات على كل الطريق الساحلي الممتد من

---

[1] عبد الرحمن بن خلدون: نفس المصدر السابق، ج4، ص 88.
[2] ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة (بيروت)، (1968)، ج2، ص 95.
[3] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج1، ص 493.
[4] فوشي الشارتري: نفس المصدر السابق ، ص 124، ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 43.

اللاذقية وجبلة، إلى بيروت التابعة للفاطميين[1]، وقد تعامل بمرونة مع زعماء الحملة الصليبية الأولى أثناء مرورهم بأراضي إمارته في طريقهم إلى بيت المقدس، كما حالف بلدوين الأول ملك بيت المقدس، وحذره من الكمين الذي نصبه له سلاجقة دمشق، وحرص دائما على الاحتفاظ باستقلاله وسط النزاع الفاطمي السلجوقي الصليبي.

غير أن موقفه تغير عندما استولى ريموند الصنجيلي على أنطرطوس، وهدد طرابلس فعندئذ رأى فخر الملك نفسه مضطرا لخوض الحرب دفاعا عن أراضيه، واستنجد بالقوى الإسلامية القريبة لمواجهة ذلك الخطر، فكتب إلى ياخز خليفة جناح الدولة على حمص، وإلى دقاق بن تاج الدولة تتش ملك دمشق، لمساندته، وأطمعهما بالتصدي لريموند وهو بهذه الشلة القليلة من الجيش، فاستجابا له وأرسل دقاق ألفي مقاتل إلى طرابلس، في حين خرج ياخز على رأس
جيش يزيد عن هذا العدد، وكان في اعتقادهم أن الفرصة قد حانت للقضاء عليه[2].

اجتمع الحلفاء عند باب طرابلس وهم على تعبئة، استعدادا للتصدي للقوة الصليبية، أما ريموند فقد عبأ قواته، وقسمها إلى أربع فرق:

- فرقة مؤلفة من مائة مقاتل لمقاتلة عسكر طرابلس.
- فرقة ثانية مؤلفة من مائة مقاتل لمواجهة عسكر دمشق.
- فرقة ثالثة مؤلفة من خمسين مقاتلا للتصدي لعسكر حمص.
- واحتفظ هو بخمسين مقاتلا لحمايته[3].

لم يورد المؤرخون الصليبيون تفاصيل عن هذه المعركة، وكل ما نعلمه عنها مستمد من المؤرخ ابن الأثير، فقد ذكر أنه عندما بدأت المواجهة العسكرية، انكسر عسكر حمص بعد هجوم فاشل قاموا به على المائة المقابلة لهم، وولوا منهزمين، فانتشر الهلع بين الجنود الدمشقيين وانسحبوا من ميدان المعركة، وصمد عسكر طرابلس وقاتلوا المائة الذين قاتلوهم، فلما شاهد ريموند خصومه وهم يفرون، ركز هجومه على عسكر طرابلس وأجبرهم على الارتداد وعندئذ أخذ الفرسان الصليبيون يذرعون ساحة المعركة، وقتلوا سبعة آلاف من المسلمين ونازل صنجيل طرابلس وحاصرها، إلا أنه لم يتمكن من اقتحامها، فهادن فخر الملك على مال وخيل[4] وعاد إلى أنطرطوس[1].

---

1 ستيفن رنسيمان، نفس المصدر السابق، ج2، ص 95.
2 ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 140-141.
3 عبد العزيز سالم: نفس المرجع السابق، ص 84-85.
4 ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج8، ص 473-474.

وبدراسة بسيطة لسير العمليات العسكرية، ولعدد أفراد الجيشين الإسلامي والصليبي الذين خاضوا المعركة، بالإضافة إلى النصر الذي حققه ريموند، يتراءى لنا بأن الأمير الصليبي يكون قد تلقى مساعدات خارجية كافية، وربما يكون نصارى لبنان الذين يسكنون المناطق المجاورة لطرابلس، هم الذين قدموا هذه المساعدة، نظرا لعدائهم للمسلمين، ولعل ما يدعم رأينا هذا هو ما قاله ابن الأثير: **" ونازل صنجيل طرابلس، وحصرها، وأتاه أهل الجبل فأعانوه على حصارها، وكذلك أهل السواد الأعظم، وأكثرهم نصارى، فقاتل من بها أشد قتال، فقتل من الفرنج ثلاثمائة، ثم إنه هادنهم على خيل ومال، فرحل عنهم..."**[2]

ومهما يكن من أمر، فقد قام ريموند بمحاولة أخرى في النصف الثاني من عام (495هـ/1102م) للاستيلاء على طرابلس، فاستنجد فخر الملك من جديد بأميري دمشق وحمص **" فجاؤوا ودفعوا الإفرنج عنه "**[3].

لم تتوقف محاولات ريموند بمضايقة المدينة بشن الغارات عليها، ولبث على ذلك أكثر من سنتين، والواقع أن طرابلس لم تتأثر حتى ذلك الوقت بهذه الغارات ولا بالحصار الاقتصادي الذي فرضه عليها، وذلك بفضل مينائها الذي ظل مفتوحا على البحر.

وفيما كانت طرابلس تواجه حصارا اقتصاديا وغارات صليبية، إذ بها تواجه أيضا محاولات فاطمية للسيطرة عليها، ذلك أن سناء الملك حسين بن الأفضل، الذي أرسله أبوه في عام (496هـ/1103م) للانتقام من الصليبيين، وصل إلى طرابلس، وطلب من صاحبها فخر الملك تسليمه المدينة، لكن صاحب طرابلس رفض طلبه، وأغلق أبواب المدينة في وجهه، **"وأقام سناء الملك عليها مدة بالعساكر إلى أن نازلها الفرنج ورحلوه عنها إلى عسقلان"**[4].

والواقع أن ريموند استعان بالقوة الجنوية التي قدمت إلى الشرق في عام (497هـ/1104م) لمهاجمة طرابلس من البر والبحر، إلا أنه لم يحقق أي نجاح، فأيقن عندئذ أنها بقدر حصانتها برا فهي أيضا حصينة بحرا، فانصرف عنها إلى جبيل واستولى عليها، وخرج منها واليها الفاطمي منهزما[5]، ثم عاد إلى طرابلس وهو مصمم على الاستيلاء عليها هذه المرة، ولما كانت المدينة محصنة تحصينا

---

[1] أنطرطوس: حصن على البحر، ثغر لأهل حمص فيه مصحف عثمان بن عفان، وعليه سور من حجارة يمنع أهلها... ابن حوقل: نفس المصدر السابق، ج1، ص 177.

[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 55.

[3] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 140.

[4] المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص162.

[5] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص72.

قويا وطبيعيا، وحتى يضيق الحصار عليها، ويعزلها عن العالم الخارجي، ويمنع عنها كل النجدات البرية والبحرية التي تأتي إليها، فضلا عن تحركات عساكرها، رابط عند نهر المدينة، ثم بنى في أواسط (489هـ/1104م)، قلعة فوق التلة الغربية المشرفة على النهر مباشرة أطلق عليها المؤرخون اسم قلعة صنجيل، وتتحكم بالميناء والأرباض المحيطة بها، كما تتحكم في مجرى النهر الذي يسقي سكان المدينة وبساتينها، فأمن بذلك المركز المسيطر عسكريا على طرابلس، وساعده نصارى لبنان في عملية البناء[1].

وحاول فخر الملك أبو علي بن عمار هدم القلعة، فهاجمها في شهر (ذي الحجة 497هـ/ جويلية1104م)، وأضرم النار في المعسكرات المقامة إلى جوارها، ثم دخل بقواته إلى القلعة نفسها، وقتلوا من فيها ونهبوها وأحرقوها، وأخذوا ما فيها من السلاح والمال، وعادوا إلى المدينة، ويبدو أن هذا الهجوم الناجح أثر على معنويات ريموند، فاضطر إلى عقد هدنة مع فخر الملك، من بنودها مرابطة الصليبيين في ظاهر طرابلس مقابل أن لا يقطعوا الميرة، ولا يمنعوا المسافرين من الخروج من المدينة أو القدوم إليها[2].

وبينما قدم ريموند ليتفقد القلعة بعد الهجوم عليها، وقف على بعض سقوفها المحترقة فانخسفت به، وأصيب بجروح بليغة أدت إلى وفاته في (04جمادى الآخرة 498هـ/21 فيفري 1105م) دون أن يحقق هدفه، ولصغر سن ابنه ألفونسو جوردان، تم اختيار ابن عمه وليام جوردان ليخلفه في الحكم[3].

واصل جوردان سياسة سلفه، فتعرضت طرابلس، نتيجة ذلك، لأسوأ أنواع الحصار، فقلت المؤن وانتشرت الأمراض، وفي محاولة للتخفيف من تبعات هذا الحصار، استنجد فخر الملك بالأمير سقمان الأرتقي صاحب ماردين، رغم بعده عن طرابلس، وقد تحاشى الاستعانة بجيرانه الفاطميين تخوفا من أطماعهم، هذا وكان على علاقة سيئة مع طغتكين أتابك دمشق، غير أن سقمان توفي في الطريق، فعاد قادته إلى الجزيرة للتباحث بشأن ولاية الحكم، فما كان من فخر الملك إلا أن توجه إلى بغداد في شهر (رمضان 501هـ/أفريل1107م) ليطلب النجدة، من الخليفة العباسي المستظهر والسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه[4]، وعين ابن عمه أبا المناقب محمد بن عبد الله بن عمار، الملقب بشمس الملك، نائبا عنه، ولما عاد بعد أربعة أشهر وجد إمارته قد ضاعت منه[5].

---

1 محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 452.
2 ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 186.
3 فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 135.
4 عبد العزيز سالم: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، ص 39.
5 ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 161-162.

وفي الوقت الذي كان فيه فخر الملك غائبا في بغداد، أدرك أعيان المدينة أن ما من دولة إسلامية تستطيع مساعدتهم سوى الدولة الفاطمية، فطلبوا من الأفضل أن يرسل إليهم واليا يتولى إدارة المدينة ومعه الميرة، فاستجاب الأفضل لطلبهم، وعين شرف الدولة بن أبي الطيب حاكما عليها في أواخر عام (501هـ/1108م)[1]، وبذلك خرجت طرابلس من قبضة بني عمار، وعادت إلى الفاطميين مرة أخرى.

لكن الفاطميين كانوا أضعف من أن يستطيعوا الدفاع عن طرابلس، كما لم يظفر بها ويليام جوردان، فقد قدم في ذلك الوقت، الأمير برتراند، الابن الأكبر لريموند الصنجيلي، وصاحب الحق الشرعي في تركة أبيه، وكان حاكما على إقليم تولوز، ونتيجة للنزاع بين الصليبيين حول اقتسام الإرث، عقد اجتماع في شهر (ذي القعدة 502هـ/جوان1109م)، خارج أسوار طرابلس وحضره أمراء الشرق الصليبيون، تقرر فيه أن تكون جبيل من نصيب برتراند بالإضافة إلى طرابلس بعد الاستيلاء عليها[2].

وما إن تم انعقاد الصلح بين الصليبيين، حتى نهضوا جميعا للاستيلاء على المدينة، فاستولوا عليها وأضحى برتراند أميرا على طرابلس، فأكد تبعيته لمملكة بيت المقدس[3].

وحدد أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي ثلاث أسباب لسقوط طرابلس هي:

1- تقاعس الفاطميين عن المسير إليها تلك المدة الطويلة.

2- ضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر، ولو كان لعسكر الأسطول قوة، لدفع الفرنج من البحر عن البلد حسب الحال **" وإن كان أرسل مع الأسطول عسكرا فهو كلا شيء "**[4].

3- عدم خروج الأفضل بنفسه على رأس العساكر المصرية، **" هذا مع قوتهم من العساكر والأموال والأسلحة "**[5].

ب- سقوط بيروت وصيدا

1- سقوط بيروت

لما استقر الأمر لبلدوين في مملكته ببيت المقدس، بدأ يتطلع إلى توسيع مملكته، على حساب المدن الساحلية، مثل عسقلان في الجنوب، وصور وصيدا

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج8، ص 560.
[2] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 145.
[3] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج1، ص 532-533.
[4] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص176-177.
[5] المصدر نفسه.

وبيروت في الشمال، والمعروف أن كلا من عسقلان وصور تعد من الحصون المنيعة، وتنزل فيها حاميات عسكرية قوية، وبالتالي يقتضي إخضاعها لاستعدادات قوية.

وبعد أن سقطت كل من جبيل وعرقة وطرابلس بيد الصليبيين، وفرت هذه الأخيرة قاعدة

مناسبة لهم[1]، فوجهوا اهتمامهم للاستيلاء على بيروت، فحاصرها بلدوين برا وبحرا، ولما استعصت عليه، طلب المساعدة من صليبيي طرابلس وغيرهم من الشمال، ومن نصارى لبنان فاستجاب لطلبه برتراند، صاحب طرابلس، وجوسلين صاحب تل باشر[2]، كما اجتمع بأمراء النصارى في جبيل وشن الحلفاء غارة مفاجئة على بلاد وقرى الغرب المحيطة ببيروت فنهبوها وأحرقوها، وقتلوا وأسروا كل من وجدوه من أهلها، ثم حاصروا بيروت، ووضعوا أبراجا لينصبوها على أسوارها، لكنهم جوبهوا بمقاومة شديدة من جانب سكانها بقيادة حاكمها عضد الدولة التنوخي[3].

تجاه هذا الوضع العسكري، استنجد بلدوين بالجنوية، فأمدوه بأربعين سفينة مشحونة بالمقاتلين، فتقوى بهم، وضيق الحصار على بيروت، **" فزحف الإفرنج في البر والبحر إليها بأسرهم في يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال، ونصبوا على السور برجين، واشتدوا في القتال فقتل مقدم الأسطول المصري، وخلق كثير من المسلمين، ولم ير الإفرنج مما تقدم وتأخر أشد من حرب هذا "**[4]، واستمر القتال بشكل متواصل ليل نهار، حتى ملك الصليبيون المدينة بالسيف، وفشلت السفن الفاطمية التي قدمت من صور وصيدا في كسر الطوق البحري وحاول عضد الدولة التنوخي الهرب مع جماعة من أعوانه، لكنه وقع في الأسر، وقتله الصليبيون، ونهبت بيروت وسبي من كان فيها، وبلغ عدد القتلى عشرين ألفا[5].

2- سقوط صيدا

حظيت مدينة صيدا باهتمام الولاة الذين تداولوا على حكمها، سواء من الجانب الفاطمي أو السلجوقي، وذلك ببناء تحصينات حولها لحمايتها من أي غزو خارجي ، وهو ما جعلها

[1] الذهبي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن عثمان: دول الإسلام، حققه وعلق عليه، حسن إسماعيل مروة قراءة وقدم له محمود الأرناؤوط، دار صادر (بيروت)، ط1(1999م)، ج2، ص08.
[2] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 146.
[3] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 455.
[4] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 168.
[5] المصدر نفسه، ص 268-269. فوشي الشارتري: ص 145-146، كان شاهد عيان.

تقوى على الصمود في وجه الصليبيين لبعض الوقت.

وجرت عدة محاولات صليبية للاستيلاء عليها، ففي عام (499هـ/1106م)، وصل إلى يافا أسطول ضخم قدره فوشيه الشارتري بخمس وخمسين سفينة، تحمل حجاجا من الإنجليز والفلمنكيين والدانمركيين يتراوح عديدهم بين سبعة آلاف وتسعة آلاف حاج، فاستغلهم بلدوين في مهاجمة صيدا[1]، وما إن وصلت الأخبار إلى أميرها التنوخي مجد الدولة حتى بادر بإرسال مبلغ ضخم من المال مقداره خمسة عشر ألف دينار، وقد لقي ذلك تجاوبا من بلدوين الذي كان في حاجة إلى المال، كما تزامن ذلك مع وفاة هيو صاحب طبرية، فما كان على بلدوين إلا أن يسير إلى طبرية لتقرير أمرها، فرفع الحصار عن صيدا[2].

لكن بلدوين لم يتخل عن فكرة الاستيلاء على صيدا، فهاجمها في عام (501هـ/ 1108م)

وساعده هذه المرة أسطول بحري، يقوده ملاحون مغامرون من مدن إيطالية مختلفة من جنوة والبندقية وبيزة وأمالفي وغيرها وحقق نجاحا أوليا[3]، فأرسل حاكمها إلى طغتكين أتابك دمشق يطلب منه المساعدة، مقابل مبلغ ثلاثين ألف دينار، يمنحها له لقاء ذلك، ولكن لم يلبث أن تغير وجه المعركة، عندما وصلت إلى مياه المدينة خمسون قطعة بحرية فاطمية، فاصطدمت في معركة بحرية، مع السفن الإيطالية وهزمتها[4]، وبذلك فقد بلدوين عنصرا مهما من المساندة، ثم وصلته الأنباء باقتراب العسكر الدمشقي، الذي خرج لنجدة المدينة وتعداده خمسة عشر ألف مقاتل فأدرك عندئذ أن العملية فاشلة، وقرر الانسحاب إلى عكا بمن معه[5].

ولم يكد بلدوين ينسحب من أمام صيدا، حتى رفض حاكمها السماح للجيش الدمشقي بدخولها، والراجح أنه ارتاب بنوايا طغتكين[6]، وخشي أن تكون هناك مؤامرة دبرها ضده الأتابك للاستيلاء على صيدا، كما امتنع عن دفع المبلغ المقرر بينهما، فهدد الجيش الدمشقي عند ذلك، باستدعاء الملك الصليبي لمهاجمة المدينة، ولما انسحب الجيش الصليبي من أمام صيدا قام الدمشقيون

1 فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 147.
2 ستيفن رنسيمان: نفس المصدر السابق، ج2، ص 148-149.
3 محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 456.
4 ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 181.
5 ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 162.
6 طغتكين: هو طغتكين بن أيوب بن شاذي بن مروان، الملك العزيز، سيف الإسلام، ظهير الدين، ابن الأجل نجم الدين والد الملوك، أبي الشكر الأيوبي الكردي...، المقريزي: المقفى الكبير، ج4، ص 14.

بتهديد المدينة بأنفسهم، حتى تم الاتفاق على أن يدفع مجد الدولة مبلغ عشرة آلاف دينار تعويضا لهم على خروجهم لنجدته[1].

وصادف أن وصل إلى عكا، في أوائل عام (503هـ/1110م)، سبعون مركبا يحمل عشرة آلاف مقاتل نرويجي بقيادة سيجورد، أحد ملوك النرويج، وما إن علم بلدوين بوصولهم حتى سارع لاستقبالهم، ويبدو أنه كان في القدس حال وصولهم، ولذلك " **فقد أثلج صدره لمقدم هؤلاء القوم، وتبادل معهم أطراف الحديث بود، يحثهم بل يتوسل إليهم أن يبقوا، محبة بالله في الأراضي المقدسة، لفترة وجيزة ليقدموا العون من أجل نشر وتعظيم اسم المسيحية...واستلموا طلبه بعين الرضى...**" [2]، وكان قد استدعى أيضا برتراند حاكم طرابلس فجاء بقواته وانضم إليهما.

وبدأ الحلفاء في فرض حصار بري وبحري على صيدا في ثالث ربيع الآخر، وقطعوا طرق الإمدادات إليها، ومع ذلك فقد قام أسطول فاطمي أبحر من ثغر صور، بمهاجمة السفن النرويجية وكاد أن يبيدها كلها، لولا أن وصل في الوقت المناسب أسطول بندقي يقوده دوق البندقية أورديلافو فالييري، فاشترك مع الأسطول النرويجي في حصار المدينة، ومهاجمتها من جهة البحر وعجزت السفن الفاطمية أن تمد أهل صيدا بما يحتاجونه من سلاح وعتاد ومقاتلة ومؤن[3].

وفي الوقت الذي كان فيه القتال دائرا، أعد حاكم صيدا خطة لاغتيال بلدوين، غير أن النصارى من أهلها، الذين علموا بهذه المؤامرة، أعلموا بها بلدوين، فقبض على الشخص المكلف باغتياله وأعدمه فورا[4]، وزادت هذه الحادثة من تصميمه على الاستيلاء على المدينة، فأدرك قاضيها وشيوخها استحالة المقاومة، وخشوا مصيرا كمصير بيروت، لذلك خرجوا لمقابلة بلدوين، وطلبوا منه الأمان لأهل المدينة، واستحلفوه على ذلك فأجابهم إلى طلبهم، وأصدر أوامره إلى العساكر بتأمين الناس على نفوسهم وأموالهم، والسماح لمن يريد الخروج منهم إلى دمشق وغيرها، وعدم التعرض لمن يريد البقاء في المدينة[5].

خرج حاكم صيدا وجميع قادة الأجناد والعساكر، وقاضيها، وخلق كثير من الناس من أهلها وتوجهوا إلى دمشق، وبقي الفقراء فيها، فخضعوا لحكم الصليبيين، ودخلوا في تبعية مملكة بيت المقدس الصليبية، ودخل الصليبيون إلى

1 محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 457.
2 فوشي الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 147.
3 ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص 290-291.
4 المصدر نفسه، ص 292.
5 ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص171.

المدينة بعد مقاومة دامت سبعة وأربعين يوما، فرتب بلدوين أوضاعها وعين المحافظين عليها وعاد إلى بيت المقدس[1].

جـ - سقوط صور:

1- المرحلة الأولى

كانت مدينة صور للخلفاء العلويين بمصر، إلى غاية سنة (506هـ/1111م)[2]، وكان الوالي عليها من جهة الأفضل أمير الجيوش وزير الآمر بأحكام الله العلوي، يلقب عز الملك، وقد تعرضت للمضايقة من الفرنج ونهبوا بلدها عدة مرات، وفي سنة (506هـ/1111م) تجهز ملك الفرنج وجمع عساكره ليسير إلى صور، فخافهم أهل صور وأرسلوا إلى الأتابك طغتكين صاحب دمشق يطلبون منه أن يرسل إليهم أميرا، من عنده يتولاهم ويحميهم وتكون البلد له فسير إليهم عسكرا، وجعل عندهم واليا اسمه مسعود، تميز وكان شهما شجاعا عارفا بالحرب ومكايدها، وأمده بعسكر، وسير إليهم ميرة ومالا، وهو ما أطاب نفوس أهل البلد، ولم تغير الخطبة للآمر صاحب مصر ولا السكة[3].

وكتب إلى الأفضل بمصر يعرفه صورة الحال ويقول له متى وصل إليها من مصر من يتولاها ويذب عنها سلمتها إليه، ويطلب أن الأسطول لا ينقطع عنها بالرجال والقوة، فشكره الأفضل على ذلك وأثنى عليه وصوب رأيه فيما فعله، وجهز أسطولا وسيره إلى صور فاستقامت أحوال أهلها ولم يزل كذلك إلى سنة (516هـ/1123م) بعد قتل الأفضل، فسير إليها أسطولا على جاري العادة، وأمر المقدم على الأسطول أن يعمل الحيلة على الأمير مسعود الوالي بصور من قبل طغتكين ويقبض عليه ويتسلم البلد منه[4].

وقيل أنه قرر القبض عليه، لأن أهل صور أكثروا الشكوى منه، إلى الآمر بأحكام الله

صاحب مصر بما يعتمده من مخالفته والإضرار بهم[5]، فسار الأسطول ولما أرسى عند صور خرج إليه مسعود للسلام عليه، فقبضوا عليه ونزلوا البلد واستولوا، عليه وعاد الأسطول إلى مصر وفيه الأمير مسعود فأكرم وأحسن

---

[1] المصدر نفسه، ص 173-174.

[2] سيد علي الحريري: الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ط3(1406هـ/1985م)، الزهراء للإعلام العربي (القاهرة) ص 67.

[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص227-228.

[4] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 179.

[5] الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: تاريخ الإسلام، ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عبد السلام تدمري دار الكتاب العربي، ط1(1407هـ/1987م)، ج35، ص 303.

إليه وأعيد إلى دمشق[1]، ثم قام الوالي المصري بمراسلة طغتكين، وشرح له دوافع القبض على مسعود، وطيب خاطره فرضي.

2- المرحلة الثانية

وما إن علم الفرنج بانصراف مسعود عن صور، حتى قوي طمعهم فيها ولذلك شرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها وحصرها، وما إن علم أهلها بنوايا الصليبيين حتى كتبوا إلى طغتكين يسألونه أن يسلمونها إليه قبل مجيء الفرنج[2]، لأنهم يئسوا من نصرة مصر فاستجاب لطلبهم، وبعث إليهم بالفرسان والرجالة[3].

ثم سار إليهم بلدوين في الخامس والعشرين من (جمادى الأولى 505هـ/نوفمبر1112م) ونازلها أياما، إلا أنه كان يعود خاسرا دوما، ثم خرج طغتكين وخندق ببانياس[4]، وجهز جيشا لنجدة صور، إلا أنهم عجزوا في الدخول إليها من الفرنج، **" ثم رحلت الفرنج عنها ونزلوا على الحبيس وهو حصن عظيم، وحاصروه حتى فتحوه عنوة، وقتلوا كل من كان فيه ثم عاد بغدوين إلى صور وشرع في عمل الأبراج، وأخذ في قتالها والزحف في كل يوم، ولما بلغ ذلك طغتكين زحف عليهم ليشغلهم، فخندق عليهم، وهجم الشتاء فلم يبال الفرنج به لأنهم كانوا في أرض رملة، والميرة تصل إليهم من صيدا في المراكب "**[5].

ثم خرج طغتكين في البحر باتجاه صيدا، وقتل جماعة من الفرنج وغرق مراكبهم، ولما علم به أهل صور، تقوت نفوسهم، ثم عمل الفرنج برجين عظيمين، طول الكبير منهما زيادة على خمسين ذراعا، وطول الصغير زيادة على أربعين ذراعا، وزحفوا بهما أول شهر رمضان، وخرج أهل صور بالنفط والقطران ورموا النار، فهبت الريح واحترق البرج الصغير بعد معركة كبيرة ثم انتقلت النار في البرج الكبير أيضا فأطفأها الفرنج[6].

ولما أدرك الفرنج صعوبة الوصول إلى المدينة، لوجود الخندق حائلا بينهم وبينها، قاموا بردمه واستمروا في الإغارة على المدينة طوال شهر رمضان، حتى أشرف أهلها على الهلاك، عندها فتحيل واحد من المسلمين له خبرة بالحرب، فعمل كباشا من أخشاب تدفع البرج الذي يلصقونه بالسور، ثم تحيل

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ص228.
[2] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 208.
[3] سيد علي الحريري: نفس المصدر السابق، ص 68.
[4] بانياس: هي مدينة عبرانية يونانية رومية، وبها أنهار سائحة قريبة المنبع، وبساتين كثيرة...، بينها وبين جبلة جزيرة صغيرة عند نهر غزير، يسمى النهر الأبتر...، شيخ الربوة: نفس المصدر السابق، ص 277.
[5] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 274.
[6] محمود سعيد عمران: نفس المرجع السابق، ص 54.

في حريق البرج الكبير حتى أحرقه، وخرج المسلمون فغنموا منه آلات وسلاحا، فحينئذ يئس الفرنج من أخذها، ورحلوا عنها بعدما أحرقوا جميع ما كان لهم من المراكب على الساحل والأخشاب والعمائر والعلوفات وغيرها[1].

وظل أهل صور على حالتهم هذه مع الفرنج، مرة بالقتال وأخرى بالمهادنة، كل ذلك والنجدة المصرية لم تصل بعد، ولما يئسوا من وصولها، قرروا تسليميها للفرنج بالأمان في سنة (518هـ/1125م).

أما ابن القلانسي فيقول بأن صور سقطت بأيدي الصليبيين، سنة (519هـ/1126م) ويقول بأن سبب سقوطها هو زيادة النكاية في المسلمين من صاحب مصر[2]، **"فإن سيف الدولة المذكور كان قائما بمصالح المسلمين، وفعل ما فعل مع الفرنج من قتالهم وحفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة، فأخذوه منها غصبا وخلوا البلد مع من لا قبل له بمحاربة الفرنج "**[3].

ويقول بأن عمل المصريين هذا هو بمثابة نجدة للفرنج، والحق أنه أصاب فيما قاله، فمن المفروض على الفاطميين بما أنهم قد عجزوا عن حماية صور، أن يتركوها بيد مسعود، فقد تكلف بحمايتها، وكان قد أرسل إليهم يطلب منه المقدم إليها لحمايتها، أو تركها بيده ليتولى حمايتها بنفسه، ولكن تأبى نفوسهم إلا أن تغدر بأهل الحق لا لشيء، إلا لغيرة في نفوسهم من أهل السنة الذي كانوا يرونهم أعداءهم، وهاهو المقريزي نفسه، يقر بغرور الفاطميين ولو أنه ذكر بالعين الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله، عندما قصر في حق صور بقوله: " **وأعظم ذنوبه عندي ما جرى منه في حق صور، وإخراجها من يد الإسلام إلى الكفر..."**[4].

ثالثا- موقف الفاطميين من العدوان الصليبي

تهميد

في الوقت الذي كان ينتظر من الفاطميين أن يكونوا حامي حمى الإسلام والمسلمين إلى جانب إخوانهم السلاجقة والعباسيين السنيين، عندما زحف الصليبيون بجموعهم الهمجية على البلاد الإسلامية، إلا أنهم أبانوا منذ البداية عن سوء نواياهم، عندما رفضوا تقديمهم المساعدات المادية، ولا حتى المعنوية، وسبب ذلك على ما يبدو هو اختلافهم مع هؤلاء في المذهب، وكما أشرنا إليه

1 ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 181.
2 المصدر نفسه، ص 181.
3 ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 212.
4 تقي الدين المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 217.

في بداية بحثنا هذا، فقد عمل الفاطميون منذ بداية دولتهم، على إعلاء مذهبهم والقضاء على المذهب السني، ولو اقتضى ذلك التحالف مع ألد أعدائهم.

وإذا كان للفاطميين، دور في مجيء الصليبيين كما أشار إليه بعض المؤرخين، فإن ما فعلوه عند استيلاء الصليبيين على الأراضي التابعة للسلاجقة، كان خير دليل على تقاعسهم في نصرة المسلمين، على أنهم لم يكونوا كذلك عندما شعروا بدنو الصليبيين من ممتلكاتهم، والوقائع التي سنوردها هي ردود الفعل التي صدرت عن الفاطميين، تجاه الصليبيين عشية دخولهم أرض الإسلام.

أ- سياسيا

في الوقت الذي وصلت فيه طلائع الحملة الصليبية الأولى إلى بلاد الشام، كان الفاطميون منهمكين بسوء أوضاعهم الداخلية السياسية والاقتصادية، وتحكمت فيهم روح العداء للسلاجقة في بلاد الشام، لذلك لم يتحمسوا آنذاك لفكرة الجهاد ضد الصليبيين، وربما رأى بعض أركان الدولة في هؤلاء درعا يحميهم من خطر السلاجقة[1]، غير أن استفاقة الفاطميين على هذا الخطر الداهم، جاءت متأخرة، واتصفت عملياتهم العسكرية بسوء النظام والإهمال وعدم تقدير خطورة الموقف.

والواقع أن القيمين على الدولة الفاطمية، شأنهم في ذلك شأن عامة المسلمين، لم يدركوا لأول وهلة، طبيعة الحركة الصليبية، وحقيقة نوايا الصليبيين، مما جعلهم يتخبطون في سياساتهم تجاههم، وكانوا يأملون في استغلال هذه القوة لتقوية موقفهم تجاه السلاجقة[2].

1- التحالف مع الصليبيين ضد السلاجقة

كان الأفضل بن بدر الجمالي صاحب السلطة الفعلية في مصر، وعندما سمع بأن الصليبيين الذين وصلوا بلاد الشام، واشتبكوا مع الأتراك السلاجقة، أعداء الدولة الفاطمية، فكر في عقد تحالف معهم ضد هؤلاء، فأرسل سفارة اجتمعت بزعمائهم أمام أنطاكية في شهر (صفر491هـ/جانفي1098م) وعرضت عليهم مشروع التحالف الذي تضمن البنود التالية:

1. ينفرد الصليبيون بحكم أنطاكية وشمال بلاد الشام.
2. تحتفظ مصر ببيت المقدس وجنوب بلاد الشام.

---
[1] أيمن فؤاد سيد: نفس المرجع السابق، ص 159.
[2] ابن ظافر الأزدي: نفس المصدر السابق، ج1، ص230.

3. يسمح للصليبيين بزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين، وتكون لهم الحرية الكاملة في أداء شعائرهم الدينية، على ألا تزيد مدة إقامتهم فيها عن شهر واحد، وألا يدخلوها بسيوفهم.
4. يتعاون الطرفان في القضاء على السلاجقة[1].

ويبدو أن الأفضل قد عمد إلى هذه الفعلة، لاعتقاده بأن الصليبيين لن يتجاوزوا حدود الدولة البيزنطية، التي وصلتها أيام صحوتها في القرن العاشر الميلادي، وهي مدينة أنطاكية خصوصا وأن كلا من الإمبراطور نقفور فوقاس ويوحنا زمسكيس، قد سعيا لتحقيق ذلك كم من مرة، فخيل إليه (الأفضل) أن الصليبيين لم يأتوا إلا لتلك الغاية[2].

والواقع أن هذه السفارة، لم تؤد إلى النتائج التي خطط لها الأفضل، غير أنها أدت إلى نتيجة في صالح الصليبيين، وهي وقوفهم على مدى الخلاف السائد بين الفاطميين والسلاجقة في بلاد الشام، ولذلك قرروا الزحف إلى بيت المقدس، بعد أن تمكنوا من السيطرة على أنطاكية[3].

ويبدو أن موقف الفاطميين السلبي، من الحملة الصليبية الأولى عند وصولها إلى شمال الشام أثار استياء المسلمين ونقمتهم، حتى أن بعض المؤرخين، وجهوا لهم أصابع الاتهام بأنهم هم من راسل الصليبيين للمجيء، وذلك للقضاء على خصومهم السلاجقة، وعبر ابن الأثير عن ذلك بقوله: **" وقيل إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلائها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول الأقسيس (أتسز حاكم بيت المقدس) إلى مصر وحصرها، خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوه، ويكونوا بينهم وبين المسلمين"**[4].

ويعجب المؤرخ أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي من امتناع الأفضل عن النهوض لمساعدة المسلمين أمام أنطاكية وهو قادر على ذلك **" ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر، وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال..."**، ثم يشرح كيف خرجت عساكر المسلمين في

[1] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 428.
[2] مسفر بن عريج الغامدي: نفس المرجع السابق، ص 120.
[3] الذهبي شمس الدين: العبر في خبر من غبر، حققه وضبطه على مخطوطتين: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية (بيروت)، سنة الطبع غير موجودة، ج2، ص 74.
[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج8، ص416.

العراق وبلاد الشام لصد زحف الصليبيين **" كل ذلك وعساكر مصر لم تهيأ للخروج "**[1].

ونحن بدورنا إذا أردنا أن نعرف سبب تقاعس الأفضل عن نصرة المسلمين، فيمكننا أن نجزم بأن الأفضل كان مغتبطا، وهو يرى سلطان السلاجقة يتقلص بل وينهار، في آسيا الصغرى وشمال بلاد الشام، بعد سقوط نيقية، وخسارة كربوغا أمام أنطاكية، دون أن يتمكن رضوان بن تاج الدولة تتش، صاحب حلب، أو أخوه دقاق صاحب دمشق، أو حتى السلطان السلجوقي بركياروق، أن يوقف زحفهم[2].

ومن ناحية أخرى، فإن هناك ما يشير إلى أن الإمبراطور البيزنطي أليكسوس كومينين نصح الصليبيين عند مرورهم بالقسطنطينية، في طريقهم إلى الشرق، بأن يجتهدوا في محالفة الفاطميين في مصر، لأنهم سيكونون لهم سندا، ضد السلاجقة في بلاد الشام وشمال العراق[3].

ويبدو أنهم استجابوا لتلك النصيحة، فأرسلوا سفارة إلى القاهرة صحبت السفارة الفاطمية لدى عودتها، غير أنه لم يلبث أن اتضح أنه لم يكن لدى أعضائها السلطة للتفاوض، بل عقدوا العزم على أن يسيروا إلى بيت المقدس ويستولوا عليه، إنما أكدت هذه السفارة حرص الصليبيين مع الفاطميين للقضاء على العدو المشترك[4].

بالإضافة إلى مشروع التحالف الذي عرضه الأفضل على الصليبيين، فقد استغل فرصة انهماك السلاجقة بالتصدي للزحف الصليبي في شمال بلاد الشام، فنهض لاستعادة نفوذ الفاطميين في جنوب بلاد الشام، ظنا منه أنه بات من اليسير تحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة.

2- انتقام الفاطميين من السلاجقة

قلنا بأن الفاطميين لم يكتفوا بتحالفهم مع الصليبيين، ووقوفهم على ذهاب ممتلكات إخوانهم السلاجقة موقف المتفرج، ليذهبوا إلى أبعد من ذلك، وهو الانتقام من السلاجقة الذين استولوا على بعض أراضيهم من قبل، ومنها بيت المقدس، ومدينة صور، غير أن ذلك كله ليس بحجة يركبها القيمون على السلطة في مصر، ويعاودون الاستيلاء عليها بدعوى أنها من ممتلكاتهم، لأنه

---

[1] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 147-148.
[2] ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القدر عطا، راجعه وصححه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية (بيروت)، سنة الطبع غير موجودة، ج17، ص 43.
[3] محمد سهيل طقوش: نفس المصدر السابق، ص429.
[4] المرجع نفسه.

إذا نظرنا بعين الإنصاف والحكمة، فإنه كان على الفاطميين أن يساندوا السلاجقة في جهادهم، بدل الوقوف موقف المتفرج وكأن الأمر لا يعنيهم.

ثم لو اعتبرنا أن الفاطميين لم يرقهم استيلاء السلاجقة على بعض ممتلكاتهم غصبا، وبالتالي استغلال أية فرصة تتاح لهم لاسترجاعها، ولكن شريطة أن لا يتخلوا عن مساندة السلاجقة لكنا قد صوبنا رأيهم في ذلك، ولكن على العكس تماما فما كان الفاطميون ليفكروا بهذه الطريقة، لماذا ؟ ببساطة لأنهم شيعة، والسلاجقة سنة وهو ما يعني أنهم أعداؤهم حسب نظرهم وهو ما خول لهم التحالف مع النصارى ضد السلاجقة، وكنا قد أشرنا في بداية البحث إلى أن الفاطميين سيستخدمون كل ما يخدم عقيدتهم، للقضاء على السنة، ولو اقتضى الأمر التحالف ليس مع النصارى فقط، بل وحتى مع اليهود.

2.أ- الاستيلاء على صور وبيت المقدس

لما بلغ الوهن بالعساكر السلجوقية، وهي في مواجهة الصليبيين، قرر الفاطميون استرجاع كل المدن التي ضاعت منهم من قبل، ومن هذه المدن نذكر مدينة صور:

2.أ.1- الاستيلاء على مدينة صور:

تجدر الإشارة إلى أن مدينة صور، كانت إلى غاية سنة (490هـ/1097م) تابعة للفاطميين غير أن حاكمها المدعو كتيلة، لما علم بزحف الفرنج على شمال بلاد الشام، أظهر عصيانه وقرر الخروج عن طاعة المستعلي الفاطمي، ولذلك فما إن أدرك الأفضل بأنه بإمكانه استعادتها، حتى جهز لها جيشا كثيفا شهر(ربيع الأول491هـ/فيفري1098م)، وحاصرها حتى ضيق عليها **" ثم افتتحها عنوة بالسيف، وقتل بها خلق كثير، ونهب منها المال الجزيل، وأخذ الوالي أسيرا بغير أمان، وحمل إلى مصر فقتل بها "**[1].

ولكن ما لا نعلمه هو هل تمرد كتيلة على الخليفة الفاطمي، هو بغرض الانضمام إلى السلاجقة؟ وفي هذه الحالة يكون الفاطميون قد وقفوا نفس موقفهم من بيت المقدس، أما إن كان تمرده بغرض الاستقلال بهذا الثغر، فهنا يمكننا أن نقبل عذر الفاطميين في عدم السماح له بالانفصال في مثل هذا الوقت بالضبط، لكن ذلك لا يعني أن يستبيحوا المدينة.

2.أ.2- الاستيلاء على بيت المقدس

أما بالنسبة لبيت المقدس، فالظاهر أن الفاطميين لم يهاجموه قبل بداية العدوان الصليبي وذلك لتخوفهم من قوة السلاجقة، غير أنه ومع بداية العدوان

---

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 08.

الصليبي وتأكد الجانب الفاطمي من إمكانية السيطرة عليه، بعد أن انشغل السلاجقة بدفع الصليبيين عن أراضيهم[1]، حتى خرج الأفضل من مصر على رأس جيش كثيف، ومجهز بأحدث آلات الحصار من بينها أربعين منجنيقا[2] ونزل على بيت المقدس، في شهر (رمضان491هـ/أوت1091م) والصليبيون ما يزالون في أنطاكية، وحاصره وفيه الأميران سقمان وإيلغازي، ابنا أرتق بن أكسك[3].

ثم راسلهما يطلب منهما تسليم بيت المقدس إليه دون قتال، فامتنعا في بداية الأمر عن إجابة طلبه وتحصنا وراء أسوار المدينة، بعد أن علما أن دقاقا ليس بمقدوره مساعدتهما، وربما كان في اعتقادهما أنه بإمكانهم الصمود وراء تحصينات بيت المقدس، فإن الأراتقة ظلوا يقاومون الحصار مدة أربعين يوما ولم يرغمهم على الاستسلام إلا ما حدث من تدمير الأسوار، ودخل الأفضل إلى بيت المقدس واستولى عليه، فأحسن معاملة الأخوين، وسمح لهما بالذهاب إلى دمشق مع رجالهما، وعندئذ استعاد الفاطميون سيادتهم على بيت المقدس[4].

وفي اعتقادنا أن الأفضل سمح لهما بالخروج دون أن يمسهم يسوء، لعلمه بأن ذلك ليس في صالحه، فهو ربما لم يكن يريد أن تضاف إلى سجلاته وصمة عار أخرى بعد التي فعلها، من خلال عزوفه عن مساندة السلاجقة في جهادهم ضد الصليبيين، إضافة إلى استيلائه على كل من صور وبيت المقدس.

عاد الأفضل إلى القاهرة، بعد أن ترك الأمير افتخار الدولة، نائبا له على حكم بيت المقدس، ولم تكد تنتهي سنة (491هـ/1098م) إلا وكانت حدود الدولة الفاطمية قد امتدت إلى نهر الكلب شمالا ومجرى نهر الأردن شرقا[5].

والواقع أنه تحقق ظن الوزير الفاطمي، فالسلاجقة كانوا منهمكين بالغزو الصليبي لصد الهجوم الفاطمي، كما أن تهديده لفلسطين وبيت المقدس، خدم القضية الصليبية، لأنه سبب ارتباكا للسلاجقة في أشد الأوقات حرجا، ولذلك فإنهم تجرعوا هم أيضا بعد فترة قصيرة من سقوط شمال الشام، من مرارة العدوان الصليبي.

فبعد أن توغل الصليبيون باتجاه الجنوب صوب فلسطين، وسيطروا على المدن الساحلية أدرك الفاطميون حقيقة الأمر، وعرفوا أن هدف الصليبيين لم

---

1 ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 38.
2 عبد الرحمن بن خلدون: نفس المصدر السابق، ج4، ص 86.
3 عارف باشا العارف: تاريخ القدس، دار المعارف، ط2، الدولة وسنة الطبع غير موجودتين، ص66-67.
4 مجير الدين الحنبلي العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس (عمان)، (1420هـ/1999م)، ج1، ص306.
5 ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج09، ص 11.

يكن شمال الشام فقط، وإنما بيت المقدس وما وراءه، وغدا الطرفان الفاطمي والصليبي وجها لوجه، فأضحى الصدام حتميا بينهما، عندها أرسل الأفضل رسالة إلى الإمبراطور البيزنطي أليكسوس كومينين يسأله عما إذا كان هؤلاء يعملون لحسابه، فأنكر الإمبراطور علاقته بهم[1]، فأرسل عندئذ سفارة فاطمية قابلت قادتهم قرب طرابلس، أثناء حصارهم لعرقة، تحمل الهدايا النفيسة والأموال الضخمة، وعرضا بالسماح لحجاج الصليبيين بالحج وزيارة كنيسة القيامة في بيت المقدس على شكل مجموعات من مائتي وثلاث مائة حاج بشرط ألا يكونوا مسلحين كما طالبهم بالتوقف عن الزحف جنوبا وأن موافقتهم على تلك الشروط تعني أن يصبح الفاطميون سندا لهم، وأنه في حال الرفض سوف تواجههم جيوش المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها[2].

رفض الصليبيون الاقتراح، وردوا على السفارة الفاطمية بأنهم سيحجون كجيش واحد وليس كجماعات بإذن الله وليس بإذن الخليفة الفاطمي، وأقسموا على انتزاع الضريح المقدس من أيدي الفاطميين، وهددوا السفارة الفاطمية بغزو مصر، وكان معنى ذلك بداية الصدام المسلح بين الطرفين، وشكل الاستيلاء على بيت المقدس الشرارة التي أشعلت نار الحرب بينهما[3]

ب- عسكريا

لما أدرك الفاطميون أن الصليبيين ما جاؤوا لأجل شمال الشام وفقط، وإنما السيطرة على بلاد الشام كاملة، ومن ثم بيت المقدس، وهو هدفهم الأسمى، وعرفوا أن السياسة التي اتبعوها معهم غير قادرة تحقيق المبتغى، قرروا استعمال وسيلة أخرى تكون أجدى بطرد الصليبيين، أو على الأقل إبعادهم عن ممتلكاتهم بالشام، ولم يكن أمامهم حل سوى استعمال القوة العسكرية.

تجدر الإشارة إلى أن ردة فعل الفاطميين العسكرية تجاه الصليبيين، جاءت على مرحلتين كانت الأولى منها بتدبير الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، واتسمت بنوع من الجدية، أما الثانية فقد كانت بعد مقتل الأفضل، واتسمت بالتهاون بل والإهمال.

1- في عهد الوزير الأفضل بن بدر الجمالي

جهز الأفضل سنة(498هـ-1105م) في إطار رده على سقوط مدينة طرابلس، حملة عسكرية كبيرة، وجعل عليها ابنه سناء الملك حسين، مع عسكر كثيف يزيد عدده عن خمسة آلاف فارس وراجل، واستنفر معه العرب بجنوب

[1] ستيفن رنسيمان: نفس المرجع السابق، ج1، ص 406.
[2] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج1، ص394.
[3] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 431.

فلسطين، ولما وصل سناء الملك حسين ابن الأفضل إلى عسقلان، انضم إليه نائبها جمال الملك رضوان، حسب تعليمات الأفضل، ولم يكتف الأفضل بهذا بل طلب النجدة من ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق، لما وصلت إلى مسامعه أن الحصار المضروب على المدينة شديد، وليس بمقدوره فكه لوحده، فلبى طغتكين النداء وأرسل إلى الفاطميين أحد رجاله ومعه ألف وثلاثمائة فارس[1].

ونحن إذا تمعنا في ردة فعل طغتكين، لما طلب منه الأفضل المساعدة، يتبين لنا الفرق بين الطرفين، الفرق بين الأفضل الذي وقف موقف المتفرج، بل المتواطئ عندما كان السلاجقة في قلب المعركة، وبين طغتكين الذي لم يتوان في تقديم المساعدة للفاطميين، مع أنه هو في أمس الحاجة إليها.

على أية حال فإن بلدوين الأول[2] ملك بيت المقدس، حين علم باجتماع المسلمين في عسقلان، سار إلى الرملة ليستطيع حماية يافا وبيت المقدس، فالتقى بالمسلمين بين يافا وعسقلان فاستظهر الصليبيون المسلمين، وقتلوا والي عسقلان، وأسروا بعض المقدمين، وانهزم عسكر مصر إلى عسقلان وعسكر دمشق إلى بصرى[3].

ثم إن أهالي طرابلس استغلوا فرصة غياب حاكمهم فخر الملك في بغداد، ليسلموا المدينة للأفضل، بعد أن تأكدوا بأنه ما من جهة تستطيع حمايتهم في هذه الفترة العصيبة، سوى الدولة الفاطمية، فطلبوا من الأفضل أن يرسل إليهم واليا يتولاهم ومعه الميرة، فاستجاب الأفضل لطلبهم، وعين شرف الدولة بن أبي الطيب حاكما عليها في أواخر عام (501هـ/1108م)[4] وبذلك خرجت طرابلس من قبضة بني عمار، وعادت إلى الفاطميين مرة أخرى.

غير أن الفاطميين كانوا أضعف من أن يستطيعوا الدفاع عنها، ولذلك فإنه وما إن عاودها الصليبيون بالحصار،شهر (ذي القعدة 502هـ/جوان1109م)[5]، حتى عجز الفاطميون عن إيصال المساعدة المطلوبة لنجدتها في الوقت المناسب، والراجح أن إجراءات إرسال المؤن والعساكر والذخائر، كانت بطيئة، وربما كان للخلاف الذي نشب بين قادة الأسطول الفاطمي، الراسي في موانئ الدلتا، سبب في تأخره عن الإقلاع، وعندما أقلع صادفته رياح مضادة عرقلت سيره فوصل بعد فوات الأوان، بعد أن دك الصليبيون أسوار المدينة من البر،

---

[1] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 348.، ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج09، ص 85.
[2] بلدوين: هو بلدوين أو بغدوين كما تذكره بعض المصادر، ملك بيت المقدس بعد قتل أخيه كندفري على عكا سنة (494هـ/1100م)، قدمها في خمس مائة فارس وراجل...، المقريزي: المقفى الكبير، ج2، ص 440.
[3] ابن ميسر: أخبار مصر، ج2، ص41.
[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج09، ص 120-121.
[5] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 145.

وقطعوا خطوط مواصلاتها البحرية، مما اضطر الحامية إلى الاستسلام، وسلمت المدينة للصليبيين الذين دخلوها في (11ذي الحجة/12جويلية)، وسمح للقائد الفاطمي بالخروج سالما مع جماعة من رجاله، وأضحى برتراند أميرا على طرابلس، فأكد تبعيته لمملكة بيت المقدس[1].

وحدد أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي ثلاث أسباب لسقوط طرابلس هي:

1- تقاعس الفاطميين عن المسير إليها تلك المدة الطويلة.

2- ضعف العسكر الذي أرسلوه مع أسطول مصر، ولو كان لعسكر الأسطول قوة، لدفع الفرنج من البحر عن البلد حسب الحال.

3- عدم خروج الأفضل بنفسه على رأس العساكر المصرية، رغم قوته العسكرية[2].

وعن اهتمام الفاطميين لأمر بيروت عندما سقطت في أيدي الصليبيين، فإنه جاء واضحا منذ بداية الأمر، من خلال استماتة الحامية الفاطمية يوم الجمعة (21شوال 503هـ/13 أفريل1110م) عندما هاجمها بلدوين بقواته المتحالفة مع القوات الجنوية، فاشتد القتال بين الطرفين واستبسلت الحامية، حتى قتل قائد الأسطول الفاطمي، وخلق كثير من المسلمين[3]، ولم ير الإفرنج من ما تقدم وتأخر حربا أشد من هذه، إلى درجة أن القتال استمر بشكل متواصل ليل نهار حتى ملك الصليبيون المدينة بالسيف، وفشلت السفن الفاطمية التي قدمت من صور وصيدا في اختراق الطوق البحري الذي وضعه الصليبيون حول المدينة، وحاول عضد الدولة التنوخي الهرب مع جماعة من أعوانه، لكنه وقع في الأسر، وقتله الصليبيون، ونهبت بيروت، وسبي من كان فيها، وبلغ عدد القتلى عشرين ألفا[4].

ثم خرجت من مصر، نجدة فاطمية أخرى لمساعدة بيروت، قوامها ثلاث مائة فارس لكنها وقعت في كمين نصبه الصليبيون عند نهر الأردن، ولم تفلح هذه المساعدات ولا الحامية الفاطمية في صد الصليبين عن هذه المدينة، فوقعت أخير في أيديهم، وبذلك ضاعت مدينة أخرى من أهم المدن الإسلامية من قبضة الفاطميين[5].

---

[1] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج1، ص 532-533.

[2] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 179-180.

[3] ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 87.

[4] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 268-269. فوشيه الشارتري: ص 145-146، كان شاهد عيان.

[5] المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص171.

وعن ردة فعل الفاطميين من سقوط مدينة صور، فيمكننا القول بأن الأفضل قد أقدم على خطوة تحسب له في بداية الأمر، أي قبل سقوط المدينة بيد الصليبيين، وإن لم تكن هذه الردة بإرسال الجيوش إلا أنها كانت في صالح المدينة، وكان ذلك بسماحه لعز الدين أنوشتكين، وهو النائب عنها يومئذ، بأن يسلمها إلى ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق سنة(506هـ/ 1112م)، حتى يتولى حمايتها والذب عنها[1].

وسبب إقدام الأفضل على هذه العملية، هو الأزمة الاقتصادية التي كانت مصر تعاني منها في هذه الفترة، نتيجة تفشي الوباء بها تلك السنة والسنة التي قبلها، وهو ما عرقل الأفضل عن إرسال المؤن والذخائر[2]، ويبدو أن الأفضل رأى أن بقاء صور بيد المسلمين سواء الفاطميون أو
غيرهم خير من سقوطها بيد الصليبيين.

وبهذه الطريقة نجح الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، في قطع الأمل على الصليبيين في الاستيلاء على صور، بعد تسليمها إلى ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق[3]، الذي وافق من جانبه على بقاء الدعوة فيها للفاطميين، ويبدو أن ظهير الدين طغتكين قد أبقى الدعوة بصور للفاطميين، بقصد الحصول من مصر على ما يحتاجه من المؤن والذخائر، التي كانت تصل إلى مدن الساحل الشامي.

وفيما يخص مدينة صيدا، فقد اهتم الفاطميون والسلاجقة، الذين تناوبوا على حكمها بتحصينها، حيث قام الوالي الفاطمي سعد الدولة الأفضلي بعمارة برج فيها في عام (491هـ/ 1098م)، كما حصنها أميرها مجد الدولة التنوخي في عام (494هـ/1101م)، مما جعلها تقوى على الصمود في وجه الصليبيين لبعض الوقت.

ولما قرر بلدوين السيطرة عليها، وجد الفاطميين أمامه، حيث أرسل الأفضل إلى المدينة خمسون قطعة بحرية، فاصطدمت في معركة بحرية، مع السفن الإيطالية المتحالفة مع بلدوين وهزمتها، وفقد بلدوين بذلك عنصرا مهما من المساندة، يضاف إلى ذلك، أن الأنباء أتته باقتراب العسكر الدمشقي الذي خرج لنجدة المدينة وتعداده خمسة عشر ألف مقاتل، فأدرك عندئذ أن العملية فاشلة، وآثر الانسحاب ومن معه إلى عكا[4].

---

1 ابن أيبك الدواداري: نفس المصدر السابق، ج06، ص 476.
2 ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 171.
3 محمود السيد: نفس المرجع السابق، ص111.
4 ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 269.

ولما أدركوا أنهم لا طاقة لهم بمواجهة القوات الفاطمية والدمشقية، التي كانت في طريقها إليهم قرروا محاصرتها برا وبحرا، في ثالث ربيع الآخر، لقطع الإمدادات عنها، ومع ذلك قام أسطول فاطمي أبحر من ثغر صور بمهاجمة السفن النرويجية، وكاد أن يبيدها كلها، لولا أن وصل في الوقت المناسب أسطول بندقي يقوده دوق البندقية أورديلافو فاليري، فاشترك مع الأسطول النرويجي في حصار المدينة، ومهاجمتها من جهة البحر، وعجزت السفن الفاطمية أن تمد أهل صيدا بما يحتاجونه من سلاح وعتاد ومقاتلة ومؤن[1].

كان هذا آخر ما قام به الأفضل بن بدر الجمالي، في سبيل وقف الزحف الصليبي على بلاد الشام، ذلك أن العلاقات بينه وبين الخليفة الآمر الفاطمي قد توترت، وتعرض الأفضل لبعض الفتن الداخلية، تلك الفتن التي صرفته عن الاهتمام بأمر الصليبيين في بلاد الشام[2].

2- بعد مقتل الوزير الأفضل بن بدر الجمالي

ولما كان الأفضل بن بدر الجمالي قد لجأ إلى محاولة التحالف مع حكام دمشق السنيين لوقف زحف الصليبيين، فقد أغضب ذلك الخليفة الآمر بالله وغلاة الشيعة بمصر، مما أدى إلى قيامهم بتدبير قتله بيد بعض الباطنية الذين كانوا " **يكرهونه لأسباب تضييقه على إمامهم... وترك معارضة أهل السنة في اعتقادهم والنهى عن معارضتهم، وإذنه للناس في إظهار معتقداتهم والمناظرة عليها** "[3].

وقد كان مقتل الأفضل بن بدر الجمالي سنة(515هـ/1122م)، بداية لتخلص الخليفة الآمر من القيود التي كانت مفروضة عليه، وبدأ في تحقيق طموحه لا من أجل جهاد الصليبيين وإنما من أجل الحد من نفوذ الوزراء العظام، فاختار في وزارته بعد مقتل الأفضل، أبو عبد الله البطائحي[4] واستبد الخليفة الآمر بالأمور عنه[5] .

أما الخطوات التالية التي اتخذها الخليفة الآمر ووزيره البطائحي، فهي العمل على التخلص من سيف الدولة مسعود الوالي بمدينة صور، من قبل ظهير الدين طغتكين، ففي سنة (516هـ/1122م) وردت إلى مصر شكايات من أهل صور، ضد واليهم سيف الدولة مسعود فما كان من الخليفة الآمر ووزيره البطائحي إلا

[1] المصدر نفسه.
[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 590.
[3] ابن الصيرفي: الإشارة إلى من نال الوزارة، ص 61.
[4] أبو عبد الله البطائحي: هو السيد الأجل المأمون، تاج الخلافة عز الإسلام، فخر الأنام نظام الدين خالصة أمير المؤمنين، أبو عبد الله محمد بن الأجل نور الدولة أبي شجاع الآمري، تولى الوزارة بعد موت الأفضل، وخلع عليه في الثامن من ذي الحجة، من سنة خمس عشرة وخمس مائة. ابن الصيرفي: نفس المصدر السابق، ص 50.
[5] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ج2، ص73.

أن سيرا أسطولا بقيادة وحشي بن طلائع ومعه التعليمات بإلقاء القبض على الوالي بصور، وإرساله إلى مصر، ففعل ذلك[1].

وعلى ما يبدو فقد وصلت إلى آذان الخليفة الآمر، أنباء الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في بلاد الشام، فما كان منه إلا أن أمر بتجهيز حملة عسكرية في السنة التالية(517هـ/ 1123م) إلى عسقلان لحصار الصليبيين في يافا في الوقت الذي سيرا فيه الأسطول بالبحر، ولكن هذه الحملة لم تستطع النيل من الصليبيين[2].

ثم إن الصليبيين لما علموا بخروج سيف الدولة مسعود، من صور إلى مصر واعتقاله هناك تحرك فيهم طمع الاستيلاء عليها وحدثوا أنفسهم بتملكها " **وشرعوا في الجمع والتأهب للنزول عليها وحصرها**"[3]، في سنة(518هـ/1124م)، فلما أحس واليها أنه لا قبل له بمواجهة الخطر الصليبي، أرسل إلى الخليفة الفاطمي، يشير عليه بأن ترد ولاية صور إلى ظهير الدين طغتكين " **فاقتضى الرأي أن ترد إلى ظهير الدين طغتكين ليتولى حمايتها والذب عنها** "[4] ورضي ظهير الدين طغتكين أن ترد ولاية صور إليه، لكنه عهدها إلى قوم ليست لهم كفاية ففسد أمرها، وضايقها الصليبيون، عندها طلب طغتكين من الفاطميين المساعدة فأبوا ذلك[5] وربما كانوا منشغلين بالدفاع عن ثغر الإسكندرية الذي تعرض لحملة بحرية قام بها البنادقة بالإضافة إلى عدم مبالاة الخليفة الآمر بجهاد الصليبيين في بلاد الشام[6].

وعلى أية حال فقد أدى عدم إرسال الفاطميين نجدة للوالي بصور إلى مراسلته لظهير الدين طغتكين، يعرض عليه تسليم صور إلى الصليبيين بالأمان، فاستقر الرأي على ذلك، وأرسل ظهير الدين طغتكين إلى الصليبيين بشأن تسليم صور إليهم، وإعطاء الأمان لمن بها من المسلمين فوافق الصليبيون على ذلك، وفتحت صور أبوابها للصليبيين في اليوم الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة (518هـ/1124م) وانتهى الأمر إلى خروج أهلها وتفرقهم في البلاد[7].

ومن هنا يمكننا القول بأن سقوط صور بيد الصليبيين، كان بسبب إهمال الخليفة الفاطمي الآمر، لأمر الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين بالشام، بالإضافة

---

1 ابن أيبك: نفس المصدر السابق، ج6، ص 49.
2 مسفر بن سليمان بن عريج الغامدي: نفس المرجع السابق، ص 131.
3 ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 227.
4 ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة، ص 87.
5 ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 211.
6 الغامدي، نفس المرجع السابق، ص 132.
7 ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 209.

إلى الانقسام الداخلي في صفوف الفاطميين ففي بداية سنة (519هـ/1125م) قبض الخليفة الآمر على وزيره المأمون البطائحي وقتله[1]، وسبب ذلك على ما يبدو هو الانتفاضة التي قام بها بعض المصريين، متهمين الآمر بالتهاون في أمر الجهاد، فوقع ظنه أن الوزير هو من دبر أمر هذه الانتفاضة وقتله.

كانت هذه المساعدات العسكرية التي قدمتها الدولة الفاطمية، لبعض مدن الشام، وكما تبين لنا فالدولة الفاطمية، لم تقدم المساعدات العسكرية لأي مدينة لم تكن تابعة لها كما هو الحال بالنسبة للسلاجقة، الذين لم يتوانوا لحظة في تقديم المساعدات سواء للمدن التابعة لهم أو حتى التابعة للفاطميين، وفي مقابل ذلك فقد كان الفاطميون يجتهدون في اختلاق الدسائس لكسب بعض المدن كما حدث مع مدينة صور، آخرة مرة.

ولما لم تكن للمساعدات العسكرية أهداف ملموسة، فإن القيمين على الدولة الفاطمية وعلى رأسهم راحوا يستعملون كل الطرق لوقف الزحف الصليبي، ومن هذه الطرق تقديم المساعدات الاقتصادية لأهالي المدن حتى يتقووا بها ويتقوا شر الحصار، فكيف كان ذلك ؟ **جـ - اقتصاديا**

وحتى المساعدات الاقتصادية التي كان الأفضل حريص إلى أن يوصلها لأهل الشام، فقد كانت على مرحلتين، حيث كانت الأولى منها ترفق مع المساعدات العسكرية، عندما كانت الدولة الفاطمية تتمتع بنوع من الرخاء، بالمقارنة مع بلاد الشام التي كانت تعاني من ويلات الحروب والحصار الصليبيين، أما الثانية فقد اضطر إليها الوزير الأفضل، بعد أن عجز عن تقديم المساعدات العسكرية لأهالي الشام.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه المساعدات، وإن كانت على مرحلتين عندما كان الأفضل متحكما بزمام السلطة في مصر، فإنها كادت أن تكون منعدمة بعد مقتل الأفضل، لما عرف عن
الآمر وتقاعسه عن الجهاد كما أشرنا إليه قبل قليل.

ومن المساعدات الاقتصادية التي قدمها الأفضل في هذه المرحلة، نذكر أنه عندما أرسل حملة بحرية بقيادة القاضي بن قادوس[2]، باتجاه بلاد الشام لكنها لم تأت بطائل، غير أن الأسطول الفاطمي كان يحمل معه الكثير من الغلات والمؤن التي أدت إلى رخص الأسعار، وانتعاش

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 234.
[2] القاضي ابن قادوس: هو أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن قادوس الدمياطي، كان كاتب الإنشاء بالديار المصرية وهو شيخ القاضي الفاضل، وكان الفاضل يسميه ذا البلاغتين. أنظر ابن كثير: البداية والنهاية، ج12، ص 235.

السكان بيافا وغيرها من مدن الساحل للصمود في وجه الصليبيين[1].
ولما حاصر الصليبيون بيروت سنة(503هـ/1109م)، قام الأفضل بإرسال أسطول بحري يتألف من تسع عشر سفينة، ومعه الميرة والذخائر والمؤن، واصطدم بالأسطول الصليبي المحاصر للمدينة، وتغلب عليه، وأسر بعض قطعه، وتمكن من دخول الميناء، حيث وزعت تلك المؤن على السكان وهو ما أعطى السكان الأمل في الصمود والدفاع عن مدينتهم[2].
كما أن الأفضل بن بدر الجمالي، لم ينزعج لأمر تسليم مدينة صور إلى ظهير الدين طغتكين صاحب دمشق سنة (506هـ/1112م)، نظرا لما كانت تمر به مصر من شدة اقتصادية نتيجة تفشي الوباء بها تلك السنة والسنة التي قبلها، ويكون قد رأى أن بقاءها بيد المسلمين سواء الفاطميون أو غيرهم خير من سقوطها بيد الصليبيين، ثم إن الأفضل جهز في سنة (507هـ/ 1113م) أسطولا إلى صور محملا بالمؤن والميرة والعتاد فرخصت بها الأسعار وتحسنت أحوال سكانها، **"وزال طمع الإفرنج عنها "**[3].
والواقع أن انتهاج الأفضل لسياسة الدعم الاقتصادي، لأصحاب البلاد الأصليين بغية تقويتهم للدفاع عن بلادهم، جاء بعد أن ضاعت منه كبريات المدن الشامية، فوقف بعدها موقف المدافع عما تبقى بيد ولاة الفاطميين بالشام، لكنه في المقابل شجع السكان كثيرا على مواصلة القتال والوقوف بصلابة في وجه الصليبيين.
غير أن هذه السياسة فشلت أيضا في وقف الزحف الصليبي، لعدم وجود تنسيق بين المدافعين أنفسهم، وتأخر الأسطول المصري في الوصول إلى بلاد الشام في بعض الأحيان نظرا لبعد المسافة بين مصر وبلاد الشام، مما أدى إلى انهيار قوة المدافعين، كما حصل لأهل طرابلس سنة (503هـ/1109م)، وهي المدينة التي سقطت بيد الصليبيين بعد صمودها للحصار أكثر من سبع سنين[4].
إذا كانت هذه هي المساعدات الاقتصادية التي بادر بها الأفضل، لأهالي الشام، وإن كانت مساعدات محتشمة، فإن من جاؤوا بعده لم يبادروا بمثلها ولا أقل منها، بل إنهم بادروا إلى الخيانة مرة أخرى، ولعل التباطؤ الذي أبداه الخليفة الآمر، عندما طلب منه تقديم المساعدات والمؤن لأهل صور عندما كانوا محاصرين من طرف الصليبيين، خير دليل على ما نقول، حيث يقول في هذا الشأن ابن الأثير: **"وتواترت المكاتبات إلى مصر باستدعاء المؤن،**

---

[1] مسفر بن عريج الغامدي: نفس المرجع السابق، ص 125.
[2] ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص132.
[3] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 171.
[4] ابن القلانسي: نفس المصدر ، ص 165.

فتمادت الأيام إلى أن أشرف أهلها على الهلاك ولم يكن للأتابك طغتكين قدرة على دفع الفرنج، ويئس من مصر فراسل أهلها الفرنج وطلبوا الأمان على نفوسهم وأهاليهم وأموالهم، ومن أراد الخروج خرج ومن أراد الإقامة أقام"[1].

وختاما لهذا الفصل يمكننا أن القول بأن الفاطميين، كان لهم دور كبير في الحروب الصليبية منذ بدايتها، إذا أخذنا بعين الاعتبار الكلام الذي قيل في شأنهم، بأنهم هم وراء مجيء الصليبيين إلى بلاد الشام، عندما أشار إلى ذلك بعض المؤرخين، وقالوا بأن الفاطميين حز في نفوسهم أن يروا القوة السلجوقية تتعاظم وتسيطر على بلاد الشام، فاختلقوا لها هذه الدسيسة للقضاء عليها، وإذا كانت هذه التهمة محل شكوك واختلاف بين المؤرخين، فإن دورها السلبي الذي لعبته عند بداية الحرب، لا يختلف فيه اثنان، فكل المصادر تشير إلى خيانتهم للسلاجقة، وتحالفوا مع الصليبيين.

وإذا كان في هذا التصرف محامل كثيرة، قد حملت على الجانب الفاطمي، إلا أن ما قام به القيمون عليها فيما بعد، شفع لهم على الأقل عند عامتهم، وبقدر يسير عند بعض السنة، بعد أن نشطوا حركة الجهاد على الساحل الشامي، عندما كانت مدنهم تتعرض للحصار أو الغزو الصليبي، وليتهم فعلوا ذلك منذ البداية، أو أنهم أعانوا السلاجقة في التصدي للعدوان الصليبي على مدنهم، لكنهم بادروا إلى أخس من ذلك وأدنى، عندما استولوا على بيت المقدس من أيدي السلاجقة، وفعلوا الأمر ذاته مع مدينة صور.

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص228.

الفصل الثالث

العدوان الصليبي على فلسطين

وموقف الفاطميين منه

أولا- احتلال بيت المقدس
ثانيا- التوسع الصليبي في إقليم الجليل ومدن الساحل الفلسطيني
ثالثا- رد فعل الفاطميين من هذا العدوان

أولا- احتلال بيت المقدس

تمهيد

تحدثنا سابقا عن العدوان الصليبي على ساحل الشام، في حين تركنا فلسطين إلى هذا الفصل، وارتأينا أن نفردها في فصل لوحدها لما تقتضيه طبيعة الموضوع، وقبل الولوج في تفاصيل حوادثها، وجب علينا أن نقدم تعريفا موجزا لها حتى نعرف حدودها وأهم مدنها التي تعرضت للغزو الصليبي.

كانت فلسطين جزءا من سوريا، لا يفصلها عنها حد طبيعي ولا يبعدها عامل جنسي أو تاريخي[1]، وتمتد من ، إلى بئر السبع جنوب فلسطين، أما حدها الغرب، فهو البحر المتوسط وأحيانا يمتد حتى الصحراء والخط الحجازي، وذلك حسب تقلبات الظروف السياسية[2].

أ- الطريق إلى بيت المقدس

بعد أن تمكن الصليبيون من احتلال أنطاكية، قرر قادتهم مواصلة السير باتجاه بيت المقدس فزحفوا بجيوشهم إلى معرة النعمان بقيادة ريموند الصنجيلي، وقاومتهم المدينة زهاء أسبوعين قبل أن تسقط، وتعرض سكانها لأبشع المذابح[3]، ثم زحف ريموند بعد ذلك إلى كفرطاب ودخلها، ووافاه فيها روبرت النورماندي وتانكرد، وبوصول الصليبيين إلى تلك المنطقة، بدأت الاتصالات بينهم وبين بعض الأسر العربية في كل من حمص وطرابلس وشيزر، التي قررت الانفصال عن الدولة السلجوقية بعد أن وهنت قوتها، ويبدو أنهم تخلوا عن فكرة المقاومة لإدراكهم بخطورة الموقف، خصوصا وأنه لا توجد قوة إسلامية كبيرة تحميهم من هذا الخطر وآثروا إتباع سياسة مرنة تهدف إلى الاتفاق مع الصليبيين، وقبول عروضهم التي تقدموا بها[4].

وفي شيزر قرر الصليبيون النزول عند رأي تانكرد، الذي يقضي باتخاذ الطريق الداخلي لبيت المقدس، بدلا من الطريق الساحلي، الذي أصر عليه ريموند، فقد كان يرى بأنه يبقيهم على اتصال مع أنطاكية، والحصول على الإمدادات عن طريق البحر.

وهكذا مرت الحملة بقلعة مصياف[5]، فخرج إليهم أميرها، وعقد معهم اتفاقية، ثم اتجهوا نحو بارين[1]، ثم رفنية[2] فالبقيعة، واستولوا على حصن الأكراد

---

[1] محمد الصالح البرغوثي وخليل طوطح: تاريخ فلسطين، ص ص 09-10-11.
[2] المرجع نفسه، ص 09.
[3] محمد سليم الجندي: تاريخ معرة النعمان، حققه وعلق عليه، ووضع فهارسه: عمر رضا كحالة، وزارة الثقافة السورية (دمشق) 1994، ج1، ص 143. بطرس توديبو: نفس المصدر السابق، ص 260-263. مؤرخ مجهول: نفس المصدر السابق، ص ص 97-98-99-100.
[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 16. مؤرخ مجهول: نفس المصدر السابق، ص 111-112.
[5] قلعة مصياف: حصن مشهور بالساحل الشامي قرب طرابلس، أنظر ياقوت الحموي، نفس المصدر السابق، ج5، ص 144.

في شهر (صفر492هـ/ جانفي1099م)، وهناك استقبل الصليبيون رسل جناح الدولة أمير حمص محملين بالهدايا ومعلنين ولاء الأمير العربي، حتى لا يتعرضون لإمارته[3].

وبعد أن غادر الصليبيون حصن الأكراد اتجهوا نحو عرقة، الواقعة شمال طرابلس، والتابعة لبني عمار، أسرع صاحبها أبو على فخر الملك بإرسال الرسل إلى ريموند، لعقد اتفاقية معه تعهد فيها الأمير العربي بـ:

- دفع الأموال للصليبيين.
- رفع أعلامهم على سور مدينته وغيرها من الأماكن التابعة له، إشارة إلى ولائه لهم.
- إطلاق سراح ثلاثمائة من أسرى النصارى الذين كانوا في سجون طرابلس دليلا على حسن النية[4].

وأرسل ريموند قوة عسكرية صليبية، للسيطرة على أنطرطوس التابعة لإمارة طرابلس وذلك حتى يسهل عليه الاتصال بالبحر، وتوطيد العلاقات مع اللاذقية، غير أنه لم يتمكن من دخول عرقة، التي صمدت للحصار الذي استمر أربعة أشهر، فتركها الصليبيون في (19جمادى الآخرة 492هـ/13 ماي1099م)، ليواصلوا زحفهم على بيت المقدس[5]، وغادروا طرابلس يوم الاثنين (22جمادى الآخرة/16ماي)، فاجتازوا جبيل بأمان ولم يتعرض لهم أحد، ووصلوا في (25جمادى الآخرة/19ماي) إلى الحدود الفاطمية، عند نهر الكلب.

ولما اقتربوا من بيروت، بادر سكانها ببذل الهدايا والعطاءات، خشية من أن يتعرضوا للدمار كما سمحوا لهم باجتياز بلادهم، شرط ألا يضروا بالأشجار المثمرة والكروم، وكل المحاصيل الزراعية، وقبل الأمراء الصليبيون هذه الشروط[6]، ثم انطلقوا إلى صيدا فوصلوا إليها في (26جمادى الآخرة/20ماي)، وأقاموا معسكرهم شمال المدينة، فتعرضوا لمقاومة رجال الحامية، إلا أنهم ردوا الهجوم، ثم قاموا بنهب الحدائق في أرباض صيدا، ليتحركوا بعدها بسرعة إلى ضواحي صور، ومكثوا فيها يومين بانتظار وصول جماعة من فرسان أنطاكية والرها، ولم يتصد لهم أحد وتحصنت حامية المدينة وراء الأسوار، ثم قصدوا عكا التي وصلوها في أول رجب فصالحهم أميرها، وقدم لهم هو الآخر

---

1 بارين: مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب، المصدر نفسه، ج1، ص 320-321.
2 رفنية: هي بلدة عند طرابلس من سواحل الشام، وهي كورة من أعمال حمص، نفسه، ج3، ص55.
3 فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص67-68. مجهول: نفس المصدر السابق، ص 113.
4 ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج1، ص 397-398.
5 مجهول: نفس المصدر السابق، ص113.
6 بطرس توديبو: نفس المصدر السابق، ص 294.

المؤن والهدايا، كما تعهد لهم بالدخول في طاعتهم إذا استولوا على بيت المقدس[1].

ثم واصلوا تقدمهم فمروا بقيسارية، وبأرسوف بعدها، ومنها قرروا أن يزحفوا مباشرة باتجاه بيت المقدس، متجنبين مدينة يافا، وذلك اختصارا للطريق والوقت، ومع ذلك فإنهم كانوا حريصين على أن يبقى الطريق بينهم وبين البحر مفتوحا، فاحتلوا الرملة بعد أن أخلاها المسلمون، وتركوا فيها حامية صغيرة[2]، وعقدوا فيها مجلسا للحرب بين(11-14 رجب/03-06جوان) لمناقشة مسائل عدة، منها مهاجمة مصر قبل بيت المقدس، فليس من العقل مهاجمة بيت المقدس في الصيف، ثم إن مصر هي عدوهم الحقيقي الذي يمتلك مفاتيح بيت المقدس، كما أن السيطرة عليها، يضمن لهم فيما بعد حياة آمنة ومستقرة في بيت المقدس بعد الاستيلاء عليه، غير أن هذا الرأي لقي الرفض من معظم القادة، وتقرر الزحف مباشرة على بيت المقدس[3].

ب- سقوط بيت المقدس

وصل الصليبيون إلى بيت المقدس يوم الثلاثاء في (14رجب492هـ/07جوان1099م) وحاصروها في اليوم التالي، وكان قد بلغ عددهم نحو أربعين ألفا، وقد انتشر الصليبيون حول القدس، على امتداد بعض أسوارها، وليس كلها، وذلك بسبب نقص في عديد قواتهم وتمركزوا على الشكل التالي:

- شمالا تجاه باب الساهرة (أو باب هيرودوس): قوات روبرت، كونت النورماندي.
- شمالا بغرب، تجاه باب العمود (أو باب أسطفان أو باب دمشق): قوات روبرت كونت فلاندر.
- شمالا بغرب (عند الزاوية الشمالية الغربية للمدينة): قوات جودفري دي بوايون دوق اللورين.
- غربا، وإلى جانب قوات جودفري: قوات تانكرد (بالقرب من البرج الذي سمي فيما بعد باسمه).
- جنوبا، على جبل صهيون: ريموند دي صنجيل، كونت تولوز[4].

وبقي الجانب الشرقي والجنوبي الشرقي للمدينة بلا حصار، وذلك بسبب استحالة الهجوم من ذلك الجانب لوجوده في مواجهة وادي قدرون (وادي ستي

---

[1] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج1، ص 398-399.
[2] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 69-70.
[3] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 434.
[4] ياسين سويد: حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، دار الملتقى، بيروت(1997م)، ص 55.

مريم)، وكانت قوات ريموند دي صنجيل متمركزة، في الأيام الثلاثة الأولى من الحصار، بدءا من البرج الذي تمركز عنده تانكرد (وسمي فيما بعد باسمه) حتى الباب الغربي للمدينة، إلا أن ريموند اكتشف أن موقعه غير ملائم لمهاجمة المدينة[1]، وأن البرج يتحكم بمعسكره، كما أن الوادي الذي يقع بين معسكره والمدينة يعيق تحركاته، فقرر أن ينقل قسما من قواته لكي تتمركز على الهضبة المبنية عليها مدينة القدس، بين المدينة وكنيسة صهيون تاركا قسما من قواته في موقعها الأصلي[2].

ويبدو أن قيام ريموند بهذه التحركات، بعد أن أدرك أن كونت تولوز يريد أن يحصل رجاله
على طريق أسهل إلى المدينة لغرض الهجوم، كما أنه كان يرغب في حماية كنيسة صهيون والحيلولة دون تعرضها للأذى[3].

والواقع أن هؤلاء المحاصرين واجهتهم في بداية الأمر، عدة مشكلات حالت بينهم وبين الاستيلاء على المدينة فورا لعل منها:

- مقاومة الحامية الفاطمية، فقد توفر لافتخار الدولة، المؤن والماء والأسلحة، وهو ما سهل له التفوق مبدئيا على الصليبيين، على أمل أن يصمد أكثر في وجه الحصار إن وصلته النجدة التي طلبها من القاهرة.
- توفر الماء داخل المدينة وانعدامه خارجها، وكان ذلك بفضل التدبير الذكي الذي اتخذه افتخار الدولة، حيث جعل الصليبيين يقطعون مسافة ستة أميال أو أكثر للحصول على الماء، مما يعرضهم لهجمات المسلمين، كما أخذت مؤنهم في النفاذ.
- الحرارة المرتفعة، وقسوتها عليهم.
- تجدد النزاع بينهم حول مصير بيت المقدس، وملكية بعض المراكز الهامة الأخرى مثل بيت لحم.
- انتشرت إشاعة بينهم أن جيشا فاطميا كبيرا قد خرج من القاهرة وهو في طريقه لإنقاذ المدينة[4].

ولما تبين لهم أنهم لن يستطيعوا الصمود لحصار طويل، فإنهم قرروا بداية الهجوم على المدينة والاستيلاء عليها، وفعلا شنوا هجوما

[1] بطرس توديبو: نفس المصدر السابق، ص 296.
[2] هانس إبرهارد ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق: عماد الدين غانم، بدون طبعة، ص 118.
[3] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج 2، ص95-96.
[4] ستيفن رنسيمان: نفس المرجع السابق، ج1، ص 418.

في(20رجب/12جوان)، على أسوار المدينة، ونجحوا في التغلب على الأسوار الشمالية الخارجية، غير أن انعدام السلالم، حال بينهم وبين تسلق الأسوار[1].

وبعد أن أدركوا أن محاولتهم ليست مجدية، فإنهم قرروا الانسحاب[2]، وعدم القيام بهجوم آخر ما لم يتوفر لهم المنجنيقات والسلالم، لكنهم افتقروا إلى المواد الأولية التي يصنعون منها الآلات، ثم ما لبثوا أن حصلوا على مساعدة بحرية، إذ في (25رجب/17جوان) رست في مرفأ يافا الفاطمي المهجور سفينتان جنويتان، محملتان بالزاد والعتاد والحبال والمسامير والأخشاب وغيرها، مما يتطلبه العمل لصناعة أدوات الحصار، وكانتا بقيادة أمير البحر الجنوي، وليام أمبرياكو وشقيقه بريموس[3]، فأفرغ الصليبيون حمولتهما إلى البر، وسط مناوشات مع قوة فاطمية قدمت من عسقلان، ونقلوها إلى المعسكر الصليبي عند بيت المقدس، لبناء الأبراج والسلالم اللازمة لتسلق الأسوار، وشرع ريموند الصنجيلي وجودفري في تشييد أبراج من الخشب تسير على عجلات، وبعد الانتهاء من العمل نصبوا الأبراج وأسندوها إلى أسوار المدينة[4].

وفي الوقت الذي كان فيه الصليبيون يحاصرون بيت المقدس، بلغهم خبر خروج الأفضل من مصر على رأس جيش فاطمي كبير لنجدة المدينة، وإذ أدركوا أنه ليس ثمة ما يدعو بعدئذ إلى التمهل والإرجاء، جدوا في حصار المدينة وواصلوا الحرب، إلى أن تمكنوا من اقتحامها يوم الجمعة في(23شعبان492هـ/15جويلية1099م)، بعد حصار دام نيفا وأربعين يوما، " **ولبث الإفرنج يقتلون في المسلمين بالقدس الشريف أسبوعا قتل في المسجد الأقصى ما يزيد عن السبعين ألفا منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وساداتهم وعبادهم وزهادهم ممن جاور في هذا الموضع الشريف..**"[5] ، هذا ولم يستثن هؤلاء الغوغاء لا النساء ولا الأطفال، وكانت بحق مذبحة مروعة خاض الصليبيون فيها حتى أكعابهم، في دماء القتلى[6].

وعندما التجأ المسلمون إلى المسجد الأقصى، تبعوهم دون أن يراعوا حرمته وأجهزوا على كل من احتمى به، حتى لقد فاض المسجد كله بدمائهم[7]، وكان المسلمون يذبحون في الشوارع وفي البيوت بوحشية بالغة، ولم يجدوا في المدينة مكانا آمنا يعتصمون فيه، فألقى بعضهم بأنفسهم من فوق الأسوار،

---

[1] ياسين سويد: نفس المرجع السابق، ص 55.
[2] مؤرخ مجهول: نفس المصدر السابق، ص 115.
[3] هانس إبرهارد ماير: نفس المرجع السابق، ص 121.
[4] ستيفن رنسيمان: نفس المرجع السابق، ج1، ص 419.
[5] مجير الدين الحنبلي العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس (عمان) (1420هـ/1999م)، ج1، ص 307.
[6] سيد علي الحريري: نفس المصدر السابق، ص 47.
[7] بطرس توديبو: نفس المصدر السابق، ص 317-318.

وازدحم آخرون في القصور والأبراج، وفي المساجد، ولم يكن يسمع في تلك الساعة غير أنين الجرحى وحشرجات الموتى، كما وطئ الفرسان أكداس الجثث وهم يطاردون أولئك الذين حاولوا الهرب، وحتى اليهود كانوا قد لاقوا نفس المصير عندما فروا

للاحتماء في معبدهم الكبير[1]، وجمعت جثث القتلى، وطرحت خارج أبواب المدينة، فتعالت أكوامهم **"حتى حاذت البيوت ارتفاعا، وما تأتى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة "**[2].

وفي رواية ذكرها محمود سعيد عمران، أن النساء كن يقتلن طعنا بالسيوف والحراب والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من الأسوار، أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعصي[3]، واحتمى افتخار الدولة مع طائفة من الجند بمحراب داوود، حيث اعتصموا به، وقاتلوا ثلاثة أيام، ولكنهم لم يلبثوا أن ألقوا السلاح بعد أن بذل لهم الصليبيون الأمان، ثم أطلقوا سراحهم، وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمي بيت المقدس التي نجت من وحشية الصليبيين[4]، ومع ذلك فإن إطلاق سراح حاكم بيت المقدس لم يكف لمحو أثر الجريمة البشعة التي اقترفوها، وقتلهم آلاف الأبرياء من المسلمين بغير ذنب[5]، حتى أن بعض مؤرخيهم المعاصرين وصف هذه الجريمة بلطخة الخزي والعار في تاريخهم، لشناعتها وفظاعتها[6].

ونتيجة لسقوط بيت المقدس، أصيب الأفضل بخيبة أمل كبيرة بعد أن كان في وقت قريب يعتقد بأن الصليبيين سيقنعون بالاستيلاء على شمال بلاد الشام فقط، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفائهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاجقة، ولذلك فلم يسعه عندما وصل إلى عسقلان، سوى أن يرسل إليهم ليوبخهم على ما فعلوه[7].

والحقيقة أن الناظر إلى هول هذه الجريمة في حق البشرية، يقف مشدوها أمام فظاعتها، لأنه لم يسبق للمسلمين أن شهدوا حربا مثل تلك الحرب، ولا مجزرة كتلك المجزرة، وإذا أردنا أن نعدد الأطراف المتسببة كنا سنضع

---

[1] أمين معلوف: الحروب الصليبية كما رآها العرب، ترجمة: عفيف دمشقية، دار الفرابي (بيروت)، ط2(1998م) ص13.
[2] المؤرخ المجهول: نفس المصدر السابق، ص 118-119.
[3] محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 33.
[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص
[5] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 438.
[6] جوناثان ريلي سميث: الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بدون طبعة، ص 218.
[7] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ج2، ص39.

الفاطميين والسلاجقة على رأس القائمة، فالفاطميون كانوا السباقين إلى الخيانة ومعاداة السلاجقة والانتقام منهم، واستهانتهم بأعدائهم الحقيقيين (الصليبيين)، أما السلاجقة فإنهم ملومون على عدم مساعدة الفاطميين مهما كانت الظروف لأن المعتدى عليه هو بيت المقدس، وليست الدولة الفاطمية ككل، وكان في مقدورهم لو قدموا المساعدة أن يقوا المسلمين شر هذه الجريمة.

لكننا إذا أردنا أن نعرف من هو الأكثر ملامة من هذين الطرفين، فإننا نقولها وبصريح العبارة، هو الجانب الفاطمي لأنه المتسبب الأول والوحيد في هذه المجازر، ولو كان تصرف منذ البداية بحكمة لما حدث ما حدث.

1- تأسيس مملكة بيت المقدس

بعد أن تمكن الصليبيون من السيطرة على بيت المقدس، بدأوا يفكرون في كيفية تنظيم المدينة وانتخاب حاكم عليها، **" وكانت مهمته الأولى تتمثل في تنظيم الدفاع عن المستعمرة الجديدة ضد الهجوم المصري المضاد..."**[1] ولذلك قرروا الاجتماع(25شعبان/17جويلية) من أجل هذه القضية لتدارس كيفية التنظيم ، غير أن هؤلاء المجتمعين تنازعهم تياران، أحدهم كنسي ديني والآخر علماني، وكان لابد من حسم الأمور بسرعة فيمن يتولى حكم المدينة.

وكانت النية متجهة نحو تنصيب بطريرك[2] لاتيني رئيسا لها وأن يعهد إليه بولايتها، غير أن الأمور لم تسر كذلك، وتغلب الفرع العلماني على الفرع الكنسي، وذلك لطبيعة الظروف التي أحاطت بهم، فقيام حكومة لاتينية، أمر يحتاج إلى قيادة عسكرية علمانية للدفاع عن هذه الدولة ضد المسلمين المحيطين بها، ورأى مجلس الأمراء الذي كان يدير الحملة الصليبية، أن اختيار زعيم عسكري أمر لابد منه[3].

وانحصر التنافس أخيرا بين ريموند الصنجيلي وجودفري دي بوايون، وكان الأول هو الأوفر حظا، بالنظر إلى قوة شخصيته وحنكته السياسية وبعد نظره، لكن الأمراء لم يميلوا إليه لتخوفهم منه، ثم إن ريموند كان مفرطا في التودد إلى الإمبراطور البيزنطي أليكسوس كومينين وكان يؤيد فكرة التحالف مع الدولة البيزنطية، وهو ما أثار استياء كثير من الصليبيين، ومع ذلك، فإنه لما عرض عليه التاج رفضه، فقد أدرك أن العرض ما لم يحظ بتأييد الأغلبية من

[1] جوناثان ريلي سميث: نفس المرجع السابق، ص 113.
[2] البطريك: هو رئيس الملة عند النصارى وخليفة المسيح فيهم، يبعث نوابه وخلفاءه إلى ما بعد عنه من أمم النصرانية، ويسمونه الأسقف أي نائب البطريك...، أنظر: مقدمة بن خلدون، ص 266.
[3] جوناثان ريلي سميث: نفس المرجع السابق، ص 113.

فإن حكمه لن يكون مستقرا، يضاف إلى ذلك أن عساكره كانوا قد أعلنوا معارضتهم لقبوله العرش، فأعلن عندئذ أنه لا يجب أن يكون ملكا[1].

ويبدو أن الناخبين ارتاحوا لهذا الرفض، فعرضوا التاج على جودفري، فقبله بعد تردد، غير أنه طلب إعفاءه من أن يتخذ لقب ملك، وأراد أن يعرف باسم حامي القبر المقدس[2].

توفي جودفري دي بوايون حاكم بيت المقدس، يوم الأربعاء (9رمضان493هـ/ 18جويلية1100م) على إثر مرض حل به[3]، وبقيت إمارة بيت المقدس بلا أمير يحكمها، وهو ما جعل الخلاف يظهر مرة أخرى بين القادة الصليبيين، حيث تنافسوا على حكم بيت المقدس، وعزم بلدوين حاكم الرها، وأخو جودفري دي بوايون، على الاستئثار بحكمها بوصفه الوريث الشرعي لأخيه فسار إلى أنطاكية ومنها اللاذقية، ووصل إلى طرابلس على رأس قوة عسكرية مؤلفة من مائة وستين فارسا وخمسمائة من الرجالة[4]، ورحب به فخر الملك بن عمار، وقدم إليه ما كان بحاجة ماسة إليه من ميرة ومؤن، ثم تابع سيره بطريق الساحل حتى وصل إلى نهر الكلب، وهناك اصطدم بقوات سلجوقية مشتركة، بقيادة دقاق صاحب دمشق وجناح الدولة صاحب حمص وكاد أن ينهزم[5]، غير أنه تمالك نفسه واستطاع أن يعيد تنظيم صفوف قواته وكر على القوات السلجوقية وهزمها، وتابع طريقه بعد ذلك، فاجتاز صيدا وصور إلى أن وصل إلى بيت المقدس ودخل إليها في (05محرم494هـ/10نوفمبر1100م)، وتوج ملكا على المدينة في اليوم التالي وأعلن القادة الصليبيون ولاءهم له، وبذلك تحولت إمارة بيت المقدس إلى مملكة صليبية لاتينية[6].

---

1 ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص 146-147.
2 فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص77.
3 هانس إبرهارد ماير: نفس المرجع السابق، ص131.
4 فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 103. ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 224، يذكر أن القوة التي جاء بها بلدوين بلغت خمس مائة فارس وراجل.
5 شمس الدين الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج2، ص 366.
6 فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 103-104.

ثانيا- التوسع الصليبي في إقليم الجليل ومدن الساحل الفلسطيني

كان الأفضل بن بدر الجمالي قد خرج على رأس جيش كبير من مصر، إلى فلسطين لدحر الصليبيين، إلا أنه انهزم في عسقلان كما سنذكره لا حقا، واستغل الصليبيون فرصة انتصارهم هذا ليحاصروا مدينة عسقلان، وضيقوا عليها حتى طلبت حاميتها الفاطمية الأمان مقابل تسليم المدينة، فقبل منه الصليبيون ذلك[1].

ثم أن أهل المدينة وقع إلى أسماعهم أن الذي سمح للحامية الفاطمية بالخروج، هو القائد الصليبي ريموند الرابع أثناء عملية الغزو، كما أنه يكون قد ترامى إليهم أيضا، أن هناك خلافا بين جودفري وريموند على زعامة الصليبيين، هو الذي جعل ريموند يعطي ذلك الأمان نكاية في جودفري، ولإثبات وجوده داخل الجيش الصليبي، ومن ثم فقد رأى أهل عسقلان أنهم لو طلبوا الأمان من ريموند الرابع فإن هذا سيكون أوقع على جودفري[2]، حيث سيتحمس ريموند لمعارضة جودفري، ولكسب تأييد أهل عسقلان، فهو رجل يبحث عن إمارة له، وقد تكون عسقلان هي إمارته.

وبالفعل حدث ما كان أهل عسقلان يريدونه، فلقد تحمس ريموند لقضية أهل عسقلان وتناقش فورا مع جودفري لفك الحصار عن عسقلان، لكن جودفري أيقن أن ريموند لا يريد رفع الحصار عطفا على أهل عسقلان، إنما أراد ذلك لتكون عسقلان إمارة له، وهذا ما لا يخدم أهداف جودفري، لأنه يريد لميناء عسقلان أن يكون تابعا لبيت المقدس، حتى يكون له مخرج كبير على البحر الأبيض المتوسط، يستوعب الإمدادات البشرية والعسكرية والغذائية القادمة لمدينة القدس الداخلية، كما يريد موانئ تجارية تنعش اقتصاديات بيت المقدس، لذلك رفض جودفري صراحة أن يعطي عسقلان لريموند، وهو ما أغضب ريموند، فانسحب بجنوده من الحصار[3]، مفضلا أن تبقى عسقلان في يد المسلمين على أن يأخذها جودفري بوايون، مما اضطر جودفري في الأخير إلى رفع الحصار عن المدينة نهائيا[4].

---

1 ابن القلانسي نفس المصدر السابق، ص137.
2 راغب السرجاني: نفس المرجع السابق، ص115.
3 هانس إبرهارد ماير: نفس المرجع السابق، ص 126.
4 تقي الدين المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، ج2، ص 160.

ثم إن ريموند بعد انسحابه من عسقلان، أسرع إلى مدينة أرسوف ليقوم معها بنفس المهمة على أمل تكوين إمارة له هناك، فأسرع خلفه جودفري، وكرر معه نفس الحوار، لأن جودفري كان يريد لأرسوف أن تكون تابعة له أيضا، واشتد غضب ريموند نتيجة لهذا التصرف لكنه كان عاجزا عن فعل أي شيء مثله مثل بقية الأمراء، ولذلك فقد قرر الجميع أن يتركوا الساحة خالية لجودفري، حيث رحل ريموند إلى الشمال لتأسيس إمارة له هناك، بينما عاد كل من روبرت النورماندي، وروبرت دي فلاندر إلى فرنسا، ولم يبق مع جودفري من زعماء الحملة الصليبية إلا تانكرد النورماندي[1].

و إلى هنا أصبحت الساحة خالية لجودفري للبدء في مشروعه التوسعي، باحتلال المدن الفلسطينية المجاورة، بحجة تأمين المدينة المقدسة، وحماية الطرق المؤدية إليها، وتزامن ذلك مع وضع مفكك للمسلمين، الذين كانوا يفتقرون إلى زعامة مخلصة تجمع شملهم، ويفتقرون أيضا إلى روح جهادية، كما أن مذابح القدس أذهلتهم، فراحوا يبحثون عن أي سبيل يجنبهم الموت مما سهل للصليبيين مواصلة الزحف على بقية مدن فلسطين، فكيف حدث ذلك ؟

أـ احتلال إقليم الجليل

إقليم الجليل هو من الأقاليم الواسعة في فلسطين، يقع إلى الشمال من بيت المقدس، ويمتد إلى قرب حمص[2]، تحده من الغرب المدن الساحلية عكا وحيفا وقيسارية، بينما تحده من الشرق بحيرة طبرية ونهر الأردن، وتقع بمحاذاته مدن الناصرة وكوكبة والجليل، وكان من أوائل المدن الفلسطينية التي تعرضت للعدوان الصليبي، بعد بيت المقدس.

وقبله كانت مدينة نابلس[3] قد دخلت في فلك الصليبيين، وإن كان سقوطها متوقعا إلا أنه جاء بطريقة غريبة، فلم يكن بقوة عسكر الصليبيين، وإنما جاء أهلها بأنفسهم لتسليم المدينة للصليبيين، فتسلمها تانكرد في (492هـ/1099م)[4].

ثم إن جودفري عهد إلى تانكرد باحتلال إقليم الجليل، فإن وفق في ذلك كان واليا عليه فتحمس تانكرد للمهمة كثيرا ولم تكن بالأمر الصعب عليه، فهو مع قلة رجاله، وضعف إمكانياته بعد رحيل العديد من الأمراء والجنود، إلا أن أهل الإقليم كانوا أضعف، حتى إنه احتله في فترة وجيزة[5]، كما احتل مدينة طبرية بسهولة بعد أن هرب منها أهلها، وفعل الشيء نفسه في مدينة بيسان في الجنوب

---

[1] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 79-80.
[2] ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 157-158.
[3] نابلس: هي مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين مستطيلة لا عرض لها كثيرة المياه لأنها لصيقة في جبل أرضها حجر، بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ...، أنظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج05، ص248.
[4] راغب السرجاني: قصة الحروب الصليبية، ص115.
[5] ستيفن رنسيمان: نفس المرجع السابق، ج1، ص 304.

الشرقي لإقليم الجليل، وهكذا مع نهاية سنة (492هـ/ 1100م)، وبداية سنة (493هـ/1101م) أصبح إقليم الجليل تابعا للصليبيين، وتحت إمارة تانكرد، على أن هذا الإقليم صار تابعا لبيت المقدس وليس مستقلا بذاته[1]، وبهذه الطريقة أصبحت كل من بيت المقدس ويافا واللد والرملة ونابلس وبيسان وطبرية[2]، بيد الصليبيين.

والجدير بالذكر أن القوة الصليبية في كل هذه المدن الفلسطينية المحتلة، بما فيها بيت المقدس كانت ضعيفة جدا، لتفرق الحاميات الصليبية بين هذه المدن الكثيرة، ولانسحاب ريموند بجيشه إلى الشمال بعيدا عن فلسطين، إلا أن المقاومة الإسلامية آنذاك كانت أضعف بكثير، وربما شعر المسلمون أن قتال الصليبيين أمر مستحيل، وهو ما أدى إلى استقرار الصليبيين رغم قلتهم[3]، ثم إن السياسة الحكيمة التي اتبعها جودفري، كانت وراء بقائهم بفلسطين أكثر، وهذه السياسة هي:

1- عمل جودفري على تقوية وتحصين ميناء يافا[4]، لأنه المنفذ البحري الوحيد في هذه الفترة بيت المقدس، مما ساعد على ازدهار المدينة تجاريا وعسكريا.

2- الاتفاق مع الجمهوريات الإيطالية على إمداد بيت المقدس بالأساطيل التجارية والعسكرية، وذلك لحماية الشواطئ الفلسطينية، مما سهل للإيطاليين السيطرة على مجريات الأمور، وفي مقابل ذلك ضعفت موانئ كل من عكا وأرسوف وغيرهما، مما سيسهل بعد ذلك احتلالهم.

3- اعتماد سياسة الترهيب والبطش مع السكان، ومن ذلك ما فعلوه مع بعض المزارعين من أرسوف الذين أمسك بهم الصليبيون، فنكلوا بهم بعد قتلهم، حيث قطعوا أنوفهم وأيديهم وأرجلهم، وكل ذلك لبث الرعب في قلوب المسلمين[5]، حتى لا يفكروا في جهاد الصليبيين.

4- الدخول في مباحثات سلام مع المدن الشامية التي لا تزال لم تسقط بأيدي الصليبيين وذلك لتجنب الاحتكاك العسكري، في وقت هو في أشد الحاجة إليه، وبالتالي فهذه

الاتفاقيات تسمح له باستجماع قواه، إلى حين يصبح بإمكانه السيطرة عليها[6].

ب- احتلال مدن الساحل الفلسطيني

---

[1] راغب السرجاني: نفس المرجع السابق، ص 117.
[2] قاسم عبده: ماهية الحروب الصليبية، ص130.
[3] راغب السرجاني: نفس المرجع السابق، ص 118.
[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج09، ص 43.
[5] محمد سهيل طقوش : نفس المرجع السابق، ص 442.
[6] راغب السرجاني: نفس المرجع السابق، ص 119.

وإذا كانت مدن فلسطين الداخلية، قد سقطت بتلك البساطة، فإن مدن الساحل شهدت وضعا مغايرا تماما، فقد حصلت اشتباكات عنيفة بين الصليبيين والمسلمين، فبفضل ما انضم إلى قوة جودفري دي بوايون العسكرية من إمدادات، استطاع أن يبسط سلطانه على سهول فلسطين الساحلية، وكانت أولى هذه المدن هي حيفا:

1- احتلال مدينة حيفا

لما شعر جودفري بأنه ليس بمقدوره مجابهة مسلمي أرسوف وعسقلان، بعد أن أجهدوه بضرباتهم الموجعة، طلب مساعدة البيازية في دفع الخطر، وبدأ بتحصين مدينة يافا، كما استعان

ببعض قوات أنطاكية لمساعدته في حصار عكا، لكن لم تلبث الأخبار أن حملت نبأ وفاة جودفري دي بوايون يوم الأربعاء تاسع رمضان، فاقترح دايمبرث وتانكرد على البنادقة رفع الحصار عن عكا، وتوجيه الجهود لاستيلاء على حيفا[1].

والواقع أن الصليبيين قد وقع اختيارهم على هذه المدينة، لقربها من بيت المقدس، فهي أكثر نفعا للقضية الصليبية في ذلك الوقت، وكانت حيفا تابعة للدولة الفاطمية، وبها حامية قليلة العدد تابعة للفاطميين.

وفي (494هـ/1100م) وصل إلى يافا أسطول من البنادقة يتكون من حوالي مائتي سفينة وقد عرض قادة هذا الأسطول خدماتهم على الصليبيين[2]، وبدأوا في حصار مدينة عكا من ناحية البحر بينما تولى جودفري حصار المدينة من ناحية البر، ولكن موت جودفري حول الحملة إلى

حيفا التي سقطت في أيدي الصليبيين في (494هـ/1100م)[3].

2- احتلال مدينة أرسوف

أما فيما يخص مدينة أرسوف، فقد كان جودفري يأمل في فتح ممرات إضافية لبيت المقدس تؤدي إلى البحر، إذ لم يكن سوى ممر يؤدي إلى يافا، فحاول أن يوسعه بأن يستولي على ميناء أرسوف الصغير الواقع إلى الشمال منها، فكيف حدث ذلك ؟

لما قرر جودفري أن يسيطر على الميناء قام بمحاصرته، إلا أن الحامية أجبرته على رفع الحصار، فأمر على إثر ذلك بعض أفراد جيشه بأن يغيروا على الأراضي المجاورة لأرسوف لإجبار حاميتها على الاستسلام، في حين أغار هو على المدن الفاطمية الساحلية أمثال عسقلان وقيسارية وعكا، ومنع

---

[1] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 81.
[2] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 225.
[3] تقي الدين المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج2، ص 161.

وصول المؤن إليها من الريف، وحصن يافا بمساعدة البيازية، وأصلح ميناءها، فازدادت المشقة أمام السفن الفاطمية لجلب المؤن بحرا إلى الموانئ الإسلامية، واشتدت معاناة سكانها[1].

وفي شهر (ربيع الآخر493هـ/فيفري1100م)، ظفر الصليبيون ببعض سكان أرسوف الذين خرجوا لمزاولة نشاطهم في مزارعهم القريبة، فانتقموا منهم انتقاما وحشيا بأن قطعوا أنوفهم وأقدامهم وأيديهم[2]، ولما كانت أرسوف تابعة للدولة الفاطمية، فقد أرسل سكانها سفارة عاجلة إلى القاهرة لطلب المساعدة، لكن الأفضل اكتفى بأن يرسل إليهم قوة عسكرية صغيرة مؤلفة من ثلاثمائة جندي، تصدى لها الصليبيون، وقتلوا منها عددا كبيرا.

غير أن سكان أرسوف استبد بهم اليأس، عندما رأوا الإمدادات تصل إلى الصليبيين، وأدركوا عدم جدوى المقاومة، واضطروا إلى الدخول في تبعية الصليبيين، فأرسلوا سفارة وصلت بيت المقدس في جمادى الأولى، حملت معها هدية رمزية، عبارة عن مفاتيح أبراج المدينة، وعرضت أن تدفع جزية سنوية، فقبل جودفري دي بوايون منهم ذلك، ولم يلبث أن احتذى بهم سكان عسقلان وقيسارية وعكا، في الشهر التالي، ودخلوا في تبعية الصليبيين وتعهدوا بدفع جزية سنوية رمزا لهذه التبعية[3].

لكن هذه الأوضاع لم تدم طويلا، فقد وصل في عام(494هـ/1100م)، إلى حيفا أسطول
جنوي[4] أسرع إليه الملك بلدوين لاستقباله، وفي نيته عقد تحالف معه، وهو ما حدث بالفعل حيث تم الاتفاق بين قادة الأسطول الجنوي والملك بلدوين، على عمل الأسطول تحت إمرة الملك بلدوين حوالي ثلاثة أشهر ويكون نصيبهم ثلث الغنائم، وأن يكون لهم شارع في سوق كل مدينة يتم فتحها[5].

وكانت مدينة أرسوف الهدف الأول لهذا الاتفاق، وتولى الأسطول مهاجمة المدينة من ناحية
البحر وبلدوين وجيشه من ناحية البر، ولم تستطع المدينة الصمود طويلا فعرضت التسليم مقابل الأمان وخروج الأهالي بأنفسهم فقط، ووافق الملك بلدوين وتسلمها ثم خصص لها حامية للدفاع عنها وأعطى الجنوية ما وعدهم

[1] ستيفن رنسيمان: نفس المرجع السابق، ج1، ص 457.
[2] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 441.
[3] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص 217-218.
[4] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 113-114.
[5] محمود سعيد عمران: تاريخ الحروب الصليبية، ص 34-35.

به، ورحل أهل المدينة في حراسة قوات بلدوين إلى مدينة عسقلان في (495هـ/1101م)[1].

3- احتلال مدينة قيسارية

وبعد أرسوف اتجهت أنظار المتحالفين نحو مدينة قيسارية، حيث بدأ الحصار في شهر رجب واعتمد أهل المدينة على أسوارها، ورفضت حاميتها التسليم وظلت تقاوم خمسة عشر يوما حتى سقطت[2]، واستباح الصليبيون المدينة ونهبوها فلجأ سكانها إلى المسجد الجامع في المدينة ولكن الصليبيين لاحقوهم، وجرت مذبحة داخل المسجد حتى صار صحن المسجد بحيرة من الدماء، ولعل ذلك مرجعه إلى أن الملك بلدوين أراد أن يظهر للمسلمين أنه يحفظ عهد يسالمه ولا يرحم من يحاربه، وأقام بلدوين حامية صليبية بالمدينة للدفاع عنها ونفذ اتفاقية مع الجنوية[3].

لكن فظاعة الجريمة لا يمكننا أن نبررها أبدا، لأن الصليبيين تلك هي أخلاقهم وتلك هي أفعالهم، فالوحشية من طباعهم، فقد فعلوها قبل ذلك في بيت المقدس، وقبله في معرة النعمان وأنطاكية، ولو أننا قبلنا مبرر أن سكان المدينة كانوا متسببين في هذه المذبحة، فإننا نقول ما الذي يبرر جرائم الصليبيين في بيت المقدس؟، عندما جاؤوا على الكبير والصغير والمحارب والمسالم، وفي حقيقة الأمر يمكننا الإجابة على هذا التساؤل ببساطة، وهو حقد الصليبيين الكبير على الإسلام والمسلمين هو الذي دفعهم إلى ارتكاب هذه المجازر الوحشية.

4- احتلال مدينة عكا

ركن المسلمون في الساحل الشامي إلى السكينة والهدوء، بعد سقوط القدس بيد الصليبيين فاستغل بلدوين هذا الهدوء، ليوطد مركزه على بقية المدن وعلى الرغم من أنه استولى على المدن الواقعة بين يافا وحيفا، ومنها أرسوف وقيسارية[4]، فإنه طمع في احتلال بقية الثغور، مثل عسقلان وعكا، التابعتين للفاطميين، وبخاصة أن المسلمين كانوا يغيرون على الطرق التي تربط بينهما، وهددوا المواصلات بين يافا وبيت المقدس فاختار أن يستولي على عكا، فحاصرها في شهر (رجب 496هـ/أفريل1103م) وضيق على أهلها وكادت تسقط في يده لولا أن وصلت إليها النجدات من سائر السواحل من صور وصيدا، واضطر إلى رفع الحصار عنها[5].

---

[1] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص 218-219.
[2] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 114.
[3] محمود سعيد عمران: نفس المرجع السابق، ص 35.
[4] أحمد بن علي الحريري: نفس المصدر السابق، ص 67. ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص43.
[5] أرنست باركر: نفس المرجع السابق، ص 44.

ومن الواضح أن فشل الملك الصليبي مرده إلى عدم وجود قوة بحرية تسانده لإحكام الحصار على المدينة من البر والبحر، ولذلك فقد استغل الفرصة التي أتيحت له في أوائل (جمادى الآخرة 497هـ/مارس1104م)، عندما وصل إلى اللاذقية أسطول جنوي ضخم، ضم سبعين سفينة مشحونة بالجنود والحجاج والتجار الذين قدموا إلى الشرق[1]، فاستعان بهم بلدوين، بعد أن بذل لهم الأجر المألوف، وهو ثلث الغنيمة، وامتيازات تجارية، وحي في السوق، في فرض حصار على المدينة، في شهر شعبان[2].

تسلم بلدوين المدينة، لكن الجنوية نقضوا عهد دخولهم إليها، إذ لم يطيقوا أن يروا هذه الثروة الكبيرة تفلت من أيديهم، فاجتاحوها كالإعصار المدمر، يقتلون ويذبحون ويسلبون وينهبون، ويقول ابن الأثير: **" فلما فرغوا من جبيل ساروا إلى مدينة عكا استنجدهم الملك بغدوين ملك الفرنج صاحب القدس على حصارها فنازلوها، وحصروها في البر والبحر وكان الوالي بها اسمه ينا، ويعرف بزهر الدولة الجيوشي، فقاتلهم أشد قتال فزحفوا إليه غير مرة فعجز عن حفظ البلد فخرج منه، وملك الفرنج البلد بالسيف قهرا وفعلوا بأهله الأفعال الشنيعة..."**[3]، مما أثار غضب بلدوين ونقمته، وقد عزا أبو الفدا سقوط عكا بيد الصليبيين إلى النزاع الذي كان قائما بين المسلمين بعامة **" وملوك الإسلام إذاك منشغلون بقتال بعضهم البعض، وقد تفرقت الآراء واختلفت الأهواء، وتمزقت الأموال..."**[4].

ويبدو أن سقوط عكا قد أضر بالوجود الفاطمي في منطقة الساحل، وقلص من نفوذهم في بلاد الشام، وحرمهم من أهم قواعدهم البحرية هناك، وكفل لبلدوين ميناء صالحا لرسو السفن في كل الفصول، والاتصال بأوربا، وسمح للسفن الصليبية الاحتماء به لتفادي هجمات الأسطول الفاطمي، وأضحت عكا الميناء الرئيسي لمملكة بيت المقدس.

5- احتلال مدينة عسقلان

لم يتبق من المدن الفاطمية بفلسطين بعد سقوط عكا بأيدي الصليبيين، سوى مدينة عسقلان، ورغم أنها كانت مسرحا لعدة معارك عسكرية بين الفاطميين والصليبيين، إلا أنها صمدت وقتا طويلا ثم سقطت، وكان ذلك بعدما انغمست

---
[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 72.
[2] ابن الوردي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 14.
[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج09، ص 72.
[4] أبو الفدا الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب: المختصر في أخبار البشر، علق عليه ووضع حواشيه، محمود ديوب، دار الكتب العلمية (بيروت)، (1417هـ/1997م)،ج2، ص 35.

الدوائر الفاطمية في سلسلة المؤامرات والاغتيالات منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي.

وهو ما أتاح لملك بيت المقدس، بلدوين الثالث (538-558هـ/1143-1163م)، الذي خلف الملك فولك، بتوجيه نشاطه العسكري إلى مصر[1]، ولن يحدث ذلك ما لم تتم السيطرة على عسقلان، لأنها الفاصل بين مصر وبيت المقدس، وهي لا تزال تحت سيطرة الفاطميين وبالتالي تأمين أظهرهم أمر محتوم حتى يتمكنوا من السير إلى مصر بأمان.

لكن الاستيلاء على عسقلان، يفرض اتخاذ مجموعة من التدابير السياسية، والعسكرية، فمن الناحية السياسية، كان يتوجب على بلدوين، أن يحمي ظهره من جانب دمشق، ولذلك حرص على مساندة مجير الدين أبق صاحب دمشق[2]، أثناء حصار نور الدين محمود زنكي لهذه المدينة

واشترك مع الدماشقة في الحد من نفوذه في إقليم حوران[3] فقويت الصلات بين الجانبين وتمكن من حصر جهوده في غزو عسقلان[4].

أما من حيث التدابير العسكرية، فقد جدد أسوار غزة، بعد أن هدم القديمة منها وبنى لها سورا جديدا وقلعة حصينة ، وكان الفاطميون قد شعروا بهذه الاستعدادات، التي قام بها بلدوين الثالث مما دفعهم إلى الاستعانة بنور الدين محمود، إلا أنهم لم يتلقوا مساندة مباشرة[5].

وهكذا تهيأت الظروف لبلدوين الثالث، فزحف إلى عسقلان وحاصرها في شهر (ذي الحجة547هـ/مارس1153م)، واستمر الحصار بضعة أشهر كانت الحكومة في القاهرة تمد أهل المدينة بالمعونة عن طريق البحر، إلا أن الفاطميين لم يغامروا بمساعدة المدينة من البر.

ولطول مدة الحصار، ونتيجة للقذف شبه المتواصل، تداعت الأبراج، فاضطرت الحامية إلى التسليم مقابل الأمان للسكان أثناء خروجهم من المدينة في شهر(جمادى الأولى548هـ/أوت 1153م)، وهو ما وافق عليه بلدوين الثالث،

[1] بطرس توديبو: نفس المصدر السابق، ص 337-338.

[2] مجير الدين أبق: هو أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين أتابك أبو المظفر سعيد التركي، ولد ببعلبك، وقدم دمشق مع أبيه محمد، فلما مات أبوه ولي إمرة دمشق يوم الجمعة الثامن من شعبان سنة خمس مائة وأربع وثلاثين...، أنظر ابن عساكر أو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي: تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من أهل الأماثل، واجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، دراسة وتحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غلامة العمروي دار الفكر(بيروت)، (1415هـ/1995م)، ج07، ص 299.

[3] إقليم حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق، من جهة القبلة ذلت قرى كثيرة ومزارع...، ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج02، ص 317.

[4] هانس إبرهارد ماير: نفس المرجع السابق، ص 209.

[5] سيد علي الحريري: نفس المصدر السابق، ص 107.

ودخل الصليبيون المدينة في موكب النصر وتسلموا القلعة بكل ما تحويه من المال والسلاح، وتقرر جعل عسقلان إقطاعا لكونت يافا عموري شقيق الملك[1].

أدى استيلاء الصليبيين على عسقلان، إلى نتائج بعيدة الأثر، فبالرغم من الصليبيين لم يكونوا متأثرين بالسرايا التي تخرج من المدينة صوبهم، إلا أنهم استحوذوا على إقليم آخر وحصن حصين للفاطميين، كما ضمنوا بواسطته اقترابهم من مصر، مما يسهل لهم الإغارة عليها أو الاستحواذ عليها إن سنحت لهم الفرصة.

لكن الذي لم يخطر على بالهم، هو أنهم صاروا هدف المغامرين من مصر، فقد كان بعض هؤلاء المغامرين ينطلق من مصر باتجاه المدن الخاضعة للصليبيين للإغارة عليهم، وقد تأثرت منهم هذه المدن أيما تأثر، ثم إن بعض الحكام المسلمين ممن لهم النخوة، والغيرة على البلاد الإسلامية، صاروا يغيرون على بعض المدن الصليبية، ومن ذلك ما فعله نور الدين محمود، عندما قام بمهاجمة بانياس بالاشتراك مع مجير الدين أبق صاحب دمشق، لتخفيف الضغط عن عسقلان[2].

أكثر من ذلك هو أن الفرنج بعد استيلائهم على عسقلان صاروا يتمتعون بقوة وهيبة كبيرتين، حيث راحوا يوجهون أنظارهم إلى بعض المدن الأخرى الإسلامية الكبيرة للاستيلاء عليها، **" فقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق، واستضعفوا مجير الدين أبق، وتابعوا الغارات على أعماله "**[3]، وهكذا تراجع مركز دمشق حتى دخلت في حماية الصليبيين، ودفع الدمشقيون ضريبة سنوية لهم، فكانت رسلهم تدخل المدينة لجباية الأموال المفروضة على أهلها لملك بيت المقدس[4].

[1] أحمد بن علي الحريري: الإعلام والتبيين، ص 77.
[2] ستيفن رنسيمان: نفس المرجع السابق، ج2، ص548.
[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 392.
[4] المصدر نفسه.

ثالثا- رد فعل الفاطميين من هذا العدوان

إذا كانت ردة فعل الدولة الفاطمية تجاه العدوان الصليبي على مدن الساحل الشامي، قد جاءت على ثلاث خيارات مختلفة، جمعت بين السياسة والاقتصاد والقوة العسكرية، فإن ردة فعلها من سقوط فلسطين، اقتصرت على الخيار العسكري فقط، وذلك لأن الفاطميين كانوا يتمتعون بنوع من القوة في هذه الفترة، على عكس الفترة السابقة، فقامت بتوجيه عدة حملات عسكرية ضد الصليبيين.

أ- عسكريا

لما أدرك الأفضل بن بدر الجمالي أن الصليبيين خرجوا عن حدود ما كان يتوقعه، أعاد النظر في سياسته وقرر الاتصال بالإمبراطور البيزنطي أليكسوس كومينين للاستفسار منه عن نوايا الصليبيين، وهل هم يعملون لحسابه أم لا ؟، فأنكر الإمبراطور علاقته بهم[1].

غير أن الأفضل تيقن من أنهم يعملون لحسابه ، فقام بإرسال سفارة ثانية إليهم، وهم قرب طرابلس تحمل معها جملة من الهدايا والتحف لكل قادة الحملة وعرض عليهم مشروع تحالف كالسابق، بالإضافة إلى السماح لهم بحرية العبادة في بيت المقدس على ألا يدخلوه بسلاحهم ولكنهم ردوا عليه ردا عنيفا حيث قالوا: بأنهم سيدخلون بيت المقدس بإذن الله دون إذن من خليفة القاهرة[2]، ولذلك بدأ بتجهيز نفسه استعدادا للدفاع عن أملاكه، بطريقتين، أولاها توجيه الحملات العسكرية المباشرة، وثانيها الاعتماد على الحاميات العسكرية، وكانت أولى معاركه مع الصليبيين، هي معركة عسقلان.

1- معركة عسقلان الأولى:

تجدر الإشارة إلى أن مدينة عسقلان شهدت عدة معارك بين الفاطميين والصليبيين، لكن أكبرها وأشهرها هي معركة عسقلان الأولى والتي حدثت في أعقاب سقوط بيت المقدس ولذلك اكتفينا بذكرها هي فقط، في حين كنا أشرنا إلى بقية المعارك في سياق حديثنا عن سقوط عسقلان.

عندما وصلت أنباء سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين، إلى خليفة بغداد المستظهر (487-512هـ/1094-1118م)، أرسل إلى السلطان السلجوقي بركياروق يخبره بالأمر، ويدعوه إلى نصرة المسلمين في بلاد الشام، لكن هذا الأخير لم يقم بأي عمل جدي يحقق هذه الرغبة[3] لسبب بسيط وهو أن المدينة تابعة للنفوذ الفاطمي، وبالتالي فعلى الفاطميين أن يتحملوا تبعات

[1] ستيفن رنسيمان: نفس المرجع لسابق، ج01، ص 406.
[2] مسفر بن عريج الغامدي: نفس المرجع السابق، ص 121.
[3] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 438.

خيانتهم للسلاجقة، أثناء وقوعهم تحت رحمة الحصار الصليبي في أنطاكية، والمدن التي قبلها.

وإن رمنا الحق فإن ما قام به السلطان السلجوقي، ليس من شيم أهل السنة، وإن كان الطرف الذي طلب مساعدته اسمه الدولة الفاطمية، فكان يجدر به أن يقدم المساعدة لنصرة بيت المقدس، فينال بذلك الثناء الحسن بحرصه على صون البيت المقدس، ويوصل رسالة إلى الأفضل والفاطميين ككل، بأن أهل السنة ليسوا أعداءهم كما يعتقدون هم، ومن جهة أخرى فإن حاولنا أن نلتمس له العذر في تقاعسه، فكل ما يمكننا أن نتحجج به، هو أن الفاطميين كانوا قد استغلوا نقطة ضعف السلاجقة، وهي انهماكهم بمواجهة الصليبيين، ليقوموا بالانقضاض عليهم من الخلف، وقد يفعل الفاطميون أكثر من ذلك لو أن الصليبيين لم يقصدوا ممتلكاتهم.

والحقيقة أن هذا الخلاف الذي كان بين بغداد والقاهرة، قد أسهم في ذلك الوقت في خسارة أنطاكية وبيت المقدس، بالإضافة إلى بعض المدن الإسلامية الأخرى، كبيت لحم واللد والرملة ويافا[1].

والواقع أن الأفضل بدأ بتجهيز جيشه للمسير إلى فلسطين، لنصرة بيت المقدس الرازحة تحت الحصار الصليبي، وخرج به من مصر ليحول دون استيلائهم عليه، ولكنه وصل إلى عسقلان في (14رجب) وكان قد فات الأوان[2]، كما أنه أضاع كثيرا من الوقت في عسقلان ينتظر وصول الأسطول الفاطمي عن طريق البحر، إضافة إلى النجدات العربية التي وعد بها[3] مرتكبا خطأ عسكريا كبيرا، إذ في الوقت الذي كان فيه قابعا في عسقلان، اكتشف الصليبيون أمره، فبادروا بالهجوم على معسكره صبيحة(22رمضان/12أوت)، في سهل المجدل الواقع شمال عسقلان[4].

وكان كشافته قد وقعوا في الخطأ، عندما أعلموه بأن الطريق خالية، ولم يكونوا على علم بأن الصليبيين قريبين منهم[5]، ولذلك فعندما نشبت المعركة بدى ضعف جيشه جليا، فقد عجز عن مقاومة الصليبيين، والراجح أن عدم استعدادهم للحرب في ذلك الوقت بالضبط، هو سبب هذا الضعف، ولذلك فلم تمض إلا مدة وجيزة حتى حلت بهم الهزيمة، وولوا هاربين إلى ناحية عسقلان، أما الأفضل

---

1 المرجع نفسه.
2 ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج09، ص 21.
3 ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص137.
4 مؤرخ مجهول: نفس المصدر السابق، ص 122.
5 راغب السرجاني: نفس المرجع السابق، ص 115.

فقد ركب سفينة أعادته إلى مصر[1]، **" وحكي أن الذين قتلوا من أهل عسقلان من شهودها، وتجارها وأحداثها سوى أجنادها ألفان وسبعمائة نفس..."**[2].

أكدت هذه الهزيمة أنه ليس بمقدور الفاطميين أن يستردوا ما فقدوه من الأراضي، لكن ذلك لا يعني أن باستطاعة الصليبيين الاستيلاء على جميع نواحي فلسطين، لأن البحرية الفاطمية لا تزال تسيطر على ساحل بلاد الشام، وتبسط حمايتها على الموانئ البحرية، ولكن ما علمه الصليبيون من خلال احتكاكهم بالجنود الفاطميين، هو أن الفاطميين ليسوا بقوة الأتراك، مما أعطاهم الثقة بالنصر[3].

كان جودفري دي بوايون، يأمل بعد هذا الانتصار على الفاطميين في الاستيلاء على عسقلان، لذلك ضرب الحصار عليها، ولما أدركت حاميتها أنه ليس بوسعها أن تصمد أمام القوات الصليبية فضلت الاستسلام، تجنبا لمذبحة جديدة كالتي حدثت قبل قليل في بيت المقدس ولذلك قرر قائدها أن يدخل في مفاوضات مع ريموند الصنجيلي لتسليم المدينة إليه[4].

ويكون قائد الحامية، قد استند في تفكيره هذا، إلى ما فعله افتخار الدولة، قائد حامية بيت المقدس عندما طلب الأمان من الصليبيين، فأعطوه الأمان وسمح له ولرجاله بالخروج سالمين من بيت المقدس.

على كل حال، قبل الصليبيون فكرة قائد الحامية، لكنهم لم يسيطروا على المدينة، بعد أن دخلوا في خلافات فيما بينهم، فقد كان ريموند الرابع يبحث عن تأسيس إمارة له، وكان يحلم بمدينة عسقلان لتحقيق رغبته هذه، ليواجه تعنتا من جودفري، الذي كان يريد هو الآخر الاستئثار بها، ونتيجة لهذا الخلاف انسحب ريموند الرابع من الحصار، ليترك جودفري لوحده فرأى هذا الأخير، أن لن يستطيع مواصلة الحصار لوحده، فانسحب هو الآخر، بعد أن فرض على أهلها عشرين ألف دينار، فلم يدفعوا منها شيئا[5].

وهكذا أدى النزاع الداخلي بين ريموند وجودفري إلى ضياع عسقلان من أيدي الصليبيين لمدة تزيد على نصف قرن، تلى ذلك أن عرضت مدينة أرسوف الصغيرة أن تستسلم لريموند وكان قد هاجمها بعد انصرافه من أمام عسقلان، فتصدى له جودفري من جديد، بوصفها تتبع بيت المقدس[6].

2- معركة الرملة الأولى

---

[1] مؤرخ مجهول: نفس المصدر السابق، ص 120. تقي الدين المقريزي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 161.
[2] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 137.
[3] ستيفن رنسيمان: نفس المرجع السابق، ج1، ص441.
[4] تقي الدين المقريزي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 160.
[5] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 137.
[6] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 223.

ما إن تمكن بلدوين من السيطرة على قيسارية، حتى وصلت إليه شائعة لم تكن بعيدة عن الواقع، تلك هي أن خليفة مصر، كان قد أرسل واحدا من كبار قواد جيشه وهو المملوك سعد الدولة القوامسي، في أواخر (رمضان494هـ/جوان1101م) على رأس مجموعة من العسكر إلى ناحية عسقلان، وقد أمره أن يتقدم بسرعة لقتال الصليبيين، حتى يباغتهم ويتيسر له القضاء عليهم بسهولة تامة، ويقال أنه كان في جيشه أحد عشر ألفا من الفرسان، وعشرون ألفا من العسكر المشاة[1].

ولذلك قام الملك بلدوين بمغادرة قيسارية على جناح السرعة، فقد كان يتخوف من استيلاء هذا الجيش على بيت المقدس، بالنظر إلى كثرته، ولما وصل إلى الرملة أقام بها ما يقرب الشهر ثم عاد أدراجه إلى يافا، إذ لم يبد أثر للجيش الفاطمي[2]، والراجح أن القائد الفاطمي كان متوقفا ينتظر المدد، من المناطق والمدن المجاورة، وفي ثامن ذي القعدة خرج سعد الدولة باتجاه الرملة حيث لم يستطع التراخي أكثر، وربما يكون قد تخوف من غضب الأفضل، فقرر الدخول في المعركة لوحده وعبأ صفوف جيشه للقتال، ثم أغا غارة خاطفة على بعض المدن الصليبية[3].

ولما علم الملك بلدوين بما حدث أمر باستدعاء قواته، وكانت قليلة بالمقارنة مع ما جاء به الفاطميون، والراجح أن صغر المساحة التي تحت يده، كان السبب في قلة جيشه، غير أنه غامر بنفسه وخرج بهذه القلة، لمواجهة القوامسي، وكان مجموع ما معه من الجيش، ألف فارس وعشرة آلاف راجل[4].

ولما اتضح أن الجيش الفاطمي قد أخذ في الاقتراب، أمر بلدوين بتقسيم قواته إلى ست فرق

وجعل أمامهم راهبا يحمل بيده الصليب، ثم اندفع إلى ساحة المعركة، وحدث أن اصطدمت فرقة من جيشه بمقدمة الجيش الفاطمي، فاضطربت وأجبرت على الفرار فتتبعهم عدد كبير من الفاطميين، وراحوا يعملون فيهم السيف، حتى قتلوا معظمهم[5].

بينما بقيت الفرق الأخرى تقاتل القوات الفاطمية، إلى أن كسرت ميمنة وميسرة الفاطميين وبقي القوامسي مع نفر قليل من جيشه في القلب، ثم كبا به

[1] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص 223.
[2] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 443.
[3] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 180.
[4] ابن القلانسي، نفس المصدر السابق، ص 140. بينما يذكر وليام الصوري بأن مجموع من معه هو مائتان وستون فارسا، وتسع مائة راجل، ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج01، ص 224.
[5] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص226. .

فرسه فسقط واستشهد[1] وفرت الفئة التي كانت ثابتة معه، فتتبعتها القوات الصليبية، تقتل كل من لحقت به، إلى أن وصل إلى مشارف عسقلان، **"ولم يوقفه عن الذبح المروع إلا دخول الليل، وإذ ذاك نفخ الملك في البوق مستدعيا رجاله، فعادوا إلى ساحة المعركة حيث أخذ يوزع الغنائم عليهم تبعا لقانون الحرب.**

وتقول الرواية أن قرابة خمسة آلاف من رجال العدو ذبحوا ذبح الشياه في ذلك الموضع ولما أحصى رجالنا كان المفقودون منهم سبعون فارسا، وأكثر منهم الجند المشاة على أن الخسارة الحقيقية لم تعرف"[2].

هذا وكانت القوات الفاطمية التي تتبعت فلول الفرقة الهاربة من جيش بلدوين، قد أوغلت في مطاردتهم حتى بلغت مدينة يافا، ثم وقفت أمام المدينة لتعلن في صوت عالي أن الجيش الصليبي قد هلك رفقة قائدهم، ما أدخل البلاد في دوامة من الفوضى، حتى أن القيمين على يافا راسلوا تانكرد أمير أنطاكية، يستصرخونه لنجدة المملكة[3].

ثم لما قفلوا راجعين، اصطدموا بالجيش الصليبي وهو عائد إلى المدينة، ففروا منه وراح هذا الأخير يطاردهم، ويقتل كل من وصلت إليه يديه، ويعترف ويليام الصوري، بشجاعة هؤلاء في الدفاع عن أنفسهم، فيقول: **"استبسلوا في قتالهم حفاظا على حياتهم، وهجموا على خصوم ملتهم، وكان قتال اليأس في الأحياء المجاورة استعملت فيه السيوف، وأحيط بالعدو إحاطة سدت عليه مسالك النجاة، فهلك الكثيرون من رجاله، أما البقية الذين أفزعهم الخوف من الموت فقد ولوا الأدبار "**[4].

كانت هذه هي المعركة الثانية للجيش الفاطمي بعد معركة عسقلان الأولى، والتي انتهت كسابقتها بانهزام ساحق للفاطميين، في مقابل انتصار آخر للصليبيين، وبدراسة دقيقة لسير العمليات العسكرية، فإنه يمكننا أن نستنتج عدة استنتاجات، وهي أن عدد الجيشين الفاطمي والصليبي، الذين أوردهما الصوري، يقع فيهما لبس كبير، فقد أورد أن الجيش الفاطمي فاق الواحد والثلاثين ألف مقاتل، بينما لم يتعد الجيش الصليبي الذي انتصر انتصارا ساحقا، الألف ومائتين، وهو أمر غير معقول تماما، إذ ليس من العقل أن تنتصر هذه الحفنة من الجيش، على ذلك الجيش الكبير، وبتلك الصفة.

---

[1] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 140.
[2] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص 226.
[3] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 181.
[4] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص 227.

وهنا يمكننا القول، أن ما جاء به الصوري مبالغ فيه، والراجح أن عدد الجيش الصليبي الذي أورده ابن القلانسي هو الصحيح، فقد أورد ما مجموعه بين الرجالة والخيالة، إحدى عشر ألفا، بينما لم يورد عدد الجيش الفاطمي بالضبط، وإن أخذنا بالعدد الذي أورده الصوري، وإن كان مبالغا فيه، فإننا سنقبل بنتيجة المعركة على اعتبار أن أعداد الجيشين متقاربين بالمقارنة مع ما أوردهما في السابق.

وما يمكننا استنتاجه أيضا، هو أن الجيوش الصليبية كانت تخرج دائما منتصرة، في حين أن الفاطميين كانوا يخرجون منهزمين دائما، وسبب ذلك على ما يبدو هو أن الوضعية النفسية التي يدخل بها كل جيش إلى المعركة، فالمتفائل الباحث عن النصر بأي ثمن، ليس كمن يقاتل مكرها وما أحسب أن الجيش الفاطمي إلا يقاتل مكرها، وإلا فكيف ينهزم بمجرد أن يبدأ المعركة، أو أن التخطيط العسكري عند الصليبيين، هو أفضل منه عند الفاطميين.

3- معركة الرملة الثانية

لم يستطع الوزير الأفضل أن يسكت على الهزيمة التي لحقت بجيوشه على أيدي الصليبيين وما اشتهرت به مصر من موارد ضخمة، هيأت له أن يجهز جيشا كبيرا يستطيع بواسطته استئناف القتال، واحتشد الجيش الذي بلغ عدد أفراده عشرين ألفا في عسقلان في (25رجب 495هـ/15ماي1102م)، تحت قيادة شرف المعالي ابن الوزير الأفضل، ثم انطلق إلى اللد والرملة ويازور، من هناك اتجه لتهديد يافا وبيت المقدس[1].

وكان بلدوين قد استعد هو الآخر، فحشد جموعه التي قدرها ابن القلانسي بسبع مائة ما بين فارس وراجل[2]، ويبدو أنه اغتر بانتصاره السابق، أو أن كشافته ضللته، أو لاعتقاده بأن الفاطميين ليسوا إلا فئة قليلة، فاستخف بهم وعزم على أن يتولى بنفسه القضاء عليهم دون أن يلجأ إلى استدعاء القوات الاحتياطية، فخرج من بيت المقدس قاصدا الرملة، وفي الوقت الذي كان يسير فيه على غير تعبئة باغتته القوات الفاطمية بين يازور والرملة[3].

وربما اعتقد المسلمون بأن تلك الثلة من القوة العسكرية ليست إلا طليعة لجيش ضخم آت على أعقاب الملك، فاختاروا أن يباغتوها فورا قبل أن يلحق بها بقية الجيش، ولذلك عندما نشبت المعركة، لم يستطع بلدوين الثبات أمام الجموع الإسلامية، فانهزم هو وجيشه[4]، ولقي عدد كبير من الفرسان مصرعهم

[1] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ج2، ص 40-41.
[2] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 141.
[3] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 444.
[4] عبد الرحمن بن خلدون: نفس المصدر السابق، ج4، ص 87.

في ساحة المعركة، وتمكنت جماعة من الفرسان أن تشق لها طريقا في صفوف المسلمين حيث التحقت بيافا، أما الملك وكبار أعوانه، فاتخذوا طريقهم إلى حصن الرملة الصغير حيث حاصرهم الجيش الفاطمي.

وقد كان بإمكان الجيش الفاطمي أن يستولي على الرملة بسهولة، لو أنه استغل سوء عوامل الدفاع عنها، كما بإمكانه القبض على الملك الصليبي، لكن حلول الظلام جعل الجنود الفاطميين يؤجلون اقتحامهم لها صباح اليوم التالي، وهو ما يسر لبلدوين الفرار من الرملة ليلا بعد أن تنكر، واتجه إلى يافا، وهاجم الجيش الفاطمي المدينة صباح اليوم التالي، واقتحمها وقتل معظم من فيها من فرسان الصليبيين[1].

ولم يلبث الجيش الفاطمي أن حاصر يافا برا في الوقت الذي كانت فيه مطاردة بلدوين جارية، في حين حاصرها أسطول فاطمي بحرا، فاضطر بلدوين إلى تغيير وجهة سيره، واتجه إلى أرسوف شمال يافا حيث تجمع رجاله من جديد، وتمكن من دخول يافا بعد ذلك عن طريق البحر مخترقا الحصار البحري[2].

ووصلت إلى ميناء يافا آنذاك مائتا سفينة، تقل أعدادا كبيرة من الجند والحجاج الإنكليز والفرنسيين والألمان، بعد أن شقت طريقها إلى داخل الميناء مخترقة حصار الأسطول الفاطمي فجندهم بلدوين في قواته، وبذلك حصل على معونة عسكرية هو بأمس الحاجة إليها، وبعد تنظيم هذه القوات، خرج بهم في ثامن شعبان، لمجابهة القوات الفاطمية المحاصرة للمدينة (يافا) وبعد ساعات قليلة، من نشوب المعركة حتى انهزم الفاطميون وتراجعوا إلى عسقلان[3].

والواقع أن القوات الفاطمية افتقدت إلى وضع الخطط العسكرية الناجعة وتحديد الهدف الذي يخدم القضية الإسلامية، إذ كان بوسع سرية من العساكر أن تفتح بيت المقدس عقب معركة الرملة دون أن يتعرض حصار يافا لضعف ظاهر، ويذكر ابن الأثير أن الخلاف دب بين أفراد الجيش الفاطمي عقب النصر الذي أحرزوه على الصليبيين في الرملة **"فقال قوم: نقصد البيت المقدس ونتملكه، وقال قوم: نقصد يافا ونملكها، فبينما هم في هذا الاختلاف إذ وصل إلى الفرنج خلق كثير في البحر قاصدين زيارة بيت المقدس، فندبهم بغدوين للغزو معه"**[4].

---

[1] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص 232.
[2] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 127.
[3] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ج2، ص 41.
[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص56.

وما إن علم الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالي، حتى أسرع بإرسال حملتين إحداهما برية بقيادة المملوك تاج العجم، وتألفت من أربعة آلاف فارس، والأخرى بحرية بقيادة القاضي ابن قادوس[1]، لكن انعدام التنسيق العسكري بينهما، جعل الجيش البري يتوقف في عسقلان وفي الجهة المقابلة، كان بلدوين قد أرسل رسالة عاجلة إلى كل من تانكرد، الوصي على أنطاكية، ودي بورج أمير الرها، يطلب منهما إمداده بنجدة سريعة، بعد أن سمع بتحركات الفاطميين الأخيرة، ولم تلبث أن وصلت إلى يافا في (17ذي القعدة/01سبتمبر)، نجدة بقيادة أميري أنطاكية والرها، وقد بلغ عدد أفرادها خمسمائة من الفرسان، وألفا من المشاة[2]، ثم حذا الأفضل حذوه، فطلب الوزير الأفضل من شمس الملوك دقاق صاحب دمشق المساعدة ضد الصليبيين ولكن دقاق اعتذر عن ذلك ولم يحضر[3].

4- معركة الرملة الثالثة

والحقيقة أن الوزير الأفضل لم يتخل عن مواصلة الجهاد، وإن كان يعاب عليه عدم الخروج
بنفسه على رأس الجيش للقتال، ويبدو أن الأوضاع الداخلية المتردية في مصر آنذاك، والتي
كانت تسودها المؤامرات، كانت وراء عدم مغادرته مصر، وقام بمحاولة أخرى في شهر (ذي الحجة498هـ/أوت1105م) مختلفة في النهج والأسلوب، فأرسل حملة بحرية، تعدادها عشرة آلاف فارس وراجل، إلى بلاد الشام قوامها خمسة آلاف مقاتل بقيادة ابنه شرف المعالي احتشدت في عسقلان[4]، وهناك انقسم الجيش قسمين، فسار قسم إلى يافا، بينما سار الآخر إلى الرملة وكان الأفضل قد أرسل إلى الأتابك ظهير الدين طغتكين، الذي آلت إليه السلطة في دمشق بعد وفاة دقاق بن تاج الدولة تتش في شهر (رمضان497هـ/جوان1104م)، يطلب مساعدته، رغم من الاختلاف المذهبي، والراجح أنه كان يريد تطويق الصليبيين من الشمال والجنوب، فقبل طغتكين هذا العرض، بعد أن رفضه في البداية[5]، غير أنه لم بوسعه أن يرسل إليه جيشا كبيرا على أنه أرسل قوة عسكرية قوامها ألف وثلاثمائة من الرماة بقيادة

---

[1] المصدر نفسه .
[2] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 446.
[3] ابن ميسر: نفس المصدر السابق، ص 41.
[4] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 142.
[5] نفسه، ص148.

أصبهذصباو وجهارتكين[1] ويعد ذلك أول عملية تحالف، اتحد فيها المسلمون ضد الصليبيين عدوهم المشترك[2].

ومن الجانب الآخر، فإن بلدوين ما إن سمع بأخبار هذه الحملة حتى بادر بالزحف إلى يافا على رأس جيش كبير، وزاد على ذلك بأن أصدر مرسوما واجب النفاذ يأمر فيه قوات كل المدن التابعة لمملكة بيت المقدس، بالتجمع في يافا، فاستجابوا له بسرعة[3]، وبلغ عدد القوات الصليبية، بوصول هذه الإمدادات خمسمائة فارس وألفا جندي من المشاة، وجعل في مقدمة الجيش بطريرك بيت المقدس، يحمل في يده الصليب، ويحث الجنود على القتال، ويعدهم الرحمة الغفران[4]، كما انضم إليه أرتاش أخو دقاق، المطالب بعرش سلطنة دمشق[5]، غير أنه لما رأى اقتراب الفاطميين من الرملة قرر ترك يافا، والتوجه إلى الرملة.

ثم إن الجيش الفاطمي عمد إلى مناوشة الصليبيين، حتى يتسنى للأسطول البحري الانتقال إلى يافا أين يجتمع بقوات ظهير الدين طغتكين، ويطبقوا كلهم على الصليبيين، و في الرملة اصطدم الجيشان الإسلامي والصليبي، في (14ذي الحجة/01أوت)، حيث دارت رحى معركة ضارية استبسل فيها الطرفان استبسالا كبيرا، ثم انتهت بانتصار بلدوين، وكان الذي ساعد بلدوين على الانتصار، هو المساعدة التي تلقاها من الأسطول البندقي الذي وصل بعيد بداية المعركة عندما كان الأسطول الفاطمي يهم بالانسحاب من يافا، فانقضوا على مؤخرة الفاطميين، ثم ما لبثوا أن حاصروا الأسطول الفاطمي، ودمروه[6].

كان هذا ما قاله الشارتري، لكنه لا توجد أية رواية أوردت ذلك، فحتى ويليام الصوري الذي نجده في كل مرة يتغنى بانتصارات الصليبيين، لم يورد هذه الرواية، وبالتالي فإن صدقها مشكوك فيه إلى حد بعيد، ولعل ما زاد من التشكيك فيها هو ما قاله بالحرف الواحد: **" ولكن أقدام المهاجمين في السفن تلطخت بالدماء، وهكذا تم الاستيلاء على هذه السفن المحملة بالثروات الطائلة، وبعد أن طرحت الجثث خارج السفن، كنت ترى البحر وقد امتد احمرار مياهه لبعد أربعة أميال "**[7]، تبدو هذه الرواية غير منطقية تماما، ولو كانت حقيقية لما تغاضى عنها المؤرخون.

---

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص85.
[2] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 448.
[3] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 180.
[4] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص 262.
[5] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص، 142.
[6] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص198.
[7] نفسه، ص 199.

وعلى كل حال، فإن صباو فر مع عساكره الأتراك عائدا إلى دمشق، بينما تراجع الجنود الفاطميون إلى عسقلان، وعاد شرف المعالي إلى القاهرة، وأصيب الجيش الفاطمي بخسائر فادحة حيث قتل ألف ومائتان من جنوده ولقي حاكم عسقلان مصرعه[1]، ووقع القائدان السابقان لعكا وأرسوف في الأسر، وعاد الأسطول الفاطمي إلى صور وصيدا وطرابلس، كما تكبد الصليبيون خسائر مماثلة في الأرواح[2].

وحسب ما ذكره ابن الأثير فإن سبب الهزيمة التي مني بها الفاطميون والسلاجقة معا، هو الاختلاف الذي حدث بينهما، حيث يقول: **"وكان الأفضل قد سير ولده شرف المعالي في السنة الخالية إلى الفرنج فقهرهم وأخذ الرملة منهم ثم اختلف المصريون والعرب وادعى كل واحد منهما أن الفتح له فأتاهم سرية الفرنج فتقاعد كل فريق منهما بالآخر حتى كاد الفرنج يظهرون"**[3].

والواقع أن هذه الرواية هي الرواية الوحيدة التي ذكرت سبب الهزيمة، ولا ندري صحتها من عدمها، لكن كل ما يمكننا قوله هو أن هذه الحملة الفاطمية، فشلت في تحقيق هدف الفاطميين، كما أنهت جهودهم لاستعادة فلسطين، على الرغم من أنهم ظلوا يهددون الصليبيين بين حين وآخر، ولكن في نطاق محدود، فما حدث من غارة صغيرة قاموا بها في أوائل عام (500هـ/1106م)، أوشكت أن تحقق النجاح، فقد هاجم بضعة آلاف من الفرسان الفاطميين معسكرا للحجاج بين يافا وأرسوف وقتلوا النازلين فيه، ثم توجهوا إلى الرملة، وهاجموا يافا وقصدوا بيت المقدس، لكن بلدوين عجل بالسير نحو الجنوب، وكان آنذاك في الجليل فانسحب الفاطميون إلى عسقلان[4].

وقام الفاطميون في العام التالي، بشن غارة على الجليل، صدها بلدوين، وتوغلوا في عام (504هـ/1100م)، حتى بلغوا أسوار بيت المقدس لكنهم لم يلبثوا أن انسحبوا، وجرت في السنوات العشر التالية غارات مماثلة بين حين وآخر، ومع أنها تقل عن سابقاتها في الأهمية، فإنها أزعجت حياة الحجاج النصارى في السهل الساحلي والنقب[5].

ب- مقاومة الحاميات الفاطمية

جدير بالذكر أن الحاميات الفاطمية بفلسطين، كان لها هي الأخرى دور كبير في التصدي للعدوان الصليبي، ومن ذلك ما حدث مع حامية بيت المقدس، وحامية عسقلان، في حين أن بقية المدن لم تكن بها حاميات فاطمية كبيرة،

---

1 ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 142.
2 ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص85.
3 المصدر نفسه، ص85.
4 محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 449.
5 ستيفن رنسيمان: نفس المصدر السابق، ج2، ص 148.

وبالتالي فأغلبهم اعتمد على نفسه، ودفعوا حتى آخر نفس مثلما حدث مع سكان حيفا وأرسوف وقيسارية.

1- مقاومة حامية بيت المقدس:

ما إن شعر قائد حامية بيت المقدس افتخار الدولة الفاطمي، حتى عمد إلى اتخاذ عدة إجراءات احتياطية لمواجهة الحصار الصليبي المرتقب، منها:

- قام بردم الأبار التي تقع خارج المدينة، وسم بعضها.
- أبعد قطعان الماشية إلى مواضع آمنة.
- ملأ مخازنه بالمؤن، وصهاريجه بالماء بما يكفيه لوقت طويل.
- طرد كافة النصارى من المدينة، وهو إجراء سديد، لو تمعنا فيه جيدا، إذ لا يرتجى منهم فائدة، خصوصا وأنهم ممنوعون من حمل السلاح، كما لا يمكنه الوثوق بهم إذا نشبت الحرب، فقد يقفون إلى جانب إخوانهم النصارى، وهذا وسيؤمن خروجهم المؤن لمن تبقى من السكان.
- أرسل سفارة إلى مصر يطلب النجدة[1].

كانت هذه هي التدابير التي اتخذتها الحامية الفاطمية ببيت المقدس، وإن كانت قد قاومت الحصار لبعض الوقت، إلا أنها لم تصمد طويلا، ووقعت المدينة في أيدي الصليبيين ليفعلوا بها الأفاعيل كما كنا أشرنا إليه سابقا.

وعن سبب الهزيمة التي تعرضت لها هذه الحامية، فهو وبلا شك بسبب قلتها بالمقارنة مع جيش العدو، كما أن تباطؤ وصول المساعدات الفاطمية التي أرسل في طلبها، كان له هو الآخر دور في هذه الهزيمة[2]، وليس بوسعنا هنا أن نلوم أيا من الطرفين، فالأول لم يتقاعس في الدفاع عن المدينة، رغم محدودية جيشه وعتاده، والثاني كان قد أرسل المساعدة لكنها وصلت متأخرة غير أنه يمكننا أن نعيد اللوم مرة أخرى على الخلافة الفاطمية ككل، لأنها لم تساعد السلاجقة من قبل وهم يعانون من وطأة العدوان الصليبي، بل أكثر من ذلك تحالفوا مع الصليبيين ضدهم ولو أنه قدم المساعدة لهم لما وصل الصليبيون إلى بيت المقدس، ولو اعتبرنا عبثا أنهم وصلوا، فإن السلاجقة حتما كانوا سيقدمون المعونة للفاطميين.

2- مقاومة حامية عسقلان:

رغم أن أغلب المدن الفلسطينية سقطت بيد الصليبيين، إلا أن عسقلان ظلت عصية عليهم حيث لم يتمكنوا منها رغم تعدد المحاولات، وبما أنها لم تسقط

[1] مؤرخ مجهول: نفس المصدر السابق، ص 116.
[2] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج05، ص 146.

بأيدي الصليبيين، وبحكم موقعها الذي يتوسط الطريق بين فلسطين ومصر، فإنها ظلت دوما منطلق العمليات العسكرية، سواء القادمة من مصر، أو منها هي بحد ذاتها، فقد دافعت حاميتها عن المدن الإسلامية كثيرا ووجهت عدة حملات عسكرية كلما سنحت لها الفرصة.

الإغارة على بيت المقدس ويافا

يبدو أن العسقلانيين كانوا يترقبون كل ما يحدث في المدن المجاورة لهم، ولذلك فإنهم

اغتنموا فرصة خروج بلدوين إلى طبرية، في سنة (519هـ/1115م) في مهم خاصة به[1] واضطرته الظروف للبقاء مع جميع قواته هناك[2]، ليخرجوا في عسكر ضخم إلى الإقليم الجبلي ومن ثم إلى بيت المقدس لمحاصرته، الذي لم تكن به قوات صليبية كافية للدفاع عنه، وبالنظر إلى ضيق الوقت فإنهم قاموا بغارات خاطفة على المناطق المجاورة لبيت المقدس، واستمروا على ذلك بضعة أيام[3].

وفي نفس السنة خرج بلدوين، إلى أنطاكية لنصرة إخوانه الصليبيين بعد أن جمع لهم طغتكين جموعه للهجوم على المدينة، فاغتنم العسقلانيون هذه الفرصة، ليخرجوا بجيش كبير لمحاصرة يافا، وكان في مساعدتهم هذه المرة أسطول فاطمي مؤلف من سبعين سفينة، ويبدو أنه كان يريد احتلال كافة المدن الساحلية التي يمر بها، أما الجيش البري المكون من آلاف كثيرة من الجند فقد تبعهم ناشرا راياته حيث ظهر فجأة أمام المدينة[4].

ولما وصلوا إلى المدينة، أحاطوا بها من كل جانب، وبدأوا بالإغارة عليها، وأقاموا عليها سلالم لتسلق الأسوار، غير أنهم لم يتمكنوا من ذلك، فقد كان القيمون على السور حريصين على ألا يدعوا الأعداء يتسلقون السور، ولذلك راحوا يرمونهم بالسهام حتى ردوهم عن الأسوار، ولم يتمكنوا من دخولها، إلا أنهم أحدثوا بالمدينة أضرارا بالغة، حيث تداعت أجزاء من السور، كما احترق جزء من أبواب المدينة.

وأخيرا وبعد أن أدرك الفاطميون، أنهم لن ينالوا من المدينة منالا، قرروا الانسحاب وكانت قد هبت ريح مواتية لسير السفن فانسحبوا، ولكن هذا الانسحاب كان خطة اتخذها الفاطميون لإيهام أهل يافا بأنهم رحلوا نهائيا، فعادوا مرة أخرى بعد عشرة أيام، ولم يشعر بهم أحد إلى أن ظهروا أمام المدينة

---

[1] هانس إبرهارد ماير: نفس المرجع السابق، ص 146.
[2] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص 302.
[3] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 155.
[4] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج2، ص 303.

فجأة، إلا أنهم لم يتمكنوا منها مرة أخرى بعد أن استمات أهلها استبسالا كبيرا، وما ساعدهم على الصمود، هو علمهم باقتراب الملك بلدوين منهم، الذي جاء لمساندتهم، إضافة إلى قلة أعدائهم هذه المرة بالمقارنة مع المرات السابقة[1].

كانت هذه هي المحاولات التي قامت بها الحاميات الفاطمية لمواجهة الصليبيين، وإن كانت قليلة إلا أنها محاولات تحسب لهم، فإذا نظرنا إلى ما فعلته حامية عسقلان عندما خرجت إلى بيت المقدس مرة، ومرتين إلى يافا، نجد أنها قد أدت واجبها، وإن كانت محاولاتها محدودة إلا أنه لا يمكننا أن نغمطها حقها، ونفس الشيء مع حامية بيت المقدس، التي اتخذت في البداية التدابير اللازمة، لمواجهة الحصار المحتمل، إلا أنها عجزت عن الصمود، واستسلمت ويحق لها ذلك إذا أخذنا بعين الاعتبار المجازر الشنيعة التي ارتكبها الصليبيون بأهل القدس، فلو أنها لم تستسلم للاقت نفس المصير، ولن يفيدها ذلك شيئا.

[1] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 156.

الفصل الرابع

العدوان الصليبي على مصر وموقف الفاطميين منه

أولا- العدوان الصليبي على مصر
ثانيا- موقف الفاطميين من العدوان الصليبي على مصر

أولا- العدوان الصليبي على مصر

تمهيد

بعد أن تمكن الصليبيون من إحكام سيطرتهم على فلسطين وأغلب بلاد الشام، راحوا يوجهون أنظارهم إلى مصر، للسيطرة عليها وضمها إلى ممتلكاتهم، وقد كانت هذه الأخيرة مصدر قلق كبير لهم، حيث كانت أغلب الحملات العسكرية الموجهة ضدهم، تخرج منها بحكم أن أغلب المدن التي استولى عليها الصليبيون في كل من فلسطين وجنوب بلاد الشام كانت تابعة لها، ولذلك وجهوا إليها عدة حملات عسكرية، اختلفت في قوتها وزمن خروجها غير أنها لم تختلف عن سابقاتها من حيث الجرائم المرتكبة في حق الشعوب.

أ- في عهد بلدوين الأول (1101-1118م)

1- مصر في سياسة الصليبيين

تطلع الصليبيون منذ عهد مبكر إلى غزو مصر، ففي عام (492هـ/1099م) ناقش قادة الحملة الصليبية الأولى اقتراحا بمهاجمة الفاطميين في مصر لأن هذا البلد يملك مفاتيح بيت المقدس، إلا أنهم لم يتمكنوا من وضع خطتهم هذه موضع التنفيذ، لأنهم كانوا في وضع لا يسمح لهم بغزو مصر قبل السيطرة على بيت المقدس بالذات.

واتجهت حركة الوحدة الإسلامية منذ منتصف القرن الثاني عشر الميلادي إلى الشمال وكانت مخاوف الصليبيين من ضم دمشق على يد نور الدين محمود[1]، وتحقيق وحدة بلاد الشام الإسلامية محلها، بعد احتكاكهم بالزنكيين في الجزيرة، واصطدامهم بالمشروع الذي تجلى بعد فتح الرها في عام (539هـ/1144م) على يد عماد زنكي، والد نور الدين محمد، متجاوزا في أبعاده بلاد الشام إلى مصر، تنفيذا للمرحلة التالية من خطة نور الدين محمود الهادفة إلى استعادة بيت المقدس، وإخراج الصليبيين من المنطقة[2].

غير أن الصليبيين لم يغفلوا، أمر مصر، في هذه الفترة، بعد أن ظهر للعيان مدى ضعف الدولة الفاطمية، وعجزها عن الاحتفاظ بكيانها، وأجبرتهم حركة الوحدة الإسلامية إلى التوسع نحو الجنوب الغربي على حساب مصر والفاطميين، وذكر بعض المؤرخين أن الملك بلدوين الثالث هدد بغزو مصر في

---

[1] نور الدين محمود: هو محمود بن زنكي (عماد الدين) بن آقسنقر أبو القاسم نور الدين، الملقب بالملك العادل، ملك الشام وديار الجزيرة ومصر، وهو أعدل ملوك زمانه، وأجلهم وأفضلهم، كان من المماليك (جده من مولي السلجوقيين) ولد في حلب سنة (511هـ/1118م)، وانتقلت إليه إمارتها بعد وفاة أبيه سنة (541هـ)، وكان ملحقا بالسلاجقة، فاستقل وضم دمشق إلى ملكه مدة عشرين سنة، وامتدت سلطته في المماليك الإسلامية حتى شملت جميع سورية الشرقية وقسما من سورية الغربية، والموصل وديار بكر والجزيرة ومصر وبعض بلاد المغرب، وجانبا من اليمن، وخطب له بالحرمين...، أبو الفدا: التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تقديم وتحقيق وتعليق: محمد زينهم محمد عزب، مكتبة الثقافة الدينية (القاهرة)، (1415هـ/1995م)، ص 63.

[2] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 475.

عام (555هـ/1161م)، منتهزا فرصة الفوضى التي عمتها عقب مقتل الفائز، لكن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تثنيه عن محاولته مقابل تعهدها بدفع جزية سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار[1]، لكن هذه الجزية لم يجر دفعها مطلقا.

على أن غزو مصر، اتخذ طابعا عمليا واسع النطاق على يد عموري الأول ملك بيت المقدس (558-569هـ/1163-1174م)، الذي اتخذ من عدم دفع الجزية المشار إليها ذريعة لمهاجمة مصر، والواقع أن عدم دفع الجزية لم يكن إلا دافعا ظاهريا، أما الأسباب الحقيقية فتكمن في دافعين: سياسي واقتصادي.

فمن حيث الدافع السياسي، يعد عهده فاتحة مرحلة جديدة في الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين، وذلك بما أحدثه من تغيير جذري في سياسة الصليبيين الخارجية تجاه مصر، وهي سياسة تختلف تماما عن سياسة أسلافه، وإن توافقت مع النهج الصليبي القديم، حيث واجه عموري الأول مشكلة كبرى تمثلت بالانتصارات المتوالية لنور الدين محمود، جعلت الكيان الصليبي في طريقه إلى الانهيار، لذلك رأى توسيع رقعة ممتلكاته في تجاه آخر، هو مصر.

وارتكزت سياسته الخارجية على القيام بسلسلة المحاولات لغزو هذا البلد والسيطرة عليه للالتفاف على نور الدين محمود، لأنه لو حدث أن وضع يده عليه فإن من شأن ذلك أن يعرض الإمارات الصليبية للحصار والزوال.

ومن حيث الدافع الاقتصادي فإنه لم يغب عن تفكير عموري الأول تجارة مصر الضخمة وميناء الإسكندرية الكبير الذي يعمل على رواج تلك التجارة، بالإضافة إلى حركة التجارة العالمية التي تمر عبر هذا البلد الذي يتحكم في أقصر وأفضل الطرق التجارية الشرقية[2].

2- حملة بلدوين الأولى على مصر

الواقع أن ما حدث في عسقلان من ناحية، وفي صور من ناحية أخرى إنما يدل على بداية صحوة إسلامية في جنوب بلاد الشام، ولم تلبث هذه الصحوة أن امتدت الدولة الفاطمية فتقدم جيش فاطمي في عام (507هـ/1113م)، لمهاجمة بيت المقدس، في الوقت الذي كان فيه بلدوين منصرفا لقتال المسلمين في الشمال، ووصل أفراده إلى أسوار المدينة، إلا أنهم لم يتمكنوا من اقتحامها بفعل متانة أسوارها، فعادوا من حيث أتوا[3]، وقام الفاطميون بهجوم على يافا في عام (509هـ/1115م)، وكاد النصر ينعقد لهم، لكن الجيش الفاطمي عاد أدراجه إلى مصر دون أن يحقق شيئا[4].

---

[1] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج3، ص387. ، ستيفن رنسيمان: نفس المصدر السابق، ج2، ص 592.
[2] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 476.
[3] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، ص 161.
[4] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج3، 227.

ويبدو أن لهذا الفشل علاقة بالمدى الذي وصل إليه بلدوين في ترتيباته لغزو مصر نفسها لعل أهمها:

- عمل على حماية مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب الشرقي، عن طريق السيطرة على الصحراء الممتدة جنوب البحر الميت حتى خليج العقبة، وهي المنطقة المعروفة باسم وادي عربة، ولا يخفى ما لهذا المشروع من أهمية دفاعية، بالإضافة إلى عزل مصر عن بقية العالم الإسلامي في الشرق، وقطع الطريق البري الذي يربط بينها وبين بلاد الشام والعراق والحجاز[1].
- شيد حصن الشوبك ليكون مركزا يمكن الصليبيين من السيطرة على كل وادي عربة.
- بنى في عام (510هـ/1116م) قلعة حصينة في أيلة على ساحل خليج العقبة للتحكم في طريق القوافل بين مصر وبلاد الشام.
- أقام قلعة في جزيرة فرعون الواقعة تجاه أيلة، مما مكن الصليبيين من الإشراف على شبه جزيرة سيناء[2].

ولم يبق أمامه سوى مهاجمة مصر، فقاد قوة صغيرة مؤلفة من مائتين وستة عشر فارسا وأربعمائة راجل، وعبر الصحراء من غزة إلى العريش حتى وصل إلى الفرما الواقعة على ساحل البحر المتوسط داخل الحدود المصرية، فاستولى عليها وأحرق مساجدها، ثم مضى في توغله حتى وصل إلى مصب نهر النيل، لكنه لم يتمكن من التوغل أبعد داخل الأراضي المصرية، بفعل قلة قواته، ولمرضه المفاجئ الذي ألم به، إذ انتابته حمى بعد أكلة سمك[3].

ب- في عهد عموري الأول

1- حملتي عموري الأولى والثانية على مصر

كان بلدوين الثالث قد هدد بغزو مصر في عام (555هـ/1161م)، منتهزا فرصة الفوضى التي عمتها عقب مقتل الفائز، لكن الحكومة الفاطمية استطاعت أن تثنيه عن محاولته مقابل تعهدها بدفع جزية سنوية قدرها مائة وستون ألف دينار[4]، لكن هذه الجزية لم يجر دفعها.

1. أ- الحملة الأولى

والواقع أن فكرة احتلال مصر من قبل الصليبيين، ظلت راسخة في أذهانهم، وقد تبادر إلى ذهن عموري الأول توجيه حملة للسيطرة عليها،

---

[1] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 463.
[2] المرجع نفسه.
[3] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج5، ص 171
[4] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج3، ص230.

متحججا بعدم دفع حكامها للجزية المتفق عليها فتحرك في شهر (ذي الحجة عام 558هـ/أكتوبر1163م)، على رأس جيشه متوجها إلى مصر مدركا في الوقت نفسه أن ضعف الحكم الفاطمي، وتنافس أرباب السلطة، سييسر له تحقيق مطالبه كاملة[1].

وصل الجيش الصليبي إلى العريش دون أن يلقى أية مقاومة، والتقى بالجيش الفاطمي فهزمه ثم تابع تقدمه إلى بلبيس[2] وحاصرها، وضيق الخناق عليها حتى كادت تسقط في يده لولا أن ضرغاما استغل فرصة فيضان النيل ليحطم السدود، فساح الماء وأغرق الأرض، الأمر الذي أرغم الملك الصليبي على الانسحاب والعودة إلى بيت المقدس[3].

وعلى الرغم من عودته فاشلا، إلا أنه استفاد كثيرا، من حملته هذه، فقد أدرك أن الدولة الفاطمية، ليست قوية بالقدر الكافي لتصمد أمام حملة كبيرة، وذلك لضعفها الظاهر بسبب النزاع الدائر بين الوزراء على الاستئثار بالنفوذ، إضافة إلى انتشار الفوضى والاضطرابات، كما أنه أدرك أن وسائل الدفاع بها منعدمة، وشجعه كل ذلك على التخطيط للقيام بغزوة كبرى تمكنه من وضع يده على مصر.

1.ب- الحملة الثانية

كانت أعين عموري الأول متوجهة إلى مصر بعد حملته الأولى، وكان ينتظر فقط الفرصة المواتية لشن حملته عليها، وقد جاءته هذه الفرصة، عندما استعان به شاور[4] على أسد الدين شيركوه[5]، فبادر هذا الأخير إلى عقد مجلس في بيت المقدس حضره كبار المملكة، وتقرر فيه تلبية دعوة شاور، بعد أن أكد لأعضاء المجلس أنه باستطاعته تنفيذ حملة على مصر، دون أن يخل بأمن

[1] ستيفن رنسيمان: نفس المرجع السابق، ج02، ص 592.

[2] بلبيس: وهي مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشر فراسخ عن طريق الشام، يسكنها عبس بني بغيض...، ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج02، ص 479.

[3] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج3، ص 397.

[4] شاور: هو أبو شجاع شاور بن مجير الدين بن نزار بن عشائر بن شأس، بن مغيث بن حبيب بن الحارث بن ربيعة بن يخس بن أبي ذؤيب عبد الله، وهو والد حليمة السعدية، مرضعة الرسول صلى الله عليه وسلم، كان الصالح بن رزيك وزيرا للعاضد، صاحب مصر قد ولاه الصعيد الأعلى من ديار مصر، ثم ندم على توليته...، ثم إن شاور تمكن في الصعيد، وكان ذا شهامة ونجابة وفروسية، وكان الصالح قد أوصى ولده العادل رزيك أن لا يتعرض لشاور بمساءة ولا يغير عليه حاله، فإنه لا يأمن عصيانه، والخروج عليه...، وقدم من الصعيد على واحات، واخترق تلك البراري إلى أن خرج عند تروجة، وتوجه إلى القاهرة، ودخلها يوم الأحد الثاني والعشرين من المحرم سنة ثمان وخمسين وخمسمائة وهرب العادل رزيك، وأهله من القاهرة، ليلة العشرين من المحرم، ثم قتل العادل وأخذ مكانه من الوزارة...، ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج2، ص 439-440.

[5] أبو شامة شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي: الروضتين في أخبار الدولتين النورية الصلاحية، مطبعة وادي النيل (القاهرة)، (1287هـ/1870م)، ج01، ص 330.

مملكته، خصوصا وقد وصلت جموع من الحجاج لزيارة بيت المقدس، ومن الممكن أن يستفيد منهم في المجهود الحربي، وقرر بأن يتولى بوهيموند الثالث أمير أنطاكية إدارة شؤون المملكة خلال غيابه[1].

وأسرع ملك بيت المقدس بالزحف إلى مصر على رأس قواته للمرة الثانية في شهر (رمضان559هـ/أوت1164م)، واتصل فور وصوله إلى فاقوس[2]، بشاور واتفقا على حصار أسد الدين شيركوه في بلبيس، وصمد هذا الحصن للحصار مدة ثلاثة أشهر دافع أسد الدين خلالها عن مواقعه[3]، وفجأة قرر عموري الأول الدخول في مفاوضات معه للجلاء المزدوج عن مصر بعد أن تلقى أنباء سيئة من بلاد الشام، بتعرض ممتلكاته لضغط من نور الدين محمود ففضل العودة للدفاع عنها، كما أنه أدرك في الوقت نفسه أنه لن يستفيد شيئا من حملته هذه طالما أن أسد الدين شيركوه لا يزال متمنعا داخل أسوار بلبيس.

وحتى أسد الدين شيركوه الذي أدرك هو الآخر صعوبة موقفه، بعد أن بدأت أقواته بالنفاذ قرر قبول عرض الأعداء بالدخول في المفاوضات من أجل الجلاء عن مصر[4].

وفعلا تم الاتفاق بين الرجلين على الخروج من مصر في شهر ذي الحجة، وسار الجيشان الإسلامي والصليبي في طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء، بعد أن تركا شاور يسيطر على مقاليد الحكم، وكان أسد الدين شيركوه آخر من غادر البلاد للحاق بجيشه[5].

وقد أسفرت هذه الحملة عن عدة نتائج، فقد تمكن عموري الأول من إرغام أسد الدين شيركوه على الانسحاب من مصر، والتخلي عن المواقع التي دخلت تحت سيطرته، وفي المقابل نالوا قدرا كبيرا من النفوذ المادي والمعنوي عند شاور، فهم الذين ساندوه وأجبروا أسد الدين على الانسحاب.

هذا وقد نال نور الدين محمود من خلال هذه الحملة، مكاسب في شمال بلاد الشام بعد غاراته التي نفذها تنفيسا عن أسد الدين شيركوه، وبذلك تراجعت أملاك الصليبيين إلى الساحل، واستبد اليأس بهم[6].

ومهما يكن من أمر، فقد غادر كل من شيركوه وعموري الأول أرض مصر، بعد أن تعرف كل طرف على ما تعانيه مصر من تردي أوضاعها

[1] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 462.
[2] فاقوس: اسم مدينة في جوف مصر الشرقي، وهي آخر ديار مصر من جهة الشام في الجوف الأقصى، أنظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج4، ص 232.
[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج9، ص 465-466.
[4] المصدر نفسه.
[5] ستيفن رنسيمان: نفس المرجع السابق، ج2، ص 595.
[6] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص485.

السياسية، وسوء أحوالها الاقتصادية بالإضافة إلى ما تتمتع به من ثروة وفيرة بشرية هائلة ترجح كفة من يضع يده عليها.

2- حملة عموري الثالثة على مصر

كان للخيانة الأخيرة التي أحدثها شاور بقوات نور الدين محمود، كبير الأثر في نفسيته ونفسية قادته، ولذلك قرروا تأديبه من خلال حملة يرسلونها إلى مصر ليقضوا عليه[1]، ولما علم شاور بذلك، أرسل إلى عموري يطلب مساعدته، وهو ما رآه عموري الأول فرصة ثمينة للانقضاض على مصر.

خرج عموري الأول من بيت المقدس في شهر (ربيع الأول عام 562هـ/جانفي1167م) متوجها إلى مصر في حملته الثالثة على هذا البلد، واجتاز الطريق المألوف من غزة إلى العريش، ثم اخترق الصحراء إلى بلبيس، ولما علم به شاور، وعلم بمجيء أسد الدين شيركوه أيضا، انضم إلى القوات الصليبية لمواجهة أسد الدين شيركوه.

2.أ- معركة البابين[2]

استعدت القوات الصليبية وقوات شاور المتحالفة معها، للالتحام بقوات أسد الدين شيركوه، وإجبارها على مغادرة مصر، وظل الجيشان مدة شهرين يراقب كل منهما الآخر، ثم حدث أن اجتازت قوى التحالف النيل إلى جزيرة الوراق في رأس الدلتا على الضفة الغربية وفاجأت وحدة من جيش أسد الدين شيركوه[3].

وبعد دراسة الوضع العسكري، أدرك أسد الدين شيركوه، أن قوى التحالف، تفوقه عددا وعدة، خصوصا بعد وصول قوات صليبية إضافية وصلت حديثا من بيت المقدس، مما شجع عموري الأول على الثبات، ولم يسع أسد الدين شيركوه حينها سوى الانسحاب من المنطقة وتوجه إلى الصعيد ملتزما النيل، فاقتفى عموري الأول وشاور أثره وتركا قبل مسيرهما قوة عسكرية لحماية القاهرة بقيادة الكامل بن شاور وهيو أبلين[4].

على أن دخول هيو إلى القاهرة، والسماح للصليبيين بالتردد على القصر، أقلق الدوائر الإسلامية الحاكمة، عندئذ لم يسع أسد الدين شيركوه إلا أن يدخل في المعركة، فقام بعبور النيل من جديد على مسافة غير بعيدة من مدينة المنيا

[1] ابن سباط الغربي حمزة بن أحمد بن عمر: صدق الأخبار في تاريخ بن سباط، عني به وحققه: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، بدون طبعة، ج1، ص 117.
[2] البابين: قرية تقع إلى الجنوب من مدينة المنيا بعشرة أميال وهي عند أطلال مدينة هيرموبوليس القديمة وهي من أعمال منية بني خصيب. محمد مؤنس أحمد عوض: في الصراع الإسلامي الصليبي(السياسة الخارجية للدولة النورية 541-569هـ/1146-1174م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية الاجتماعية، (1998م)، ص95.
[3] المرجع نفسه.
[4] ابن ظافر الأزدي: نفس المصدر السابق، ج1، ص 262.

في مصر الوسطى وعسكر في الأشمونين وجرى اللقاء بينه وبين قوى التحالف في البابين القريبة من الأشمونين، حيث حشرت القوى المتحالفة جيشه وضيقت الخناق عليه[1].

والتحم الخصمان في معركة طاحنة في(25جمادى الآخرة 562هـ/18أفريل1167م) وكر الصليبيون على قلب العسكر النوري، في محاولة لضربه وزعزعة الجناحين، فتقهقر صلاح الدين متظاهرا بالهزيمة، وفق الخطة الموضوعة، وتخلى عن مواقعه، فتبعه الملك الصليبي وفرسانه في عملية مطاردة، عندئذ التف أسد الدين شيركوه بجناحي الجيش على جيش التحالف الذي تبدد وتحطم، ووجد عموري الأول نفسه محصورا من جميع الجهات، ولقي عدد كبير من فرسانه مصرعهم، بينما وقع آخرون في الأسر ومنهم هيو، سيد قيسارية، وأرنولف صاحب تل باشر واضطر الملك الصليبي إلى التراجع بمن تبقى من جيشيهما إلى القاهرة وانضما إلى حاميتها.

2.ب- حصار الإسكندرية

أدرك أسد الدين شيركوه أن بقاءه حيث هو غير مأمون العواقب، في ظل خيانة شاور وقرر التوجه إلى الإسكندرية، للتحصن فيها، وبخاصة أن سكانها الذين كرهوا شاور، وأنفوا من استعانته بالصليبيين أعداء دينهم ووطنهم، وإحساسهم بخطورة الحملات الصليبية البحرية جعلهم يرحبوا بمقدمه ويبدوا استعدادهم لمساندته طائعين، فدخلها بغير قتال[2].

أما عموري الأول فقد أعاد تنظيم صفوف قواته، وتقوى بما وفد عليه من إمدادات، وخرج بهم إلى الإسكندرية، فألقى عليها الحصار، وساندته السفن الصليبية من جهة البحر[3]، وخشي أسد الدين شيركوه أن يحصره الصليبيون مع جميع قواته داخل الإسكندرية، فترك ابن أخيه صلاح الدين نائبا عنه فيها وفصل معه ألف جندي، في حين توجه هو على رأس القسم الآخر من الجيش، عائدا إلى الصعيد في شهر شعبان، مجتازا معسكر عموري الأول، الذي اشتد غضبه، وأراد أن يمضي لمطاردته غير أن شاور نصحه بالتروي، وترك شيركوه وشأنه، لأن استعادة الإسكندرية أهم من ذلك[4].

وفي الوقت الذي توغل فيه أسد الدين شيركوه في الصعيد حتى قوص[5]، اشتد حصار الصليبيين للإسكندرية، حتى أشرفت المدينة على المجاعة، وضاعف

[1] سيد علي الحريري: نفس المصدر السابق، ص 125.
[2] ابن الوردي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 70.
[3] محمود سعيد عمران: نفس المرجع السابق، ص 112.
[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 04.
[5] قوص: مدينة كبيرة عظيمة واسعة، قصبة صعيد مصر، ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج04، ص 413.

عموري الأول حصاره ليستسلم الأهالي ويضعف روحهم، لينصرفوا عن نصرة صلاح الدين[1].

ولم كاد شهر رمضان ينتهي حتى وجد صلاح الدين نفسه في موقف عصيب، فأرسل إلى عمه يلتمس منه النجدة العاجلة، واضطر أسد الدين شيركوه نتيجة ذلك إلى العودة شمالا حيث عسكر في بركة الحبش في ظاهر الفسطاط، بهدف مهاجمتها وامتلاكها في محاولة لتخفيف الضغط عن الإسكندرية، غير أن مقاومة هيو أبلين أفسدت عليه الخطة، وإذ ذاك أدرك صعوبة امتلاك مصر، وأنه لم يعد بوسعه عمل أكثر مما عمل، فقرر التفاوض مع الجانب الصليبي للاتفاق على حل يرضي الطرفين[2].

وقد اختلفت المصادر فيمن بدأ بالصلح، حيث يذكر ابن الأثير، أن الصليبيين كانوا البادئين في طلب الصلح، إذ أنه لما اشتد حصار الصليبيين لصلاح الدين سار أسد الدين شيركوه من قوص إليهم، فجاءته رسلهم **" يطلبون الصلح، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجاب إلى ذلك، وشرط على الفرنج ألا يقيموا بالبلاد ولا يتملكوا منها قرية واحدة، فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا وعادوا إلى الشام "[3].**

بينما يقول الصليبيون أن أسد الدين شيركوه كان هو البادئ بطلب الصلح، بعد أن قام بإرسال أحد الأسرى الصليبيين، وهو أرنولف صاحب تل باشر، إلى عموري الأول يعرض عليه عقد الصلح، مقابل الجلاء عن مصر، وعرض عليه مجموعة من الشروط وهي:

- رفع الحصار عن الإسكندرية.
- تبادل الأسرى.
- يخرج شيركوه مع عسكره من مصر.
- لا يتعرض له الصليبيون في الطريق[4].

ولما تدارس الملك وقادته بحضور شاور، هذه الشروط، وجدوها تتوافق مع بنود الاتفاقية المبرمة بين عموري الأول والعاضد من قبل، وقرروا قبول العرض، وتحددت الشروط النهائية على الشكل التالي:

- وضع مدينة الإسكندرية في يد الملك عموري الأول.
- تبادل الأسرى بين الجانبين.
- إطلاق سراج الجند النوري الموجودين داخل الإسكندرية.
- تغادر جميع القوات النورية والصليبية مصر[1].

---

[1] سيد علي الحريري: نفس المصدر السابق، ص 126.
[2] المصدر نفسه.
[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 05.
[4] هانس إبرهارد ماير: نفس المرجع السابق، 219.

والواقع أن إذعان عموري الأول وقبوله لمشروع الصلح مع أسد الدين شيركوه كان اضطراريا، فقد رأى بأن مصلحته تقضي التفرغ لتأمين مدنه ببلاد الشام، التي تعرضت لهجومات نور الدين محمود، بينما رحب أسد الدين شيركوه بهذا الصلح لأن أدرك استحالة امتلاكه مصر وهو بهذا الضعف.

ودخل عموري الأول مدينة الإسكندرية في شهر شوال، في حين غادرها صلاح الدين تاركا وراءه فراغا رهيبا وسط السكان، وقبل خروجه التقى بعموري الأول، الذي أعجب به كثيرا، حتى قام بإمداده ببعض المراكب لنقل جرحاه إلى بلاد الشام[2]، وفي شهر ذي القعدة غادر وصلاح الدين وعمه مصر، في حين تأخر عموري الأول لبضعة أسابيع، لأنه مر بالقاهرة ليثبت الحماية الصليبية على الدولة الفاطمية وشاور وكانت أهم مظاهرها:

- دفع جزية سنوية للصليبيين قدرها مائة ألف دينار للصليبيين.
- بقاء قوة من فرسانهم تحمي أبواب القاهرة، لتدفع نور الدين محمود إن كرر الهجوم.
- إقامة مندوب عن الملك الصليبي في القاهرة ليشارك في شؤون الحكم.

والراجح أن فكرة تملك مصر كانت لا تزال ناشطة في تفكير عموري الأول السياسي، ولم يعد بوسعه أن يتخلى عنها، وهو يريد العودة إليها بعد إقرار الأمور في بلاد الشام، وذلك طمعا في ثروتها وحماية لكيانه في بلاد الشام، ثم عاد الملك إلى فلسطين[3]، وبهذه الإجراءات تأكدت الحماية على مصر، وترتب على هذا استمرار التنافس بين نور الدين محمود وعموري الأول.

ج ـ التعاون الصليبي البيزنطي لاحتلال مصر

يبدو أن مستقبل مصر، بعد هذه الأحداث، صار مرهونا بما ستسفر عنه المنافسة القائمة بين نور الدين محمود وعموري الأول، غير أن الكفة كانت راجحة لعموري الأول، كونه ترك حامية عسكرية من فرسانه، في مصر تراقب ما يجري في داخلها، ولتدافع عنها في حال تعدت عليها أية قوة خارجية.

والحقيقة أن فكرة العودة إلى مصر لم تغب عن ذهن عموري الأول، لكنه أدرك أنه ليس بمقدوره تحقيق هذه الغاية لوحده، فأرسل إلى الإمبراطور البيزنطي مانويل يطلب التحالف معه متحاشيا إخوانه الصليبيين لتخوفه من أطماعهم[4]. وافق الإمبراطور البيزنطي على طلبه، فقد كان هذا الأخير يرى أن مصر كانت ضمن أملاك الإمبراطورية فيما سبق، وآن الأوان لاسترجاعها

[1] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 493.
[2] أبو شامة: نفس المصدر السابق، ص 427.
[3] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج05، ص 333.
[4] هانس إبرهارد ماير: نفس المرجع السابق، ص 220.

ومما زاد في توثيق هذا التحالف، هو إقدام عموري الأول على مصاهرة مانويل بأن تزوج بابنة عمه ماريا[1].

وإذا كان الرجلان قد اتفقا مبدئيا على التحالف، فقد كان لابد من إقامة معاهدة تكون كفيلة بتحديد معالم هذه العملية، ولذلك فقد أرسل عموري الأول صديقه ويليام الصوري إلى القسطنطينية للتباحث مع الإمبراطور، وخوله صلاحية الموافقة على ما يبرم من اتفاق بينهما وانتهت المباحثات بينهما، بعقد معاهدة تتلخص شروطها في، قيام البحرية البيزنطية بالتعاون مع القوات البرية الصليبية بغزو مصر، على أن تحصل الإمبراطورية على جزء معين من أرضها واقتسام الغنائم التي تسلبها الحملة، كما اتفق الطرفان أن تكون القيادة العليا للجيشين الصليبي والبيزنطي بإمرة عموري الأول[2].

1- حملة عموري الرابعة على مصر

1.أ- زحف الحملة:

والواقع أن الملك عموري الأول، لم ينتظر وصول مبعوثه إلى الإمبراطور لينهض على رأس جيشه، ويزحف إلى مصر تحت إلحاح من بها من الصليبيين، فقد ترامى إلى مسامعهم ما تم من الاتفاق، بين عموري الأول ومانويل بشأن احتلال مصر، وخشوا أن يشاركهم البيزنطيون في
ثرواتها، فكتبوا إلى عموري الأول يستدعونه للاستيلاء عليها، كما شجعوه على اغتنام فرصة انهماك نور الدين محمود في نزاعه مع شهاب الدين مالك العقيلي، صاحب قلعة جعبر[3].

ولعل ما ساعده في ذلك أيضا، هو قدوم جماعة كبيرة من الفرسان الأوربيين إلى فلسطين يحذوهم حماس كبير في الدفاع عن النصرانية، استغلهم كبار مملكة بيت المقدس، ليضغطوا على الملك حتى يقوم بهذه الحملة.

ونتيجة لهذه التطورات السياسية، دعا الملك عموري الأول المجلس إلى الانعقاد للتشاور في هذا الأمر، وقد تباينت آراء الزعماء الصليبيين خلال جلسات المناقشة، حيث رأى الملك عموري الأول الاكتفاء بسياسة الحماية ما دامت مصر تدفع الجزية، تجنبا للدخول في الحرب مع أهل مصر ونور الدين، الذي لن يسكت عن احتلال مصر، بينما أصر الباقون على الدخول في الحرب، بل والتعجيل بها بالنظر إلى الضعف الظاهر لصاحبها وهو شاور[4].

---

[1] المرجع نفسه.
[2] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 495..
[3] ابن الوردي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 72.
[4] ستيفن رنسيمان: نفس المرجع السابق، ج02، ص 613.

عاد وليام الصوري إلى بيت المقدس حاملا معه المعاهدة المبرمة مع البيزنطيين، ليجد أن الملك عموري الأول قد خرج على رأس حملته إلى مصر، وحتى يصرف نظر نور الدين محمود عنه، أشاع بأنه سوف يهاجم حمص[1]، إلا أن نور الدين علم بمقصده، **" فكاتب الأمراء بالقدوم عليه، واستقدم العساكر للنهوض إلى عموري ودفعه عن قصده "**[2].

ولم يعلم القيمون على الدولة الفاطمية بأمر هذه الحملة، ولذلك فإنهم استفسروا عن دواعي مجيئها، ليجيبهم عموري الأول بأنه خرج لتأديب شاور لتوقفه عن دفع الجزية المقررة عليه للصليبيين، وقال لهم إنه إن حصل على الجزية فإنه سيتراجع، لكنه واصل سيره حتى وصل إلى بلبيس في شهر صفر[3].

1.ب- احتلال بلبيس:

والواقع أن الملك عموري الأول لم يكن يتوقع أن تغلق أبواب المدينة في وجهه، ليعسكر فيها بجيشه، فقرر أن يضرب الحصار عليها، لكنه ما لبث أن اقتحمها بعد ثلاثة أيام من الحصار والمقاومة الشديدة، وذلك لقلة المدافعين عنها، وأسفر دخولهم هذا ذلك عن حدوث مذبحة مروعة في أوساط الأهالي، فقتلوا كل من صادفوه من النساء والشيوخ والأطفال ولم يكتفوا بذلك فقط، بل أتوا على الأخضر واليابس، وهدموا البيوت، وتركوها يبابا داثرة[4].

1.ج- الزحف نحو القاهرة:

مكث عموري الأول في بلبيس مدة خمسة أيام، ثم خرج منها متوجها نحو القاهرة، ولما علم به أهالي القاهرة، قرروا التصدي له والدفاع عن أنفسهم حتى لا يحدث لهم ما حدث مع أهل بلبيس، وبعد عشرة أيام وصل إلى مكان قريب من القاهرة، وعسكر عند بركة الحبش جنوب الفسطاط، إلا أنه لم يتلق أية مساعدة من المصريين الذين هجروا منازلهم بناء على دعوة شاور، الذي فقد الأمل في إمكان حصول تفاهم مع عموري الأول، ولو أن الملك الصليبي أحسن السيرة مع أهل بلبيس ليملك مصر والقاهرة بسرعة[5].

ووصل أثناء ذلك أسطول صليبي إلى بحيرة المنزلة، كان معظم بحارته من الغرب الأوربي يحدوهم الحماس للدفاع عن النصرانية فانقضوا على مدينة تنيس[6]، فأصاب أهلها الرعب والخوف، غير أن هذا الأسطول لم يستطع التقدم

[1] سيد علي الحريري: نفس المصدر السابق، ص 128.
[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 12.
[3] أبو شامة: نفس المصدر السابق، ج01، ص 430. ستيفن رنسيمان: نفس المرجع السابق، ج02، ص 614.
[4] أبو شامة: نفس المصدر السابق، ج01، ص431. شمس الدين الذهبي: دول الإسلام، ج2، ص 67.
[5] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 12.
[6] تنيس: جزيرة في بحر مصر، قريبة من البر ما بين الفرما ودمياط، والفرما في شرقيها. أنظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج01، ص 51.

لمساندة الصليبيين المعسكرين حول القاهرة فقد اعترضته الحواجز الملقاة في عرض النهر، مما فت في عضد الملك عموري الأول الذي كان قد علق عليه الآمال لحصار القاهرة من جهة البحر[1].

ولم تلبث الأخبار أن وصلت إلى أسماع من في مصر بما فيهم عموري الأول، باقتراب الجيش النوري بقيادة أسد الدين شيركوه من مصر، ما اضطر عموري الأول إلى التحرك رفقة جيشه، إلى مدينة فاقوس[2]، لمباغتته، والقضاء عليه قبل أن يتمكن من دخول مصر[3]، لكن خطته هذه، انهارت تماما، عندما علم أن أسد الدين شيركوه قد اخترق الصحراء إلى القاهرة، متجاوزا إياه من ناحية الجنوب، وفعلا دخل القائد النوري القاهرة في (السابع من ربيع الآخر 564هـ/ 08جانفي 1169م) دون مقاومة، وسط ترحيب الخليفة العاضد والسكان بقدومه الذين رأوا فيه منقذا لهم من بطش شاور.

وقد كان مجيء أسد الدين شيركوه هذه المرة أيضا بادرة خير على مصر وسكانها، فبمجرد وصوله واستقراره بمصر، حتى قرر عموري الأول التراجع بعد أن أدرك سيطرته على مصر أمر مستحيل، فأمر أسطوله بالعودة إلى عكا، ثم رحل عن مصر بعد أن يئس من احتلالها[4].

2- الحملة الصليبية البيزنطية المشتركة على دمياط:

والواقع أن عموري الأول قد انزعج كثيرا من تملك نور الدين محمود لمصر، حيث أدرك أن الوحدة بين مصر والشام أصبحت مسألة وقت لا أكثر، وبالتالي فالخطر اقترب أكثر من ذي قبل بمملكته، بعد أن أحاطت القوات الإسلامية بمملكته من الشمال الشرقي والجنوب الغربي كما أن سيطرة نور الدين محمود على الثغور البحرية في شمال مصر، مثل الإسكندرية ودمياط وغيرهما من موانئ الدلتا من شأنها أن تهدد سادة الصليبيين البحرية، بحيث ينتقل الجزء الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى سيادة المسلمين.

وعندئذ رأى عموري الأول أن يستعين بالغرب الأوربي، فأرسل إلى بعض ملوك أوربا يطلب مساعدتهم[5]، غير أنه لم يحصل على شيء، فاضطر مرة أخرى إلى طلب المساعدة من الإمبراطور البيزنطي مانويل، واقترح عليه تجديد الاتفاقية السابقة، بهدف غزو مصر، وهو ما رحب به مانويل، لأنه هو الآخر انزعج من الوحدة التي تمت بين بلاد الشام ومصر، ورأى بأنها انقلاب

---

[1] أيمن فؤاد سيد: نفس المرجع السابق، ص 229-230.
[2] فاقوس: بليدة في نواحي القاهرة بمصر. أنظر ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج03، ص 218.
[3] أيمن فؤاد سيد: نفس المرجع السابق، ص 230.
[4] محمد مؤنس أحمد عوض: نفس المرجع السابق، ص 98.
[5] أيمن فؤاد سيد: نفس المرجع السابق، ص 228.

خطير في توازن القوى بالشرق، فعرض على عموري الأول تعاون الأسطول البيزنطي في الحملة التالية[1].

وبدأ التجهيز لهذه الحملة من الجانبين، حيث قام الإمبراطور البيزنطي في أواخر عام (564هـ/1169م)، بإعداد أسطول بحري ضخم يتألف من مائة وخمسين سفينة حربية من نوع الشواني، مسلحة تسليحا جيدا، وستين سفينة كبيرة لنقل الخيول وهي من النوع المعروف بالطريدة، وما بين عشرة إلى عشرين سفينة من نوع الدرمونة لنقل المؤن وآلات الحرب[2].

وحمل الأسطول من المؤن ما يكفي لمدة ثلاثة أشهر، وهي المدة التي قدرها الإمبراطور لإنجاز المهمة، ثم خرج (منتصف شوال564هـ/جويلية1169م)، متوجها إلى قبرص بقيادة أندرونيقوس كونتوستيفانوس، وفي طريقه وجد سفينتين مصريتين، قبض عليهما وأسرهما وعندما وصل إلى قبرص، أرسل قائده عشر سفن إلى عكا عن طريق ميناء صور، تحمل الأموال المتفق عليها للإنفاق على جند عموري الأول، وتخبره الأسطول البيزنطي في قبرص متوقف، ينتظر استعداداته، غير أن الملك عموري الأول أبطأ في تجهيز قواته، لانهماكه بتنظيم شؤون دولته ولما فرغ من ذلك دعى الأسطول البيزنطي للقدوم إلى عكا في (محرم 565هـ/ سبتمبر1169م)، حيث أعطى أوامره لجميع القوات بالتجمع في عسقلان، وكانت وجهة الحملة مدينة دمياط[3].

2.أ- حصار دمياط:

خرج الجيش الصليبي من عسقلان في شهر (محرم 565هـ/سبتمبر1169م)، واتخذ طريقه إلى مصر عن طريق الفرما، فوصل إلى بحيرة تنيس حيث كان الأسطول البيزنطي بانتظاره هناك، ثم خرجا معا بمحاذاة الشاطئ إلى مدينة دمياط، فوصلاها في (الأول من صفر)، وعسكرت القوات البرية في المنطقة الواقعة بين البحر والمدينة، في حين لم يتمكن الأسطول من التوغل في النيل بسبب وجود السلسلة الحديدية التي تمتد من دمياط إلى برج السلسلة، وبالتالي لم يكن بوسع أفراده أن يمضوا إلى دمياط ليمنعوا ما يرد إليها من عساكر ومؤن عن طريق فرع النيل[4].

والواقع أن القوات المتحالفة تريثت مدة ثلاثة أيام في شن هجومها، وهو ما سمح للحامية بالداخل أن تعزز إمكاناتها[5]، ثم إن كونتوستيفانوس طلب من

[1] هانس إبرهارد ماير: نفس المرجع السابق، ص 221.
[2] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 510.
[3] هانس إبرهارد ماير: نفس المرجع السابق، ص 231.
[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 12.
[5] ستيفن رنسيمان: نفس المرجع السابق، ج02، ص 625.

عموري الأول، أن يبدأ بالهجوم على المدينة في مثل هذا الوقت وقبل أن تمتن استحكاماتها جيدا، وهو ما رفضه عموري، مبديا تخوفه من استحكاماتها وسرعة التدابير المتخذة لشحنها بالجند والمؤن، وقرر أن يشيد أبراجا للحصار، وبذلك ضاع أمل المتحالفين في الاستيلاء على دمياط بسهولة، وكان عليهم بذل جهد أكبر حتى يتمكنوا من اقتحامها، كما لم يتمكن من الدخول في فرع دمياط بقدر يسمح له بمهاجمة المدينة، وبذلك أصبح عاجزا عن تقديم المساعدة العسكرية المطلوبة للقوات الصليبية البرية[1].

وإلى هنا رأى قادة الحملة أن يجتمعوا لتقديم حل نهائي لهذه المعضلة، فبينما رأى كونتوستيفانوس أن تقوم القوات كلها على جميع الأسوار، أحجم عموري الأول عن ذلك ورأى فيها خطرا شديدا، ووقع بعدها بعض القادة الصليبيون في سوء الظن بكونتوستيفانوس حيث رأوا أن اندفاعه إلى احتلال المدينة، هو رغبته في أن تكون دمياط من نصيب الإمبراطور في الغنائم، وما لبثت أن نفذت أقوات الصليبيين تماما، ولم تجد القوات الصليبية ما تأكله سوى ثمار النخيل التي حصلوا عليها من البساتين المجاورة للمدينة ولكن هذه الثمار نفذت هي الأخرى بعد ثلاثة أيام، وكادت القوات البيزنطية تهلك جوعا في الوقت الذي توافرت فيه المؤن في المعسكر الصليبي[2].

وما زاد من سوء الوضع العسكري، هو هبوب رياح قوية مصحوبة بأمطار غزيرة، أغرقت المعسكر الصليبي، فاستغل المسلمون هبوب هذه الرياح الجنوبية وأنزلوا سفينة نفاطة بين قطع الأسطول البيزنطي المكدس في النيل شمالي دمياط، فأنزلت به خسائر فادحة، وكانت هذه العملية بمثابة بداية فشل الحملة، ومعها هزيمة القوات المتحالفة، كما أن هذه الحالة السيئة لقوات التحالف، أعطت أهالي المدينة الثقة في أنفسهم، وتحولوا للهجوم عليها[3]، عندها شعرت القوات المتحالفة بضرورة العودة إلى بلادها حتى لا يهلكوا جوعا أو قتلا، وقرر عموري الأول عقد هدنة مع المسلمين، ليعود إلى بلاده سريعا بعد تفاقم الوضع بها، نتيجة لهجمات نور الدين محمود[4]، وبذلك عادت القوات المتحالفة إلى بلادها عن طريق عسقلان في (28ربيع الأول 565هـ/21ديسمبر1169م)، أي بعد أن مكثت أمام دمياط أكثر من خمسين يوما دون أن تحقق شيئا من أهدافها، وجرى حرق كل أدوات الحصار حتى لا تقع في أيدي المسلمين[5].

[1] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 511.
[2] محمود سعيد عمران: نفس المرجع السابق، ص 115.
[3] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج6ن 06.
[4] ستيفن رنسيمان: نفس المرجع السابق، ج02، ص627.
[5] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 22.

والواقع أن هذه الحملة قد أسفرت عن نتائج جد طيبة للمسلمين، حيث وضعت حدا لطموحات الصليبيين في مصر، وأبانت لهم أن مصر صارت في موقع قوة، وصار بإمكانها تهديد الصليبيين في بيت المقدس، كما أثبتت للقائمين على الدولة الفاطمية، أن دولتهم تعيش أيامها الأخيرة، بعد أن أدركوا أن الوحدة المصرية الشامية وشيكة وفي وقت قريب، وبالتالي فالقضاء على المذهب الشيعي هو العثرة الوحيدة الحائلة دون إتمام مشروع الوحدة.

ثانيا- موقف الفاطميين من العدوان الصليبي على مصر

أ- في عهد الوزير ضرغام

تمهيد

إذا كانت مصر قد تعرضت للعدوان الصليبي منذ وقت مبكر(511هـ/1118م)، فإن ردة فعل القائم عليها يومئذ وهو الوزير الأفضل بن بدر الجمالي، جاءت مباشرة في أعقاب هذا العدوان، لكنه لم يبادر إلى ذلك لوحده وإنما استعان بطغتكين حاكم دمشق السني بعد أن أدرك أنه ليس بمقدوره مجابهة الصليبيين، فأرسل جيوشه إلى عسقلان، وأسطوله إلى صور، ووافق على أن يضع قواته في عسقلان بتصرف طغتكين[1].

ولما شعر بلدوين ملك بيت المقدس بخطورة هذا التحالف، حاول مداهنة طغتكين ليتخلى عن مساندة الفاطميين، فلم يقبل منه ذلك، عند ذلك استعان بإخوانه الصليبيين في كل من أنطاكية وطرابلس، وعسكر شمال عسقلان حيث تجمد الموقف العسكري مدة شهرين أو ثلاثة

[1] ابن القلانسي: نفس المصدر السابق، ص 255.

أشهر عاد بعدها كل طرف من حيث أتى[1].

والواقع أن الصليبيين لم يفكروا بتوجيه حملة أخرى إلى مصر بعد حملة بلدوين الأول، وذلك لإدراكهم بعدم جدواها، في ظل تمتع الدولة الفاطمية بنوع من القوة خلال هذه الفترة، لكنهم كانوا يتحينون أية فرصة تسنح لهم، ليوجهوا لها حملة أخرى، بغرض السيطرة عليها، وبذلك يؤمنون المنطقة الغربية والجنوبية الغربية لبيت المقدس، وليستحوذوا على خيرات مصر.

ولم يكن الصليبيون وحدهم يتحينون الفرصة للاستيلاء على مصر، فقد كان نور الدين محمود هو الآخر، يتحين الفرصة للسيطرة على مصر، وذلك لمحاصرة الصليبيين من الشمال والجنوب، والقضاء عليهم نهائيا، وللقضاء على الحكم الفاطمي فيها وإعادتها إلى حاضرة السنة.

والواقع أن مصر كانت حتى هذه الفترة، ترزح تحت نير الصراعات السلطوية بين الوزراء فقد استبد الوزير شاور بالحكم وأساء السيرة مثلما فعل من سبقه، بعد أن ضيق على العاضد[2]

وأساء إليه، وصادر أموال طلائع بن رزيك[3] الوزير السابق للخليفة الفاطمي.

وكان طلائع بن رزيك قد أنشأ فرقة عسكرية سماها البرقية، وعين عليها رجلا يدعى ضرغام بن عامر بن سوار المنذري، ولما تولى شاور الوزارة لم يرض بها ضرغام هذا، لأنه هو الآخر كان طامعا فيها، ولذلك خرج على حكم شاور بعد تسعة أشهر من توليه الوزارة وجرى قتال بين أنصار الرجلين، انتهى بانتصار ضرغام وفرار شاور ومقتل ابنه طيء، فخلع عليه العاضد خلع الوزارة ولقبه بالملك المنصور[4].

سار شاور إلى بلاد الشام للاستنجاد بنور الدين محمود صاحب دمشق، واجتمع به فأحسن نور الدين استقباله وأكرمه، ووعده بمساعدته في العودة إلى مكانه، مقابل امتيازات يحصل عليها نور الدين في مصر[5].

1- استنجاد ضرغام بالصليبيين:

[1] فوشيه الشارتري: نفس المصدر السابق، 185-186.

[2] العاضد: أبو محمد عبد الله العاضد بالله بن الأمير يوسف بن الخليفة الحافظ بالله عبد المجيد بن الأمير محمد بن الخليفة المستنصر بالله معد بن المنصور إسماعيل بن القائم بالله محمد بن عبيد الله المهدي، الفاطمي العبيدي، المغربي الأصل المصري، الحادي عشر من خلفاء بني عبيد بمصر، والرابع عشر بالثلاثة الذين ولوا بالمغرب، المهدي، والقائم والمنصور، ولد سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وقيل سنة أربعين، وبويع في رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة وهو ابن إحدى عشر سنة وشهور...، ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج05، ص 319.

[3] طلائع بن رزيك: هو أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب الملك الصالح، وزير مصر، كان واليا بمنية بني خصيب من أعمال صعيد مصر، سير أهل القصر إلى الصالح، واستنجدوا به على عباس وولده نصر المتفقين على قتله، فتوجه الصالح إلى القاهرة، ومعه جمع عظيم من العربان، فلما قربوا من البلد، هرب عباس وولده وأتباعهما، ومعهما أسامة بن منقذ لأنه كان مشاركا لهما في ذلك على ما يقال، ودخل الصالح إلى القاهرة، وتولى الوزارة في أيام الفائز...، ابن خلكان: نفس المصدر السابق، ج02، ص 526.

[4] ابن ظافر الأزدي: نفس المصدر السابق، ج1، ص 261

[5] تقي الدين المقريزي: اتعاظ الحنفا، ج02، ص 299.

والواقع أن ضرغام الذي كان قبل سنة على عداء مع الصليبيين، بعد أن تصدى لعموري الأول حين حاول في شهر (ذي الحجة عام 558هـ/أكتوبر1163م)، احتلال مصر بحجة أن القائمين عليها توقفوا عن دفع الجزية التي كانت مقررة عليهم، وكان قد اعترضهم في العريش وهم في طريقهم إلى العاصمة المصرية، إلا أنه انهزم أمامهم، فتراجع إلى بلبيس[1] وتحصن فيها فتابعه الصليبيون هناك وضيقوا عليه حتى كادت المدينة تسقط في أيديهم[2].

ولم يجد ضرغام من طريقة يردهم بها، لأن قوته لا تكفي لصدهم، فعمد إلى حيلة لم تكن في مخيلتهم، وهي تحطيم السدود التي امتلأت بعد فيضان النيل، فساح الماء وأغرق الأرض مما أدى إلى قطع الطريق أمام الصليبيين، عندها رأى عموري الأول أن المهمة صعبة عليه، فقرر الانسحاب والعودة إلى بيت المقدس[3].

وقد كانت هذه أول وآخر خطوة تحسب لضرغام في مواجهة الصليبيين، على اعتبار أن ما قام به فيما بعد يحسب عليه، فبعد أن دخل في الصراع مع شاور على الوزارة، وعلم بأنه استنجد بنور الدين محمود، غير موقفه من الصليبيين، وقرر الاستنجاد بهم لمواجهة جيش شاور المتحالف مع أسد الدين شيركوه، والقادم خصيصا لإزاحته عن كرسي الوزارة.

عندها أرسل إلى عموري الأول يطلب مساعدته، وعقد معه اتفاقا تعهد له فيه بأن يدفع جزية سنوية، يقررها الملك الصليبي، كما وافق على أن تدخل مصر في تبعية الصليبيين[4]، وأجبر الإمام العاضد على توقيع هذا الاتفاق[5].

كان من الطبيعي أن يقبل عموري الأول هذا العرض، الذي سيتيح له فرصة ثمينة لدخول مصر، وهو الهدف الذي سعى إليه الصليبيون منذ أكثر من نصف قرن، فأعد على الفور حملة عسكرية من أجل الزحف على مصر.

وخرج أسد الدين شيركوه على رأس حملته الأولى، إلى مصر في شهر (جمادى الآخرة 559هـ/أفريل1164م) يصحبه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي البالغ من العمر يومئذ سبعا وعشرين عاما، وسار على الطريق المحدد للحملة، والذي يمر عبر أراضي لا يسيطر عليها الصليبيون، وحتى

---

[1] بلبيس: وهي مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشر فراسخ عن طريق الشام، يسكنها عبس بني بغيض...، ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج02، ص 479.

[2] المقريزي: نفس المصدر السابق، ج2، ص 299.

[3] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج3، ص 400-401.

[4] المصدر نفسه.

[5] هانس إبرهارد ماير: نفس المرجع السابق، ص 218.

يصرف أنظارهم عن التعرض للحملة، وتأمينا على حياة أفرادها، قام نور الدين محمود بـ:

- مرافقة الحملة بجيشه إلى ما يلي دمشق حتى لا يتعرض أفرادها للإغارة من الصليبيين.
- قام بمهاجمة المناطق الشمالية لمملكة بيت المقدس المجاورة لدمشق، ليصرف أنظار الصليبيين عن مصر[1].

وسار أسد الدين شيركوه على رأس جيشه، عبر الصحراء بصحبة شاور، فعبر الكرك[2] ومر بالشوبك، ثم أيلة فالسويس، قبل أن يستعد الصليبيون للتدخل، فأرسل ضرغام قوة عسكرية بقيادة أخيه ناصر الدين، للتصدي لزحفه، وبعد معركة طاحنة تمكن أسد الدين شيركوه من هزيمة ناصر الدين، الذي تراجع منهزما إلى القاهرة، وأسد الدين شيركوه في عقبه يطارده، إلى أن وصل إلى العاصمة المصرية في أواخر جمادى الآخرة، فخرج إليه ضرغام بكل قواته، لإدراكه بأن هذه المعركة هي معركته الأخيرة.

وتحت أسوار القاهرة، دارت رحى معركة طاحنة بين الطرفين، وانتهت بانهزام ساحق لضرغام الذي تخلى عنه الجيش والناس والإمام العاضد، ثم إنه قتل أثناء محاولته الفرار قرب مسجد السيدة نفيسة في شهر (رجب 559هـ/جوان1164م)، كما قتل أخوه ناصر الدين ودخل أسد الدين شيركوه القاهرة، وأعاد شاور إلى منصبه في الوزارة، ثم أقام معسكره خارجها[3].

إن المتأمل في سير المعركة يتبين له منذ الوهلة الأولى، أن الوزير ضرغام كان متجبرا على الخليفة العاضد وعلى الرعية، وإلا كيف تخلوا عنه وهو في قلب المعركة ؟، ثم إن أهل المدينة والخليفة أيضا، لم يكونوا يعلمون بحقيقة شاور، وإلا كيف ساندوه في المعركة ؟، لكن الظاهر أن شاور لم يظهر عن سوء نواياه كاملة أثناء وزارته الأولى، ولذلك ساندته العامة في حربه على ضرغام.

والواقع أنه لا يستحق تلك المساندة، لأن ما أبان عنه، من سوء نوايا ودنو أخلاق، في وزارته الثانية، لا يليق بحاكم يحكم دولة مثل مصر، وفي وقت كذلك الوقت بالذات، وما سنذكره الآن خير دليل على ما نقول.

ب- في عهد الوزير شاور

---

1 ابن سباط: نفس المصدر السابق، ج1، ص 114.

2 الكرك: قلعة حصينة جدا في طرف بلاد الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم(البحر الميت) وبيت المقدس، وهي على سن جبل عال تحيط بها أودية إلا من جهة الربض. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج04 ص 453.

3 شمس الدين الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج2، ص222. أبو الفدا: نفس المصدر السابق، ج2، ص 116.

علمنا قبل قليل أن عودة شاور إلى الوزارة ما كانت لتكون، لو أنه لم يتلق مساندة من أسد الدين شيركوه، والخليفة العاضد، وعامة مصر، لكنه تصرف عكس ذلك تماما عندما اعتلى كرسي الوزارة، حيث عاد إلى طبيعته السيئة، فأساء معاملة الناس، وطلب من شيركوه الخروج من مصر، وأن يعود فورا مع قواته إلى بلاد الشام، لكن هذا الأخير رفض الاستجابة لطلبه، بل رد على موقفه المتقلب باستيلائه على بلبيس[1].

وعندما لم يسمع له أسد الدين شيركوه قرر طرده بالقوة، لكن قوته هو غير كافية لذلك وبالتالي عليه أن يستنجد بقوة خارجية، تعينه على مهمته هذه، ولأنه دنيء التفكير فلم يقع اختياره إلا على الذين كانوا أعداءه قبل قليل، فقرر أن يستنجد بعموري الأول، فكرر بذلك نفس الدنية التي قام بها ضرغام من قبله.

1- استنجاد شاور بالصليبيين

أرسل شاور إلى عموري الأول ملك بيت المقدس، يطلب منه مساعدته ضد أسد الدين شيركوه، لطرده من مصر، وعرض عليه مقابل ذلك:

- يؤدي له مبلغ سبعا وعشرين ألف دينار.
- يمنح هدية لكل من يصحبه من فرسان الإسبتارية[2] الذين كانوا يشكلون عماد جيش مملكة بيت المقدس، ولعل في ذلك تحريضا لهم على المجيء.
- يتكفل بنفقات علف أفراسهم[3].

رحب عموري الأول بدعوة شاور طمعا في امتلاك مصر، وإبعاد نور الدين محمود وجيوشه عنها، حتى لا يتمكن من تطويق مملكته التي ستصبح في وسط ممتلكات نور الدين محمود[4] ودعا كبار مملكته للاجتماع به، وأوضح لهم خطر استيلاء نور الدين محمود على مصر، وبالتالي

فاستغلال فرصة دعوة شاور لا تعوض، وبعد مناقشات مستفيضة، وافق المجلس على توجيه حملة لإنقاذ شاور، واشترط فيها بأن يؤدي كل فرد عشر دخله من أجل إنقاذ المملكة[5].

لكن نور الدين محمود هو الآخر كانت له طموحات في مصر، وقد حانت الفرصة لتحقيقها، فقرر إرسال حملة إلى مصر هدفها تأديب شاور ومعاقبته

---

[1] أبو شامة: نفس المصدر السابق، ج01، ص 430.

[2] الإسبتارية: هي تحريف للفظ الأجنبي Hospitalliers، وكان يطلق في عصر الحروب الصليبية على طائفة من الفرسان الدينيين الذين سكنوا ديرا في بيت المقدس، بجوار دير سان ماري، وقد أقيم بجواره بيمارستان (مستشفى) في المدة قبل الحروب الصليبية، بهدف إيواء الحجاج النصارى ومعالجة المرضى منهم، ولما قامت الحروب الصليبية تطوع أفراد هذه الطائفة في المساهمة في هذه الحرب ضد المسلمين مهما بلغت التضحيات، وكانوا موضع احترام جودفري دي بوايون، ملك بيت المقدس، فأقطعهم إحدى الضواحي، وأغدق عليهم بالأموال، ثم أصبحوا يؤلفون قوة حربية كبرى، اشتهروا بالتعصب الشديد للنصرانية. ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج03، ص 383.

[3] ويليام الصوري: نفس المصدر السابق، ج03، ص 387-388.

[4] ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج01، ص 149.

[5] ستيفن رنسيمان: نفس المرجع السابق، ج02، ص 601-602.

على خيانته، جهز نور الدين محمود حملة عسكرية من ألفي فارس، أسند قيادتها إلى أسد الدين شيركوه وأرسلها إلى مصر في شهر(ربيع الأول 562هـ/جانفي1167م)[1].

وقبل أن تستكمل القوات الصليبية استعداداتها، وردت الأنباء بأن أسد الدين شيركوه يجتاز صحراء سيناء باتجاه مصر، فلم يسع عموري الأول إلا أن يرسل سرية صغيرة لتعرقل أسد الدين عن تقدمه، لكن هذا الإجراء جاء متأخرا، فقد كان أسد الدين شيركوه بلغ نهر النيل عند إطفيح[2]، ثم عبر إلى الضفة الغربية، والتزمها في سيره حتى وصل إلى الجيزة، وعسكر بمواجهة الفسطاط[3].

2- المفاوضات الصليبية الفاطمية

خرج عموري الأول من بيت المقدس في شهر (ربيع الأول 562هـ/جانفي1167م) متوجها إلى مصر في حملته الثالثة على هذا البلد، واجتاز الطريق المألوف من غزة إلى العريش، ثم اخترق الصحراء إلى بلبيس.

ارتاع شاور من ظهوره المفاجئ، وتخوف منه لعدم التنسيق معه، ولم يكن أيضا متأكدا من وصول شيركوه إلى إطفيح، حيث أرسل كشافته إلى الصحراء لتقصي حقيقة الوضع، فلما تيقن من وجود أسد الدين شيركوه، خرج لاستقبال الملك الصليبي، والتقى به وأنزله عموري الأول في معسكره على الضفة الشرقية لنهر النيل على مسافة ميل واحد من أسوار القاهرة[4].

ويبدو أن عموري الأول كان متخوفا من غدر شاور، فأراد أن يقيده ليضمن الحصول على مغانم، قبل أن يقوم بمحاربة أسد الدين شيركوه، فأجرى معه مباحثات تعهد شاور خلالها بأن يدفع أربعمائة ألف دينار مقابل طرد أسد الدين شيركوه من مصر، على الفور، واشترط أن يقسم عموري الأول على ذلك، ثم أرسل عموري الأول رجلين من أتباعه، إلى الخليفة الفاطمي للحصول منه على الموافقة الرسمية عليها، واستقبل الرسولان استقبالا حافلا في القصر الفاطمي وتم التصديق على المعاهدة[5].

وبعد التوقيع على هذه الاتفاقية، استعدت القوات الصليبية وقوات شاور المتحالفة معها للالتحام بقوات أسد الدين شيركوه، وإجبارها على مغادرة مصر، لكنهم ضعفوا على مواجهته لتخوفهم منه، وطوال مدة شهرين من مراقبته،

---

[1] محمد مؤنس أحمد عوض: نفس المرجع السابق، ص 90.
[2] إطفيح: بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطئ في شرقيه. ياقوت الحموي: نفس المصدر السابق، ج01 ص218.
[3] أمين معلوف: نفس المرجع السابق، ص 207.
[4] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 488.
[5] هانس إبرهارد ماير: نفس المرجع السابق، ص 219.

أغاروا مرة واحدة على وحدة من جيشه[1] عندها قرر أسد الدين شيركوه التوجه إلى الصعيد، تجنبا للدخول في مواجهة هذه القوات الكبيرة، واقتفى عموري الأول أثره وشاور معه يحل حيث حل ويرتحل حيث ارتحل، لكن أسد الدين شيركوه انزعج وهو يرى الصليبيين يرتادون القصر الفاطمي، فقرر مواجهتهم، وجرى اللقاء في البابين، وكان شاور ضمن جيش الصليبيين، وانتهت المعركة بانتصار أسد الدين[2].

3- مشاركة شاور الصليبيين في حصار الإسكندرية

وبعد معركة البابين، خرج أسد الدين شيركوه إلى الإسكندرية، حتى يأمن جانب شاور وحلفاؤه الصليبيون، غير أنهم تابعوه إلى هناك، وضربوا عليه الحصار، فخرج أسد الدين شيركوه إلى الصعيد لجلب المؤن، ومر بجانب معسكرهم فقرر عموري الأول أن يهاجمه لكن شاور نصحه بالتروي، فاستعادة الإسكندرية أهم من ذلك، ثم إنهم أحكموا الحصار على المدينة حتى أشرفت على المجاعة، والغرض من ذلك هو صرف نظر الأهالي عن صلاح الدين[3].

ولما رأى صلاح الدين انه لن يستطيع الصبر أكثر، أرسل إلى عمه يلتمس منه النجدة العاجلة، فعاد إليه عمه سريعا، وحاول رفع الحصار عنه لكنه عجز عن ذلك، عندها قبل التفاوض معهم، وانتهت المفاوضات بقرار خروجهما من مصر سويا[4]، وجاء في بنود هذه الاتفاقية، أن يتعهد شاور بألا يعاقب رعاياه في الإسكندرية، وفي غيرها من الجهات، الذين ساندوا أسد الدين شيركوه[5].

غير أن شاور غدر مرة أخرى، فبمجرد أن غادر أسد الدين شيركوه مصر، حتى بدأ أتباع شاور بإلقاء القبض على كل من جرى الاشتباه في أنه تعاون مع صلاح الدين فقتلوا من قتلوه وسجنوا من سجنوه[6]، وأكثر من ذلك فقد تخاذل شاور مرة أخرى، بعد أن رضخ لمطالب عموري الأول القاضية بفرض الحماية على الدولة الفاطمية، ومن مظاهرها:

- دفع جزية سنوية للصليبيين قدرها مائة ألف دينار للصليبيين.
- بقاء قوة من فرسانهم تحمي أبواب القاهرة، لتدفع نور الدين محمود إن كرر الهجوم.
- إقامة مندوب عن الملك الصليبي في القاهرة ليشارك في شؤون الحكم[7].

---

[1] أبو شامة: نفس المصدر السابق، ج01، ص 428.
[2] ابن ظافر الأزدي: نفس المصدر السابق، ج01، ص 261-262.
[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص04.
[4] المصدر نفسه.
[5] أبو شامة: نفس المصدر السابق، ج01، ص 428.
[6] ستيفن رنسيمان: نفس المرجع السابق، ج2، ص 607.
[7] المرجع نفسه.

وربما كان عموري الأول يريد أن يقيد شاور، حتى يتمكن من العودة إلى مصر، متى تمكن

من إقرار الأمور في بلاد الشام، ثم عاد الملك إلى فلسطين[1]، وبهذه الإجراءات تأكدت الحماية
على مصر، وترتب على هذا استمرار التنافس بين نور الدين محمود وعموري الأول.

إن الناظر إلى تاريخ شاور، لا يمكنه أن يحصي له حسنة واحدة من أفعاله كلها، سوى ما قام به، عندما رفض تقديم الجزية التي فرضها عليه الصليبيون في سنة (564هـ/1169م)، بحجة أنها أثقلت كاهلهم، في وقت نضبت فيه مواردهم، ولما احتج عموري الأول على ذلك أجابه بقوله: **" إن الذي قررته لك إنما جعلته متى احتجت إليك، وإذا قدم إلي عدو، فأما مع خلو بالي من الأعداء، فلا حاجة إليك ولا لك عندي مقرر "[2].**

4- حرق مدينة الفسطاط

أدت تصرفات شاور الأخيرة، إلى تذمر العديد من أعيان مصر، ولذلك راحوا يراسلون عموري الأول[3]، ليخلصهم منه، فأعادوا بذلك نفس الخطأ الذي وقع فيه ضرغام وشاور، وقد كلفهم هذا التخاذل احتلال مدينة بلبيس، التي انتهكت فيها كل المحرمات، وبعدها الفسطاط التي راحت هي الأخرى ضحية هذا التخاذل، فمجرد أن علم شاور بمسير الصليبيين إليها تبادرت إليه فكرة هي أخبث من كل سابقاتها، فقد عمد إلى إحراق المدينة في تاسع صفر، بعد أن أمر أهلها بالانتقال منها إلى القاهرة، **" وأن ينهب البلد، فانتقلوا وبقوا على الطرق ونهبت المدينة، وافتقر أهلها، وذهبت أموالهم ونعمتهم قبل نزول الفرنج عليهم بيوم، خوفا أن يملكها الفرنج، فبقيت النار تحرقها أربعة وخمسين يوما "** [4].

إن المتمعن فيما قام به شاور، يقف مشدوها أمام هذا التفكير الخبيث، فلم يكتف بما قام به من قبل عندما كان يطلب المساندة من نور الدين، ثم يغدر به إذا فرج عنه، ثم يستعين بالصليبيين، ويغدر بهم، وأخيرا بعد أن تيقن أن لا أحد صار يثق به، أو يساعده إن طلب منه مساعدة، قام بإحراق مدينة الفسطاط، وذلك عندما شعر باقتراب الصليبيين من امتلاكها، وإذا كانت غيرته عليها هي التي جعلته يحرقها ولا يترك الصليبيين يحتلونها، فإنه لن يعذر في ذلك طالما

[1] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج6، ص 06.
[2] المصدر نفسه.
[3] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 12.
[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص12.

أن هناك من له رغبة في نصرتها، وهو نور الدين محمود، لكن حسده بل وخبثه، حال دون استنجاده به.

ولم يكتف بما فعله بمدينة الفسطاط وأهلها، ليرسل إلى الصليبيين مرة أخرى ويذكرهم بمودته لهم ويلقي بالتبعة على العاضد، حتى لا يعاجلوه بالحرب، فبدأ يساومهم على مبلغ من المال، على أمل أن يصل أسد الدين شيركوه سريعا بقوات من بلاد الشام، بعد أن استنجد به العاضد، و تقرر عليه في الأخير أن يدفع أربعمائة ألف دينار، وقيل ألفي دينار، منها مائة ألف دينار معجلا لقاء رحيل عموري عن مصر، لكن شاور لم يستطع أن يجمع منه سوى خمسة آلاف دينار لسوء أحوال سكان القاهرة بعد هذه الأحداث[1].

5- استنجاد العاضد بنور الدين محمود

يبدو أن سقوط القاهرة في أيدي الصليبيين، بعد الذي قام به شاور صار أمرا وشيكا ولذلك طالبت بعض الفئات في القاهرة، بدعوة القوات الشامية، وكان على رأس هذه الفئات الكامل ابن شاور، الذي خرج عن سياسة والده، والقاضي الفاضل رئيس ديوان الإنشاء، الذي تولى المفاوضات والمراسلات مع نور الدين محمود، إضافة إلى الخليفة العاضد، وقد بعث بخصل من ضفائر نسائه وغدائر بناته، إلى نور الدين محمود، وعرض عليه مقابل إنقاذ البلاد من الصليبيين، بأن يمنحه ثلث دخل مصر، إضافة إلى بعض الإقطاعات لقادته، ويسمح لشيركوه بالإقامة في مصر[2].

كان نور الدين محمود ينتظر فقط الفرصة السانحة للتدخل في مصر، للقضاء على شاور نهائيا تمهيدا للقضاء على الدولة الفاطمية، والراجح أنه كان يريد إعادة المذهب السني إليها ولذلك تحرك على الفور من تلقيه الدعوة، لاستدعاء أسد الدين شيركوه من حمص، وأسند إليه مهمة إنقاذ مصر، حيث أذن له أن يختار ألفي فارس، منح كل فارس منهم عشرين دينارا غير راتبه، وأمده بستة آلاف فارس، ومجموعة من الأمراء، كما ندب معه ابن أخيه صلاح الدين[3] وأعطاه مائتي ألف دينار، بالإضافة إلى الأسلحة والثياب والدواب، ويبدو أن نور الدين محمود من خلال هذه التجهيزات أنه مصمم على الاستيلاء على مصر بشكل نهائي.

خرج أسد الدين شيركوه في شهر (ربيع الأول 564هـ/ديسمبر1168م) إلى مصر، ولما علم شاور بذلك، أرسل إلى الملك عموري يطلب منه التخلي عن جزء من المبلغ المتفق عليه، وينذره في الوقت نفسه باقتراب أسد الدين

---

[1] أبو شامة: نفس المصدر السابق، ج01، ص433 .
[2] محمد مؤنس أحمد عوض: نفس المرجع السابق، ص 98.
[3] ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 287.

شيركوه[1]، وعندها أدرك عموري الأول استحالة استيلائه على مصر، وأنه بات من الضروري أن يتراجع عن القاهرة، خشية أن يهاجمه أسد الدين شيركوه، فتراجع إلى بلبيس، وأمر أسطوله بالعودة إلى عكا، ثم رحل عن مصر بعد أن يئس من احتلالها[2]، في حين دخلها أسد الدين شيركوه معززا، ولكن ليس من شاور بل من أعيان مصر وخليفتها، وعامتها.

أما شاور فإنه انزعج من بقاء أسد الدين في مصر، فقد كان يرى بأنه نافسه على النفوذ خصوصا وأن العاضد قد أظهر ميله إليه، إضافة إلى تردد الناس إلى خدمته[3]، ثم إن أسد الدين شيركوه طالبه مجددا بتنفيذ اتفاقه القديم الذي تنكر له، عندها قرر شاور وكعادته الاستنجاد بالصليبيين لمساعدته، وحدد لهم مدينة دمياط كمكان لدخولهم الديار المصرية من البر والبحر ثم دبر مؤامرة للتخلص من أسد الدين شيركوه وأمرائه، من خلال وليمة يقيمها على شرفهم ويدعوهم إليها، غير أنه تريث قليلا في القيام بهذه المكيدة، أو أن ابنه الكامل هدد بكشفه لأسد الدين شيركوه[4]، لكن هذا الأخير علم بما بيته له عدوه، ولم يتخذ أي إجراء مباشر ضده.

خرج شاور في (السابع عشر من شهر ربيع الآخر 564هـ/18جانفي1169م)، للاجتماع بأسد الدين شيركوه، ولما وصل إلى مقر قيادته استقبله صلاح الدين وعز الدين جورديك في جمع من العساكر، وكان أسد الدين شيركوه في زيارة لضريح الإمام الشافعي، فقرر الذهاب إليه، لكن صلاح الدين عاجله وقبض عليه، وأسره بعد أن جرده من سلاحه، ثم أصدر العاضد أمرا بقتله فقتل[5].

وبمقتله استراحت مصر بل والأمة الإسلامية قاطبة من أخبث إنسان، في تاريخ الدولة الفاطمية بعد الحاكم بأمر الله، فما قام به هذا الأخير طوال فترة حكمه، كاد أن يدخل مصر في فلك الصليبيين كم من مرة، حيث استنجد بهم أربع مرات كاملة، ضد أسد الدين شيركوه وإن كانت الثلاث مرات الأولى تمكن من إزاحة أسد الدين عن مصر، إلا أنه في رابعها لاقى حتفه، كما أنه اشتهر بالغدر حيث غدر بالصليبيين في كل مرة استنجد بهم، كما غدر بأسد الدين في أول مرة أنجده فيها ضد ضرغام.

والواقع أن محامل شاور على نفسه وعلى مصر والأمة الإسلامية كثيرة، ولا يمكننا حصرها في هذه الأسطر القليلة. وبعد مقتله عرفت مصر تاريخا

---

[1] أبو شامة: نفس المصدر السابق، ج01، ص 432.
[2] أيمن فؤاد سيد: نفس المرجع السابق، ص 231.
[3] أبو شامة: نفس المصدر السابق، ج01، ص435. ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج05، 301.
[4] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص14.
[5] أبو شامة: نفس المصدر السابق، ج01، ص435.

آخرا أقل ما يمكن أن يقال عنه يشرفها بصفتها دولة إسلامية، حيث أسند خليفتها العاضد، الوزارة إلى أسد الدين شيركوه، فكيف عاشت مصر بعد مقتل شاور ؟

ج- بعد مقتل شاور

كان مقتل شاور آخر حلقة من سلسلة المتاعب التي تعرضت لها مصر في أواخر العصر الفاطمي، إذ لم يبق للصليبيين من مناصر في البلاد، وصارت البلاد آمنة بوجود أسد الدين وبذلك تحقق لنور الدين محمود ما كان يصبو إليه، وهو ضم مصر إلى بلاد الشام، وما زاد من توثيق هذا الانضمام هو تولي أسد الدين الوزارة في مصر.

أ- ضم مصر إلى بلاد الشام

تقلد أسد الدين شيركوه الوزارة في القاهرة بعد مقتل شاور، وفقا للعادة المتبعة في تلك الأيام، والتي تقضي بأن يحل محل الوزير من يتولى القضاء عليه، **" وجلس في دست الملك وخلع عليه العاضد العبيدي خلعة السلطنة، وولاه وزارته، وسماه الملك المنصور سلطان الجيوش "**[1].

غير أن أسد الدين شيركوه لم يدم طويلا في الوزارة، إذ توفي في (22جمادى الآخرة 564هـ/23مارس1169م)، نتيجة إفراطه في الأكل، بعد أن قضى جل حياته في الجهاد ويرجع له الشرف في طرد الصليبيين من مصر، كما مهد لإعادة مصر إلى فلك السنة، فقد كان يدرك أهمية ضم مصر إلى بلاد الشام بوصفها خطوة تمهيدية وضرورية لاسترجاع فلسطين من أيدي الصليبيين[2].

والواقع أن خلافة أسد الدين شيركوه، أيقضت الكثير من الطموحات والخلافات، إذ حدثت إثر وفاته خلافات وتنافسات على الوزارة بين المؤسسة العسكرية الفاطمية، التي أرادت وزيرا مدنيا مصريا تتحكم به، وبين بعض أمراء نور الدين محمود الأتراك الذين رافقوا الحملة مثل قطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وعين الدولة الياروقي، وسيف الدين بن أحمد المشطوب وشهاب الدين محمود الحارمي، خال صلاح الدين.

وكان هؤلاء العناصر كلهم قد تطلعوا إلى تولي الوزارة بعد وفاة أسد الدين شيركوه، غير أن العاضد كان يريد صلاح الدين في الوزارة، بعد أن رشحه الفقيه عيسى الهكاري والحارمي والمشطوب[3]، رغم رفض صلاح الدين لهذا المنصب، حيث تحجج بصغر سنه وافتقاره إلى التجربة، اللذين سيرغمانه على الاعتماد على موظفي الدولة الفاطمية، ويجعلان منه أداة سهلة في يد العاضد يستغلها في القضاء على بقية أعوان أسد الدين شيركوه.

---

[1] شمس الدين الذهبي: دول الإسلام، ج2، ص 67.

[2] Stanley lane- Poole. M.a :op- cit, p77-78 ستيفن رنسيمان: نفس المرجع السابق، ج02، ص 619.

[3] ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص294.

وخلع العاضد الوزارة على صلاح الدين وهو في الثانية والثلاثين من عمره، وأمر القاضي الفاضل بإنشاء سجل بتوليه الوزارة، ولقبه بالملك الناصر، وذلك في(25جمادى الآخرة 564هـ/26مارس1169م)[1].

لكن الكثير من أعيان مصر في ذلك الوقت، رفضوا تولية صلاح الدين الوزارة، بصفته سني المذهب وهم شيعة، وتخوفوا منه كثيرا، فقررت جماعة منهم الثورة عليه لإزاحته من منصب الوزارة، تمهيدا للقضاء عليه وعلى أتباعه[2]، وكانت أولى هذه المؤامرات هي مؤامرة مؤتمن الخلافة، تلتها حركات عدائية أخرى ضد صلاح الدين، لكنها باءت كلها بالفشل حيث قضى عليها صلاح الدين في مهدها، فكيف حدث ذلك ؟

1- القضاء على مؤامرة مؤتمن الخلافة

تمكن صلاح الدين من استمالة قلوب سكان مصر، بعد جلوسه على كرسي الوزارة وذلك بما بذل لهم من الأموال، فأحبوه، كما أنه أحكم سيطرته على كافة أصناف الجند، ما سهل له السيطرة على الدولة كاملة، فتراجع بذلك نفوذ العاضد، وقد أثار كل ذلك حفيظة قائد جند السودان مؤتمن الخلافة، الذي رأى في سلوك صلاح الدين بأنه قضاء تدريجي على الدولة الفاطمية، والراجح أنه كان من الطامعين في خلافة شاور، فبدأ هذا الأخير يحيك الدسائس للإطاحة بصلاح الدين، وحاول الاتصال بعموري الأول، ملك بيت المقدس لتحريضه على مهاجمة مصر، آملا في حالة الاستجابة، أن يخرج صلاح الدين إلى لقائه، فيقبض على من يبقى من أصحابه في القاهرة ويستولي على الوزارة، ويتقاسم البلاد مع الصليبيين غير أن صلاح الدين علم بخيوط هذه المؤامرة، وقبض على مؤتمن الخلافة وحبسه.

ونتيجة لهذه التدابير الاحترازية التي نفذها صلاح الدين، ثار جماعة من الجند السودانيين المستبعدين، على صلاح الدين، حيث عز عليهم ضياع نفوذهم، ومقتل مؤتمن الخلافة، ودخلوا في حرب مع صلاح الدين، ساندهم فيها العاضد، ظنا منه أنهم سينتصرون عليه، وينقذونه من قبضته، لكنه تراجع عن قراره بعد أن هدده توران شاه أخو صلاح الدين بإحراق القصر وبذلك انهزم السودانيون، وقبض عليه صلاح الدين ثم عفا عنهم بعد أن طلبوا منه الأمان[3].

ولم يتبق لصلاح الدين سوى حرس العاضد من الأرمن، ولذلك أشعل النار في ثكناتهم ثم قبض عليهم، حتى لا يثوروا عليه[4]، وبذلك تمكن من تصفية جيوب المقاومة والخيانة الداخلية التي حالت دون تفرغه لمواجهة الصليبيين.

---

[1] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج6، ص 06.
[2] أمين معلوف: نفس المرجع السابق، ص 218.
[3] سيد علي الحريري: نفس المصدر السابق، ص 142.
[4] ستيفن رنسيمان: نفس المرجع السابق، ج02، ص 624.

وكان الصليبيون قد أخذوا بنصيحة مؤتمن الخلافة، الذي طلب منهم المجيء إلى مصر حيث يساندهم هو وكل المناوئين لصلاح الدين، فأخذوا يستعدون لتجهيز حملة كبيرة يقضون بها على صلاح الدين ويستولون على مصر، لكن إمكانياتهم غير كافية لتحقيق هذين الغرضين معا فطلبوا من إخوانهم البيزنطيين عقد تحالف معهم لتحقيق هذه الغاية.

2- تصدي صلاح الدين للصليبيين

لم يكن صلاح الدين يعلم بأن الصليبيين ينوون احتلال مدينة دمياط، فقد توقع بأنهم سيهجمون على مدينة بلبيس، ولذلك شحنها بالعساكر، كما قام بتحصين الإسكندرية والقاهرة ظنا منه أن هذه الحملة ستسلك إحدى الطرق التي سلكتها الحملات السابقة[1]، كما أنه بقي في القاهرة خشية قيام مؤامرة شيعية ضده.

وما إن علم صلاح الدين بوصول القوات المتحالفة إلى دمياط، حتى أرسل إليها الرجال والسلاح والمؤن بقيادة ابن أخيه تقي الدين عمر، وخاله شهاب الدين الحارمي، كما أرسل عددا من السفن اتخذت طريقها نحو الشمال في فرع دمياط لنجدة المدينة، وبعث في الوقت نفسه رسالة إلى نور الدين محمود في دمشق يخبره بما حدث ويقول: **" إن تأخرت عن دمياط ملكها الفرنج، وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشر، وخرجوا عن طاعتي وساروا في إثري، والفرنج في أمامي، فلا يبقى لنا باقية "**[2]، فسير إليه نور الدين محمود العساكر إليه أرسالا متتابعة، كما قام بالإغارة على بع المعاقل الصليبية في بلاد الشام، لتخفيف الضغط عن دمياط، جريا على عادته عندما تتعرض مصر للتهديد الصليبي[3].

لم تقف القوات الإسلامية المدافعة عن المدينة مكتوفة الأيدي، تجاه محاولات الصليبيين فقامت بتشييد برج متحرك مماثل للبرج الصليبي، وشحنه المسلمون بالعساكر لمقاومة الجهود النصرانية بالفكرة نفسها، كما ردت هذه القوات على اعتداءات المهاجمين بعنف، وأبدى أفرادها تفوقا ملحوظا، في الوقت الذي اختلفت فيه أهواء المتحالفين، وأصبحوا لا يلتزمون بجدية القتال[4].

كانت هذه هي أول محاولة قام بها صلاح الدين لمواجهة العدوان الصليبي على مصر، وهو على رأس الوزارة في مصر، والسبب أن الصليبيين أنفسهم لم يحاولوا احتلال مصر سوى مرة واحدة، وإن كان صلاح الدين لم يشارك بنفسه في عملية الجهاد، إلا أنه ساهم بشق كبير في بعث فكرة الجهاد في مصر، التي

---

[1] محمود سعيد عمران: نفس المرجع السابق، ص 164.
[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 22.
[3] أحمد بن علي الحريري: الإعلام والتبيين، ص 78.
[4] المصدر نفسه.

غابت طوال فترة حكم شاور، ثم إنه ساهم في الدفاع عن المدينة بإرساله العساكر عبر البر والبحر، وأرسل إلى نور الدين محمود يطلب منه المساعدة وبذلك تمكن من طرد الصليبيين.

3- نهاية الدولة الفاطمية

يبدو أن حركة الجهاد الإسلامي التي قادها نور الدين محمود، تحت راية دولة الخلافة العباسية، قد حتمت عليه إعادة مصر إلى حظيرة الولاء للعباسيين، لكن إقرار هذه العملية كان يتطلب جرأة من صلاح الدين، وزير العاضد يومئذ فهو لا يزال حديث عهد بها، فقطع الخطبة للفاطميين وإقرارها للعباسيين، يتطلب توطئة وتمهيدا يشمل المجالات والعسكرية والاقتصادية والدينية أخيرا، حتى يتمكن من إحكام قبضته على البلاد.

فمن حيث التدابير العسكرية، فقد الجيش الفاطمي لا يزال قائما وبإمكانه خلق مشاكل عديدة، ولذلك عمد صلاح الدين إلى بناء جيشه هناك وعلى حساب المصريين، فقام بإنشاء الفرقة الصلاحية نسبة إليه، ثم انضمت إليه الفرقة الأسدية التي أنشأها عمه أسد الدين شيركوه كما استعان بالمماليك الأتراك، لأنه وجد نفسه في أمس الحاجة إليها، عند حدوث أية ثورة ومثال ذلك ثورة السودان، التي تمكن من القضاء عليها بسرعة.

أما من حيث التدابير الاقتصادية، فقد عين صلاح الدين والده على الخزانة مما أتاح له السيطرة على موارد الدولة[1]، كما استخدم إخوته للتعويض عن الفراغ الذي تركته تنحية الأشخاص الموالين للدولة الفاطمية، والتفت إلى سياسة الإصلاح الاقتصادي، فأبطل المكوس الديوانية التي كانت الدولة تجبي منها سنويا مائتي ألف دينار، فمال المصريون إليه وأحبوه، كما أطلق حرية التجارة[2].

أما عن التدابير الدينية، فقد اتخذ صلاح الدين عدة إجراءات منذ أواخر (عام 565هـ/ 1170م) لإضعاف المؤسسة الفاطمية، والمذهب الشيعي الإسماعيلي من جهة وتقوية المذهب السني في مصر من جهة أخرى.

وكانت أولى هذه الإجراءات هي إسقاط عبارة *حي على خير العمل * من الأذان وكان ذلك في العاشر من ذي الحجة، وأمر بأن يذكر في خطبة الجمعة أسماء الخلفاء الراشدين ونزع المناطق الفضية، التي كانت محاريب مساجد القاهرة، والتي تحمل أسماء الأئمة الفاطميين كما أثار قضية التشكيك بنسب الفاطميين[3].

[1] تقي الدين المقريزي: الخطط، ج3، ص 405.
[2] ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ج10، ص 15. أبو شامة: نفس المصدر السابق، ج01، ص 43-45.
[3] أبو شامة: المصدر نفسه.

وفي(شهر محرم عام 566هـ/سبتمبر1170م)، أمر بهدم دار المعونة المجاورة للجامع العتيق في مصر، وأمر ببناء مدرسة مكانها خصصها للشافعية، كما بنى إلى جوارها درا خصصه للمالكية وهي دار الغزل المعروفة بالمدرسة القمحية، ثم أبطل مجالس الدعوة من القصر والجامع الأزهر[1].

وبعدها بدأ في التغيير المذهبي، وابتدأه بتغيير رجال القضاء، فعزل جميع القضاة الشيعة الإسماعيليين، وأسند قضاء مصر إلى القاضي صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس الماراني الشافعي، وإليه يعود الفضل في انتشار المذهب الشافعي في مصر[2]، كما حرص على نشر المذهب الأشعري بحكم أن صلاح الدين كان متعصبا لهذا المذهب متأثرا بالسلاجقة.

بواسطة هذه الإجراءات تمكن صلاح الدين من السيطرة على النواحي الدينية، وأضحت

مسألة قطع الخطبة للفاطميين وإبدالها بالخطبة العباسية مسألة فقط لا أكثر.

3.أ- إقامة الخطبة للعباسيين

رغم أن صلاح الدين كان قد تمكن من إحكام سيطرته على مصر من كل النواحي، وكان بإمكانه قطع الخطبة للفاطميين وإبدالها بالخطبة العباسية، إلا أنه تريث في بداية الأمر، متحججا لنور الدين الذي كان متلهفا إلى تحقيق وحدة المذهب الإسلامي بين بلاد الشام ومصر، بتخوفه من ردة فعل عنيفة من عامة مصر، غير أن نور الدين محمود رفض عذره، وأرسل إليه إنذارا نهائيا في (شهر ذي الحجة 566هـ/أوت1171م)، يأمره بإسقاط الخطبة للإمام الفاطمي العاضد وإقامتها للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله، وألزمه على ذلك إلزاما[3].

وهكذا وجد صلاح الدين نفسه بين أمرين، صعبين للغاية، فإما الإعراض عن تحقيق رغبة نور الدين محمود، وهو القضاء على الدولة الفاطمية نهائيا، وبالتالي الدخول في أزمة مع نور الدين، أو أنه يحقق له رغبته، ويدخل في أزمة مع الشيعة في مصر، وبين هذا وذاك، رأى أن يذعن لمطالب نور الدين، فقطع الخطبة أمر لابد منه، وبالتالي التعجيل بها خير، حتى يحوز حسنتين أولاها إرضاء نور الدين، وثانيها إعادة مصر إلى حاضرة العالم السني بعد غياب دام أكثر من قرنين.

وجاءت الخطوة الحاسمة في (السابع من شهر محرم 567هـ/10سبتمبر1171م)، عندما قطع صلاح الدين الخطبة بمصر للعاضد الفاطمي، وأقامها للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله وأعاد السواد شعار

[1] المقريزي: نفس المصدر السابق، ج02، ص 415-416.
[2] محمد سهيل طقوش: نفس المرجع السابق، ص 522.
[3] ابن العبري: تاريخ الزمان، ص 187.

العباسيين[1]، وبذلك أعيدت الوحدة المذهبية في العالم الإسلامي في الشرق الأدنى والوحدة السياسية بين مصر وبلاد الشام، وتسلم صلاح الدين القصر الفاطمي وقبض على أولاد العاضد، وجعل إقامتهم في القصر مع عناية خاصة بهم[2]، وكان العاضد أثناء ذلك مريضا فلم يشأ صلاح الدين، أن يعلم بخبر قطع خطبته، وقال: **" فإن عوفي فهو يعلم، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بهذه الحادثة قبل موته "**[3].

ولم تكد تمضي أيام على قطع الخطبة للفاطميين، حتى توفي العاضد ليلة العاشر من محرم

فأمر صلاح الدين بإرسال الكتب إلى البلاد تعلن وفاته، وإقامة الخطبة رسميا للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله[4].

وبموت العاضد انتهت الدولة الفاطمية من الوجود، بعد طول بقاء دام أكثر من قرنين عرفت فيها أزهى أيامها، حين استحوذت على منطقة المتوسط كاملة في وقت من الأوقات وذاع صيتها بين مشارق الأرض ومغاربها، وامتدت حتى العاصمة العباسية شرقا وإلى الحجاز وبلاد النوبة جنوبا، ثم تقلصت بعدها لتصبح في مصر وبعض الأماكن في بلاد الشام، ثم ضاعت منها بلاد الشام وصارت في مصر فقط، إلى أن زالت أخيرا.

وختاما لهذا الفصل يمكننا القول أن الدولة الفاطمية، لم تقم بأي عمل كبير يحسب لها من أجل الدفاع عن حماها (مصر) من خطر الصليبيين، عندما كانوا يتعرضون لها، بل بالعكس تماما فقد كانت متواطئة مع هذا العدوان، رغم أنه كان يقصد القضاء عليها، وعلى العكس فقد كان القيمون عليها، يستعينون بالصليبيين ليدافعوا عنهم، ضد قوات نور الدين محمود، التي كانت تقصدهم غالبا لنصرتهم، وفي كم من مرة كادوا يقضوا عليها، مثلما حدث مع صلاح الدين لما حوصر في الإسكندرية، لكن الفاطميين كانوا يرون في قوات نور الدين قوات غازية تبحث عن مصالح لها وليس لها هدف غير ذلك.

وما يمكننا قوله أيضا هو أنه لولا نور الدين محمود، لكانت مصر قد دخلت في فلك الصليبيين، ولكان حدث لها مثل ما حدث للمدن الإسلامية سابقا، وما مجازر بلبيس عنا ببعيد لكننا نقول أن الخيانة من شيم الفاطميين ولذلك تصرفوا بذاك التصرف المشين.

---

[1] السيوطي: نفس المصدر السابق، ص 350.
[2] ابن كثير: نفس المصدر السابق، ج12، ص 302.
[3] ابن تغري بردي: نفس المصدر السابق، ج06، ص 07.
[4] ابن ظافر الأزدي: نفس المصدر السابق، ج1، ص 264. Stanley lane- Poole. M.a :op- cit, p 85. David Nicolle. Ph. D: Saladin and the Saracens, color plates by angus McBride, copyright 1986 reed. International books. Ltd, p 15.

الخــــاتمة

الخاتمة:

وختاما لهذا البحث يمكننا ترصد مجموعة من النقاط الهامة، سواء المتعلقة بعملية التأريخ للدولة الفاطمية، أو لمجريات الحوادث عامة، ذلك أن التاريخ الفاطمي عامة ظهر إلى وقت قريب بملامح باهتة، إذ أن المصادر المتخصصة في تاريخهم ضئيلة بالمقارنة مع ما حظيت به الدول الأخرى على غرار الدولة العباسية مثلا، وإن كان الإحجام عن دراسة التاريخ الفاطمي هو من جانب السنيين، أكثر منه من جانب الفاطميين، ولذلك جاء تاريخها مشكوكا فيه إلى حد بعيد، ومن ذلك مثلا ما حدث من الاختلاف في نسب الفاطميين، فإلى غاية الساعة لا يزال البت في صحته من انعدامها منعدما.

يضاف إلى ذلك أن التاريخ العام لهذه الدولة، ظل مشكوكا فيه هو الآخر، في ظل احتكار عملية تأريخه من طرف الشيعة، فقد كنا نرى مثلا أن الأوضاع في مصر، لم يتم التأريخ لها إلا من طرف الشيعة، وقد تكون مسيرة حسب أهوائهم.

وعلى العكس من ذلك فقد حظيت منطقة بلاد الشام، بالدراسة من طرف السنة، وذلك لاستحواذها على أغلب المؤرخين السنة، ولذلك جاءت حوادث هذه المنطقة، واضحة وصادقة إلى حد بعيد، وذلك لتطابقها مع بعضها البعض.

كان هذا عن عملية التأريخ للدولة الفاطمية، أما عن الحوادث التي جرت عبر تاريخها وخاصة عن دورها في التصدي للعدوان الصليبي على الشام ومصر، فإنه يمكننا أن نقول أن الدولة الفاطمية، كما ابتدأت تاريخها كما أنهته، وبمعنى آخر أنها عاشت طوال حياتها تبحث عن مصالحها الشخصية لا غير، فقد كان قيامها على أنقاض دول أخرى، بل إنها عملت كل ما بوسعها للقضاء على هذه الدول، وليتها قضت عليهم وحسب، بل ارتكبت لأجل ذلك جرائم كثيرة، راح ضحيتها العديد من المسلمين السنة.

ثم إنه اتضح لنا أن الفاطميين يتصفون بصفة، لا نجدها عند المسلمين الآخرين، وهي الغدر فقد تميزت بهذه السمة، بل وكانت وسيلة من وسائلها، وكانت بدايتها عندما أعلن المهدي قيام الدولة الفاطمية، حيث قام بعمليات تصفية واسعة، في حق من كانوا المهندسين الحقيقيين لدولته المتربع على عرشها، حيث قضى على مجموعة كبيرة من كبراء كتامة، كما قضى على مؤسس الدولة شخصيا، وهو الداعي أبو عبد الله الشيعي، فبدل أن يكرمه، ويضعه إلى جانبه لاستشارته في أمور الدولة، قام بالتخلص منه، وهنا نتأكد أن هذه الدولة قامت على مصالح شخصية وحسب، ولو كانت غير ذلك لما تصرفت بهذه الطريقة.

واتضح لنا أيضا أن الفاطميين كان هدفهم الوحيد، هو القضاء على السنة، بمعنى القضاء على العباسيين أعداؤهم الحقيقيون، ولذلك كانوا يبثون دعاتهم في

داخل الدولة العباسية، حتى أنهم تمكنوا من احتلال مقر الخلافة (بغداد) لما يربو عن سنة، وفي ذلك يمكننا الإشارة إلى الكفاءة التي يتمتع بها دعاتها، وقدرتهم على كسب موالين لها في أي بلد يحطوا فيه رحالهم ويمكننا أيضا الإشارة إلى الوضع المتردي للدولة العباسية في ذلك الوقت، بعد أن دخلت في دوامة الصراعات الداخلية، وهو ما سهل من مهمة سقوط العاصمة بغداد بأيدي الفاطميين.

هذا وقد واصل الفاطميون سياستهم العدائية تجاه المسلمين السنة، فقد رأيناهم يتعادون مع البيزنطيين، ثم يتحالفوا معهم إذا دخلوا في نزاع مع المسلمين السنة، ولو لم يكونوا عدائيين لهم لما فعلوا ذلك، وكان حريا بهم أن يتحالفوا مع السنة ضد البيزنطيين، ومن جهة أخرى لم يكن السنة عدائيون مثلهم، ورأينا كيف أن الإمبراطورة البيزنطية ثيودورة اقترحت عليهم مرة أن يتحالفوا معها، فأبوا، ثم عرضت الفكرة على الفاطميين فوافقوا مباشرة.

ولولا خياناتهم المتكررة، لما تيسر فيما بعد للصليبيين الدخول في البلاد الإسلامية، فقد أدت نزاعاتهم مع السلاجقة تارة، ومع الإمارات العربية في بلاد الشامية تارة أخرى، إلى إضعاف الجبهة الإسلامية، وهو ما جعل الصليبيين يفكرون في غزو البلاد الإسلامية، وأكثر من ذلك فقد اتهمها مجموعة من المؤرخين وعلى رأسهم ابن الأثير، والسيوطي، بأنها هي المتسبب الأول في الحروب الصليبية، حيث أرسلوا إليهم لما رأوا تزايد قوة السلاجقة.

ولما قامت الحروب الصليبية في بلاد الشام، كانت الدولة الفاطمية هي السباقة، إلى التحالف معها، ضد السلاجقة، وكان في نظر الفاطميين أن الصليبيين يقصدون فقط المناطق الخاضعة للسلاجقة، ولذلك عمدوا إلى هذه الطريقة، نكاية في السلاجقة أعداؤهم حسب اعتقادهم وليتهم توقفوا عند ذلك الحد، ولكنهم تعدوا ذلك حين بادروا إلى الانتقام من السلاجقة بأن استولوا على بعض المناطق الواقعة تحت تصرفهم، على غرار بيت المقدس ومدينة صور.

وقد كانت معاملاتهم هذه خير دليل على كرههم وحقدهم على المسلمين السنة، وإلا كيف يتصرفون بهذه التصرفات ضد إخوانهم ؟، ولعل ما يدعم قولنا هذا أيضا، هو أن الفاطميين وقفوا موقف المتفرج، على مسلمي كل من أنطاكية، وحمص، ومعرة النعمان، وهم تحت رحمة الصليبيين، في حين كانوا هم (الفاطميون) يرزحون في بحبوحة من الأمن والقوة وأكثر من ذلك لما علم الفاطميون بأن مقصد الصليبيين بيت المقدس، بادروا مرة أخرى إلى الذل والمهانة، حيث أرسلوا إليهم يتوددون لهم، ويعرضون عليهم امتيازات أخرى، لكن مسعاهم هذا باء بالفشل مرة أخرى.

غير أن موقفهم العام تبدل عندما قصد الصليبيون بلادهم، حيث أدركوا أن ركونهم إلى السلم، لن يحقق لهم مطالبهم، وقد يفقدهم حتى أملاكهم، ولذلك بادروا إلى تجهيز أنفسهم للوقوف للند ضد الصليبيين، وكانت البداية من حامية بيت المقدس التي عملت كل ما بوسعها لتأمين الجبهة الداخلية للمدينة، كما قام القيمون على الدولة الفاطمية في مصر، بتجهيز حملة عسكرية كبيرة لطرد الصليبيين نهائيا، غير أن كل محاولاتهم باءت بالفشل، وسقطت بيت المقدس بأيدي الصليبيين، الذين تفننوا في القتل والتنكيل بالمسلمين هناك.

وكان بإمكان الفاطميين تفادي مثل هذه المجازر لو أنهم جهزوا أنفسهم منذ بداية الحملات الصليبية، أو أنهم توحدوا مع السلاجقة، لكنهم جنوا ثمرة خياناتهم الأولى وهي سقوط بيت المقدس، ثم تلتها سقوط جل مدن فلسطين الأخرى بعد فترة قصيرة، وبعدها مدن ساحل الشام، وإن كانت الدولة الفاطمية قد حاولت جاهدة للحد من هجومات الصليبيين، إلا أنها عجزت في أغلب محاولاتها، ثم خارت قواها مع مرور الوقت، وعمد الوزير الأفضل وهو القيم عليها يومئذ نيابة عن الخليفة، إلى ابتكار أسلوب جديد في الدفاع عن بقية مدن الشام، وهو تقديم مساعدات اقتصادية لسكان هذه المدن، حتى يتقووا بها على مجابهة الصليبيين، لكنه هو الآخر باء بالفشل الذريع، وأضحت كامل بلاد الشام بما فيها أغلب فلسطين تحت رحمة وتسلط الصليبيين.

وإذا كان الفاطميون قد تحلوا بنوع من الذكاء في دفاعهم على فلسطين، وبعض مدن ساحل الشام، إلا أنهم عادوا إلى خياناتهم بل وذلهم، في دفاعهم عن مصر، فبدلا من أن يتوحدوا مرة أخرى مع قوات نور الدين محمود، لطرد الصليبيين الذين يقصدون بلادهم وخيراتهم، إلا أنهم تحالفوا مع الصليبيين ضد نور الدين، وهو مظهر آخر من مظاهر العدوانية الصريحة للمسلمين السنة، وقد رأينا كيف أن نور الدين محمود عانى من الكثير من غدر شاور فمرة يطلب مساعدته، ثم يغدر به، ومرة يستنجد شاور بالصليبيين، ضد قوات نور الدين محمود، لكن خيانات شاور ومحامله وإن كثرت، إلا أنها انتهت ضده، فقد عملت قوات نور الدين محمود، تحت قيادة أسد الدين شيركوه، وابن أخيه صلاح الدين بن نجم الدين أيوب جاهدة إلى طرد الصليبيين المتحالفين مع شاور، وتوحيد مصر ببلاد الشام، أو إعادتها إلى حاضرة السنة، وهو الخيار الأمثل، إن تيسر لها ذلك، و بعد جهد جهيد تمكنت من ذلك وانتهت محاولات الجيش النوري، بالقضاء على شاور، ومن بعده بسنوات قليلة القضاء الدولة الفاطمية، منهيا بذلك تاريخها المليء بالمؤامرات والدسائس، التي ما فتئت تنخر جسم الأمة الإسلامية جمعاء.

وإجمالا يمكننا القول أن الدولة الفاطمية كانت السبب في استيلاء الصليبيين على كامل بلاد الشام، وبالتالي فهي المتسببة في كل المجازر التي حدثت في حق المسلمين، ولو أنها تصرفت منذ البداية بحكمة، وتوحدت مع السلاجقة لتغير تاريخ بلاد الشام كاملا، وإضافة إلى ذلك أظهرت عجزا واضحا في تصديها لهذا العدوان لما استفحل وجوده في البلاد الإسلامية.

هذا ويمكننا القول أن الدولة الفاطمية كانت قد أمضت عن وثيقة نهاية حياتها، حين أعلنت عن تحالفها مع الصليبيين ضد السلاجقة، حيث كلفها ذلك سقوط بلاد الشام كاملة بما فيها المدن الخاضعة لها، ولما استفحل أمر الصليبيين، كان الفاطميون قد ضعفوا ووهنوا، وطبيعيا أن يفكر الصليبيون في مصر نفسها، فعملوا على ذلك، لكنهم لم يحظوا بشرف السيطرة عليها وإنما نال شرف ذلك، نور الدين محمود، الذي أنهى وجودها.

قائمة المصادر

والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر:

1- ابن الأبار عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي: الحلة السيراء، حققه وعلق عليه: حسين مؤنس، دار المعارف، ط2(1985)، القاهرة، ج1.

2- ابن الأثير عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني: الكامل في التاريخ، راجعه وصححه: محمد بن يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية بيروت ط1(1408هـ/1987م).

3- ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القدر عطا راجعه وصححه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ب-س-ط، ج17.

4- ابن الصيرفي المصري أبي القاسم علي بن منجب بن سليمان: الإشارة إلى من نال الوزارة، تحقيق وتعليق، عبد الله مخلص، المعهد العلمي الفرنسي الخاص بالعاديات الشرقية بالقاهرة 1992.

5- ابن العبري جمال الدين: تاريخ الزمان، نقله إلى العربية، إسحاق أرملة، قدم له حان موريس فييه، دار المشرق، بيروت، ط2 (1991م).

6- ابن العبري غريغوريوس الملطي: مختصر الدول،دار المشرق، بيروت، الطبعة الثالثة (1992م).

7- ابن العديم الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد ابن أبي جرادة(ت660هـ): بغية الطلب في تاريخ حلب، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت، جمهورية ألمانيا الاتحادية (1406هـ/1986م).

8- ابن العديم الصاحب كمال الدين عمر بن أحمد ابن أبي جرادة: زبدة الحلب من تاريخ حلب، حققه وقدم له، سهيل زكار، دار الكتاب العربي، (1418هـ/ 1997م)، دمشق، ج1.

9- ابن الوردي زين الدين عمر بن مظفر: تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية بيروت، (1417هـ/1996م)، ج2.

10- ابن الوكيل يوسف الملواني: تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، (1419هـ/1999م)، القاهرة.

11- ابن خلدون عبد الرحمن: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر، (1421هـ/2000م)، ج4.
12- ابن سباط الغربي حمزة بن أحمد بن عمر: صدق الأخبار في تاريخ بن سباط، عني به وحققه: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس، ب-ط.
13- ابن شداد بهاء الدين: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، ط2، (1415هـ/1994م) القاهرة.
14- ابن عبد الظاهر محي الدين أبو الفضل عبد الله: الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة، حققه وعلق عليه أيمن فؤاد السيد، مكتبة الدار العربية، (1417هـ/1996م)، القاهرة.
15- ابن كثير عماد الدين أبو الفدا إسماعيل: البداية والنهاية، خرج أحاديثه: أحمد بن شعبان بن أحمد و محمد بن عيادي بن عبد الحليم، دار البيان الحديثة، مكتبة الصفا القاهرة (1423هـ/2003م)، ج12.
16- ابن ميسر محمد بن علي بن يوسف بن جلب: أخبار مصر، تحقيق هنري ماسييه المعهد العلمي الفرنسي الخاص بالعادات الشرقية، القاهرة، ب-س-ط،ج2.
17- أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر(بيروت) ب-ط.
18- أبو الفدا الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب: المختصر في أخبار البشر، علق عليه ووضع حواشيه، محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، (1417هـ/1997م)، ج2.
19- أبو المحاسن جمال الدين بن تغري بردي الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى (1413هـ/1992م).
20- أبو شامة شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الشافعي: الروضتين في أخبار الدولتين النورية الصلاحية، مطبعة وادي النيل (القاهرة)، (1287هـ/1870م)، ج01.
21- أبو يعلى حمزة بن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، دار الآباء اليسوعيين، بيروت لبنان، 1980.

22- الأزدي علي بن ظافر بن الحسين: أخبار الدول المنقطعة، ج1، الجزء المخصص للدولة العبيدية، تحقيق(د- عصام هزايمة وآخرون)، دار الكندي (أربد- الأردن) ط1(1999).
23- الأصفهاني عماد الدين محمد بن محمد بن حامد: تاريخ دولة آل سلجوق، اختصار الشيخ الإمام العالم الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، طبع على نفقة شركة طبع الكتب العربية بمطبعة الموسوعات، شارع باب الحلق بمصر (1318هـ/ 1900م).
24- الأنطاكي يحي بن سعيد يحي: تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيخا، تحقيق الدكتور: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، طرابلس (لبنان)، 1990.
25- توديبو بطرس: تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، نقله إلى الإنجليزية: جون هيوج هيل ولوريتال هيل، نقله إلى العربية وعلق عليه حسين محمد عطية، تقديم: جوزيف نسيم، دار المعرفة الجامعية (1999م) الإسكندرية.
26- الجندي محمد سليم: تاريخ معرة النعمان، حققه وعلق عليه، ووضع فهارسه: عمر رضا كحالة، وزارة الثقافة السورية (دمشق) 1994، ج1.
27- الحريري أحمد بن علي: الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين، حقق نصه وعلق عليه وقدم له ، سهيل زكار، مكتبة دار الملاح (1401هـ/1981م).
28- الحريري سيد علي: الأخبار السنية في الحروب الصليبية، ط3(1406هـ/ 1985م)، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة.
29- الذهبي شمس الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن عثمان: دول الإسلام، حققه وعلق عليه، حسن إسماعيل مروة قراءة وقدم له محمود الأرناؤوط، دار صادر بيروت، ط1(1999م)، ج2.
30- الذهبي شمس الدين: العبر في خبر من غبر، حققه وضبطه على مخطوطتين: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ب-س-ط، ج2.
31- الذهبي شمس الدين: تاريخ الإسلام، ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عبد السلام تدمري دار الكتاب العربي، ط1(1407هـ/1987م)، ج35.
32- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن ، تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم، ط1(1424هـ/ 2003م) بيروت.

33- الشارتري فوشيه: تاريخ الرحلة إلى القدس (1127/1095م)، ترجمة من اللاتينية إلى الإنجليزية فرنسيس ريتا ريتان، حرره وقدم له هارولد.س.فنك، نقله إلى العربية الدكتور زياد جميل العسلي، دار الشروق بيروت لبنان، الطبعة العربية الأولى، 1990م.
34- شيخ الربوة شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي، بيروت (1408هـ/ 1988م).
35- الصوري ويليام: الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق، الدكتور حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الجزء الثاني، (1992م).
36- عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، دار الجيل بيروت، ب-ط.
37- العسقلاني ابن حجر شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد: رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى (1418هـ/1998م).
38- العليمي مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس (عمان) (1420هـ/1999م)، ج1.
39- القرشي عماد الدين إدريس: عيون الأخبار وفنون الآثار في فضل الأئمة الأطهار تحقيق: مصطفى غالب دار الأندلس ط2 (1404هـ/1984م).
40- الكندي بن عمر محمد بن يوسف: تاريخ ولاة مصر، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت (1407هـ/1987م).
41- مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمه وقدم له وعلق عليه، حسن حبشي، ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي، (1958).
42- المراكشي ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة بيروت،ب-س-ط، ج1.
43- المقريزي تقي الدين أبي العباس تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ): إغاثة الأمة بكشف الغمة: قدم له وعلق عليه، ياسر سعيد صالحين دار ابن الوليد، سوريا ب-س-ط.
44- المقريزي تقي الدين أحمد بن علي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا: تحقيق محمد عبد القادر عطا منشورات محمد علي بيضون،دار الكتب العلمية بيروت(لبنان)، جزئين.

45- المقريزي تقي الدين: المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1 (1411هـ/1991م)، ج4.
46- المقريزي تقي الدين: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط2 (1987)، ثلاث أجزاء.
47- ناصر خسرو علوي: سفرنامة، ترجمة: يحي الخشاب تصدير: عبد الوهاب عزام الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة (1993).
48- النوبختي الحسن بن موسى و القمي سعد بن عبد الله: فرق الشيعة، حققه: عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، (1412هـ/1992م).

ثانيا: المراجع:

1- أحمد عوض محمد مؤنس: في الصراع الإسلامي الصليبي(السياسة الخارجية للدولة النورية)، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، (1998م) ب-د-ن.
2- أحمد عوض محمد مؤنس: في الصراع الإسلامي الصليبي(معركة أرسوف587هـ/1191م)، ط1(1997م)، ب-د-ن.
3- باركر أرنست: الحروب الصليبية، نقله إلى العربية، السيد الباز العريني، دار النهضة ب-د-ن، بيروت.
4- البرغوثي عمر الصالح و طوطح خليل: تاريخ فلسطين، مكتبة الثقافة الدينية، مصر ب-د-ن.
5- تيسير بن موسى: نظرة عربية على غزوات الإفرنج من بداية الحروب الصليبية حتى وفاة نور الدين محمود، الدار العربية للكتاب، ب-د-ن.
6- جمال الدين عبد الله محمد: الدولة الفاطمية، قيامها ببلاد المغرب، وانتقالها إلى مصر إلى نهاية القرن الرابع الهجري، مع عناية خاصة بالجيش، دار الثقافة (1411هـ/1991م)، القاهرة.
7- جمال عبد الهادي محمد مسعود: الطريق إلى بيت المقدس(القضية الفلسطينية)، دار الوفاء، المنصورة، ب-س-ط.

8- جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، دار النهضة العربية(بيروت)، ط3(1981).
9- جوزيف نسيم يوسف: الوحدة وحركات اليقظة العربية إبان العدوان الصليبي، دار النهضة العربية(بيروت)، ط2(1981).
10- الخربوطلي علي حسني: أبو عبد الله الشيعي مؤسس الدولة الفاطمية، المطبعة الفنية الحديثة، 1992.
11- الخضري بك محمد: محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية (الدولة العباسية)، راجعه واعتنى به: نجوى عباس، دار المختار، مصر (2003م).
12- الدشراوي فرحات: الخلافة الفاطمية بالمغرب (296-365هـ/909-975م) التاريخ السياسي، والمؤسسات، نقله إلى العربية، حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت(1994).
13- دفتري فرهاد: الإسماعيليون في العصر الوسيط، تاريخهم وفكرهم، ترجمة سيف الدين القصير، دار المدى، القاهرة (1999م).
14- رنسيمان ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار الثقافة بيروت(1968)، ج2.
15- ريلي سميث جوناثان: الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة: محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ب-ط.
16- سالم عبد العزيز: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، (1982م).
17- سالم عبد العزيز: تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة (1986)، ب -د-ن.
18- سالم عبد العزيز: طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، ب -د-ن.
19- السرجاني راغب: قصة الحروب الصليبية، موقع قصة الإسلام.
20- سرور محمد جمال الدين: النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس هجريين، دار الفكر العربي، القاهرة، ب -د-ن.
21- سويد ياسين: حروب القدس في التاريخ الإسلامي والعربي، دار الملتقى بيروت(1997م).
22- سيد فؤاد أيمن: الدولة الفاطمية في مصر، تفسير جديد، الدار المصرية اللبنانية (1413هـ/1992م).

23- السيد محمود: تاريخ الحروب الصليبية في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية (2002م).
24- سيمينوفا .ل .أ: تاريخ مصر الفاطمية، ترجمة وتحقيق، حسين بيومي، المجلس الأعلى للثقافة (2001م)
25- الصاوي أحمد السيد: مجاعات مصر الفاطمية، أسباب ونتائج ، دار التضامن، ط1 (1988)، بيروت.
26- طقوش محمد سهيل: تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، دار النفائس بيروت(لبنان)، ط2(1428هـ/2007م).
27- عارف باشا العارف: تاريخ القدس، دار المعارف، ط2، ب -د-ن.
28- عبده قاسم: الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية (دراسة عن الحرب الأولى 1095-1099م)، ط1(1999م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ب -د-ن.
29- عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1978.
30- عمران محمود سعيد: تاريخ الحروب الصليبية(1095-1291م)، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية)، 1995.
31- الغامدي مسفر بن سالم بن عريج: الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي قبل قيام الدولة الأيوبية في مصر، ديوان المطبوعات الحديثة، ب-س-ن.
32- فوزي فاروق عمر و محسن محمد حسين: الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الوسيط(13هـ/634م- 923هـ/1517م)، دار الشرق(عمان)، (1999م).
33- لقبال موسى: دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية، منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (11م)، دار الأمل (السحاولة-الجزائر)، (2007م)، ج1.
34- لقبال موسى: ملحمة أبي الفضل جعفر بن فلاح بن أبي مرزوق، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر (1990).
35- ماير هانس إبرهارد: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق: عماد الدين غانم، ب-د-ن.
36- المطوي محمد العروسي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط2 (1982)، دار الغرب الإسلامي.

المراجع باللغة الأجنبية:

01- David Nicolle. Ph. D: Saladin and the Saracens, color plates by angus McBride, copyright 1986 reed. International books. Ltd.
02- De lacy o'leary.d.d: A short history of the Fatimid khalifate, London, kegan paul, trench, trubener. Co. ltd, new York: e.p. Dutton.co. 1923.
03- Walter porges, the clergy and other noncombatants on the first crusade, A study based chiefly on the contemporary narrative and epistolary sources, Chicago, Illinois, (1942).
04- Tood Patrick Upton: sacred topography western sermon perceptions of Jerusalem the holy sites and Jews during the crusade(1095-1193), proquest information andlerning company(usa), (2007).
05- Alan.v. Murray: from Clermont to Jerusalem, the crusades and crusader societies(1095-1500), turnhut, brepols, (1998).
06- King, William Laurence.m.a: cultural diffusion in the crusade states, 1098-1187, copyright, california state university , fullerton, (1994).

قائمة الفهارس

أولا: فهرس الأعلام

ثانيا: فهرس الأماكن

ثالثا: فهرس الأيام

رابعا: فهرس الشعوب والطوائف

أولا- فهرس الأعلام:

-أ-

-ف-

-ق-

-ك-

-م-

-ن-

- هـ

-و-

-ي-

ثانيا: فهرس الأماكن:

-أ-

-ب-

-ت-

-ج-

-ح-

-خ-

-د-

-ر-

-ز-

-س-

-ش-

-ص-

-ض-

-ط-

-ع-

-ل-

-م-

-ن-

-هـ-

-و-

-ي-

ثالثا- فهرس الأيام:

رابعا: فهرس الشعوب والطوائف:

فهرس الموضوعات

خامسا: فهرس الموضوعات: